يورج بابروفسكي

العنف والإنسان

كيف يؤثر العنف على البشر، ويعيد تشكيل حيواتهم؟

ترجمة د. علا عادل

مكتبة الحبر الإلكتروني
@bookkn
@d110d

سفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

العُنْفُ والإنْسانُ

كَيْفَ يؤثِّرُ العُنْفُ عَلى البَشَرِ، ويُعيدُ تَشْكيلَ حَيَواتِهِمْ؟

يورج بابروفسكي

ترجمة د. علا عادل

إلى "بيتريش جاير

"لقد أدركتُ معنى السلطة، وما يعنيه رجل يحمل سلاحًا".

فارلام شالامو

: تم تحويل الكتاب الى الصيغة النصية بواسطة

مكتبة الحبر الإلكتروني

أسعد الكناني

مقدمة

يقول الكاتب أوفه تيم Uwe Timm متذكرًا: "كان ظهور أرتور كروزه Arthur Kruse في الحرب أولًا من هامبورج، ثم في بولندا وبعدها روسيا وأوكرانيا، لقد نُسيت حكاياته، المعايشات كبيرها وصغيرها، عدا واحدة، تلك التي جعلت من هذا الرجل -البسيط نوعًا ما والمتَّسم بالود تجاهنا نحن المتدربين- مخيفًا دائمًا، إذ تعين عليه -ذات مرة- في أحد أيام شهر يوليو الحارة بصيف 1943 أن ينقل اثنين من الأسرى الروس من الجبهة إلى نقطة تجمع، اثنا عشر كيلومترًا ذهابًا وعودة في طريق رملي، غبار وليس سوى الغبار، وبعد ساعة قال ستويStoi لهما: "قفا!"، فالتفت الأسيران نحوه وهو يشرب من زمزميته، فشعرا بالعطش، وهو ما تجلّى في حملقتهما إليه، حينئذ وضع الزمزمية على الأرض وأسندها على حجر حتى لا تنكفئ، ثم ارتد ثلاث أو أربع خطوات إلى الخلف ولوَّح لهما كي يشربا، إلا أنه ظل ممسكًا ببندقيته تحت ذراعه، وأُصبعه على الزناد، تردد الرجلان ثم تقدما وأمسكا بالزمزمية وأخذ كل منهما رشفة واحدة، ثم رشفتين ليس أكثر، وبعدها أعادا الزمزمية مكانها على الحجر، فقال كروزه إنه أشار لهما كي يهربا، تردد الاثنان: هيا اهربا! لوَّح بيده، ثم بعد لحظة انطلق الاثنان يعدوان، حينئذ رفع كروزه بندقيته عاليًا وأطلق رصاصتين متلاحقتين: كنت قناصًا جيدًا، أمامي هدف للتصويب، كانا سيموتان جوعًا على أي حال، في ما بعد في معسكر اعتقال الأسرى، ثم عاد أدراجه واستراح قليلًا على الطريق، وتناول طعامه، ومعه قطعة نقانق مدخنة، واحتسى ما في الزمزمية عن آخره، ثم واصل سيره متوجهًا إلى الوحدة وأبلغ أنه أردى اثنين من الأسرى قتلى وهما يحاولان الفرار، كان هذا جيدًا!.

أنا أيضًا سمعت حكايات عن الحرب في طفولتي، من رجال عاصروها جنودًا، حكى بعضهم عن مغامراتهم وعن أمور مضحكة، عن الحيوان والطبيعة، ولكنهم نادرًا ما تحدثوا عن حرفة القتل، كما لم يتحدثوا مطلقًا عن موت الرفاق، حتى وإن فعلوا ذلك فكانوا يتحدثون بشفرات، ما يجعل المستمع يتصور الحرب كما لو كانت حدثًا لا صوت له ولا رائحة، فكل شيء آخر كان من شأنه

أن يحرمه النوم، كان الرواة يعرفون ما الذي يمكن أن يحكوه في العالم الذي يستمع الناس فيه إلى قصصهم، وما الذي لا ينبغي حكيه، ذات مرة حكى لي أبي الذي كان قائد مدرعة على الجبهة الغربية، كيف أطلق هو ورفاقه وابل نيران على رتل مركبات أمريكي، وقال:" إن المعركة انتقلت بداية عام 1945 إلى سلسلة جبال إيفيل، حيث سار الرتل الأمريكي ببطء ليصعد أعلى الوادي من شارع ضيق، فرآهم أبي ورفاقه قادمين فاستعدوا وجهزوا مدرعاتهم، ثم صوبوا قذيفة واحدة محددة الهدف من مدفع المدرعة وأصابوا أولى مركبات الرتل ودمروها، هكذا عجز الأمريكان عن الحركة، ولم يكن بإمكانهم المضي قدمًا أو العودة إلى الخلف، فراح جنود يصوبون قذائفهم على المركبات العالقة بين عربات التموين والإمداد الأمريكية كما لو كانت طيور حمام من الصلصال ودمروها واحدة تلو الأخرى".

لم تؤرقني هذه القصة بأي حال من الأحوال آنذاك، فلم يمُتْ أحد بالنسبة لي كصبي وقتها، لم يُدمر سوى مركبات، رتل للعدو، ولم أتمكن من تخيل أي شيء وراء هذه القصة، لاحقًا عندما استحضرت هذه القصة مرة أخرى في الذاكرة وأنا طالب راودتني فكرة كون أبي قد قتل بشرًا وأن هؤلاء البشر لا بد وأنهم احترقوا داخل مركباتهم، وتساءلت عما فكر فيه أبي حينما رأى حطام السيارات المحترقة وسمع صرخات المصابين؟ تُرى هل كان قد اعتاد ذلك؟ هل شعر بالصدمة؟ هل أحس ربما بالتعويض لأن جنود الأعداء كانوا قد قتلوا رفاقه بدورهم؟ لا أعرف، إلا أنني لم أتمكن من الربط بين صورة جندي المدرعة وأبي الذي كان متسلطًا لكنه كان أحد أبناء منطقة الراين الذين يتسمون بالمرح.

نحن ننكر العنف لأننا -نحن الأشخاص المسالمين الطيبين- لا نستطيع أن نتخيل أنفسنا من ممارسي العنف، ورغم أن العالم لا يسكنه الأشرار فقط، ينتشر العنف في كل مكان، يتضارب الناس ويتقاتلون مبررين ذلك بدافع الطاعة، أو لكونهم مجبرين، أو بحكم العادة، أو بدافع السعادة، أو لأنهم تتعين عليهم مواجهة من يمارس العنف، فمن الواضح أن الأمر لا يتعلق بالنوايا والقناعات بل بالإمكانات والمواقف الخاصة بشأن ما إذا كان الإنسان يمارس العنف وكيفية ذلك، إن موطن العنف هو مكان آخر يختلف عن موطن السلام، من يطأه يتجاوز بلدًا غريبًا يصبح فيه

شخصًا آخر، فالعنف لا يدع أحدًا دون أن يمسه، ولا أحد يستطيع الفرار من قهره، إنه ديناميكي ويغير كل العلاقات الاجتماعية وفق شروطه.

أكثر من خمسة عشر عامًا قضيتها منشغلًا بفظائع الحكم الستاليني العنيف، وقد علمتني هذه التجربة أن البشر قادرون على كل شيء عندما يتحركون في نطاق لا يكون العنف فيه ممنوعًا بل متاحًا، كما أقنعتني التجربة أن الإنسان لا يعرف شيئًا عن تأثير العنف إذا لم يدركه على أنه حدث دموي، والقارئ لا ينبغي أن ينتابه الامتعاض بل يشعر بالغثيان حتى يفهم أن العنف ليس حدثًا مجردًا كلينيكيًا نظيفًا، بل هو يتسبب في سقوط مصابين وقتلى وفي ألم ودماء ودموع، من لا يرغب في الكتابة عن العنف ينبغي أن يصمت بشأن ما يخصه.

إن الكتابة عن العنف تغير المؤلف نفسه، إذ يصبح متشائمًا وتتعين عليه حماية نفسه من الشر الذي يراه ويشعر به في كل مكان، ذات يوم يتعين عليه أن يكف عن الانشغال بالعنف؛ لأنه يسمِّم حياته ويعكر مزاجه، لقد قضيتُ سنواتٍ كثيرةً من حياتي أبحث عن إجابة سؤال ما يفعله الناس في العنف؟ وكيف يشكل العنف الناس؟ أيًا كان ما يحدث فالعنف دائمًا ما يصبح مملكة "الظلام غير القابل للاختراق"، والتي نفتقدها لكننا لا نستطيع أن نفهمها بالكامل، حسب ما كتبه جاك سيملين[1] Jacques Sémelin .

كما أن العنف شأنه شأن الحب، ينقلنا إلى حالة اندهاش لا تُصدق، ورغم ذلك يتعجب كل منا على طريقته، لذا تختلف الأسئلة التي يوجهها المؤرخون كذلك، وقد طرحت- بِدوَرِي- في هذا الكتاب أسئلة حركتني، وقدمت إجابات اعتبرتها مقبولة، ومن يبحث عن أسئلة أخرى وإجابات أخرى ينبغي أن يقرأ كتابًا آخر.

لم أكن لأتمكن من تأليف هذا الكتاب لولا مساعدة بعض الأصدقاء والزملاء، فقد قرأ كل من روبرت كيندلر Robert Kindler وفيليكس شنيل Felix Schnell وكريستيان تايشمان Christian Teichmann نص الكتاب، وانتقدوا ما رأوا أنه غير مقبول، كما ذكرني كريستيان تايشمان أن الأمر لا يتعلق بالكمال بل بالوضوح، أشكرهم جميعًا على مساعدتهم وصداقتهم التي

منحوني إياها في السنوات الأخيرة، كما أتوجه بالشكر إلى تانيا هومن Tanja Hommen من دار نشر فيشر، على نقدها الذي ساعدني على تصحيح بعض الأحكام المتسرعة.

ينبغي على المؤرخين أن يكتبوا جملًا جميلة، ينبغي أن يفكروا في قرائهم وأن يكتبوا بلغة تتناسب مع حكايتهم، وقد تعلمت من ديتريش جاير أن أسلوب نص ما، ومحتواه، لا ينفصلان بعضهما عن بعض، أهدي هذا الكتاب إلى هذا الرجل المحب للأسلوب بين المؤرخين الذي بلغ في ديسمبر 2015 سن السابعة والثمانين.

ما العُنف؟ وكيف يُمكننا فهمه؟

"زحفت حرب العصابات صوب الجنوب عبر الأمطار دائمة الانهمار في اتجاه العاصمة"، هذا هو ما تذكره الكاتب الأمريكي دينيس جونسون Denis Johnson الذي كان شاهدًا على الحرب الأهلية الليبيرية عام 1990 وأردف قائلاً:

"في الواقع لم يتوقع أحد أنها ستصل إلى هناك، إلا أن هذا هو ما حدث فجأة في نهاية شهر يونيو، فقد احتل أتباع تايلور المطار، واقترب جونسون من الجانب الآخر وغزا المدينة وعزل الرئيس في مقره كما فعل الشيء ذاته مع جزء كبير من الجيش في منطقة بوسط المدينة تضم بعض المباني السكنية".

(...) بدأ الناس يغادرون المدينة، ورحل أغلب الدبلوماسيين البريطانيين، كما رحل جميع الدبلوماسيين الفرنسيين، وبقي نصف دستة من العاملين بوزارة الخارجية الأمريكية، ونصبت قوات البحرية منصات أسلحة آلية حول مبنى السفارة، انقطع التيار الكهربائي في مونروفيا، ولم يعد الماء متوافرًا، وأصبح هناك نقص في السلع الغذائية، أفرزت الحرب الأهلية وحشية مرعبة، وعندما ظهر رجال تايلور وهم يرتدون ثياب الزفاف وأغطية الرأس عند الاستحمام، تلك الأشياء التي أخذوها على سبيل الغنائم وحاربوا مع الجيش حول مقر الرئيس، انتشر مُناخ من الرعب العبثي، كانت أغطية الرأس البلاستكية مفيدة للوقاية من المطر، أما فائدة ملابس الزفاف فلم يعرفها أحد، وفي المقابل تجول جنود جونسون وهم يضعون على رؤوسهم طواقي أبناء منطقة الباسك وخصلات شعر أعدها لهم أحد صانعي الشعر المستعار، مسرعين بسيارات مرسيدس في الشوارع

وهم يفجرون المنطقة بوحشية من حولهم، تجاسر القاطنون بالقرب من السفارة البريطانية في النهاية على أن يطلبوا من ثوار جونسون ألا يتخلصوا من جثث ضحاياهم على شاطئهم، بسبب الرائحة العفنة، بالطبع قال الثوار إنهم سيفعلون ذلك، في ليبيريا تمتد الشواطئ على مسافة كيلومترات.

(...) تحرك معظم اللاجئين -سيرًا على الأقدام- متجهين أولًا عبر منطقة نفوذ تايلور، ثم نحو الغرب، متخذين أفضل الطرق السريعة في ليبيريا باتجاه سيراليون، تيار من البشر يشبه تدافع الناس بعد انتهاء مباراة كرة قدم، في العادة لا يستغرق اجتياز هذه المسافة سيرًا على الأقدام أكثر من خمسة أيام في منطقة مستوية، غير أن الأمور ازدادت صعوبة بشدة؛ لأن ثوار تايلور- هؤلاء الصبية المتعطشين للدماء من أبناء قبائل جاوومانو، والذين تتراوح أعمارهم في الأغلب بين الحادية عشر والخامسة عشر والمدججين بأسلحة طراز AK-47 وأسلحة آلية طراز إم -16هؤلاء قد بيّتوا النية للكشف عن أبناء قبائل كران ومانديجو جميعهم، وكذلك جميع أفراد جيش الرئيس والحكومة السابقة بين الجموع ثم قتلهم، على بعد نحو ستين كيلومترًا، تحديدًا في مدينة كلاي وصل اللاجئون إلى أول نقطة تفتيش، حينئذ كان المتمردون يسألون: هل تشمون ذلك؟ وكانوا يقصدون رائحة العفن التي سممت الهواء، وقالوا أيضًا: "نتمنى أن تعرفوا من أنتم، وإلا سيستقر بكم الحال هناك من حيث تأتي رائحة العفن".

من لم يتحدث باللكنة السليمة، ومن بدا عليه الثراء أو بدا أنه يتغذى جيدًا، كانوا يطلقون عليه الرصاص أو يقطعون رأسه أو يسكبون عليه البنزين ويشعلون به النيران، كما تعرض البعض للموت غرقًا في نهر مانو، أما اللاجئون الذين وصلوا إلى سيراليون فقد حكوا عن نقاط تفتيش يحيط بها السياج التي ثبتوا على أسياخه المدببة رؤوسًا مقطوعة.

(...) لم يكن الاغتصاب والسلب والقتل هنا أكثر قسوة منه في أماكن الحروب الأهلية الأخرى، غير أن بشاعة هذه الحرب ارتبطت بقوى ظلام معينة من خلال خيوط الشعوذة، ما زادها بأمور غير مبررة وأكثر قبحًا.[2]

قبل ذلك بنحو أربعة عقود، في فبراير من عام 1944، دوّن المُجند ويلي بيتر ريس Willy Peter Reese الذي قضى إجازته في موطنه مدينة دويسبورج، ما شهده هو وزملاؤه قبل ذلك بأسابيع قليلة على الجبهة الشرقية، فكتب يقول: "بسرعة شديدة دارت سيمفونية الحرب الكبرى، وعصفت بعيدة المدى، كنا نسمع أصوات نيران قوات المشاة الروسية، والصدى القادم من الهضاب خلف مقابر الأعداء، كانت القذائف تسقط على الأراضي الخلفية، فيهدر الدوي، ويخيم في صوت زئير أولي ويمتد صداه مثل أصوات جوقة الأشباح، ثم تنطلق أولى الضربات في الغابة الصغيرة، وتنفجر قذائف المشاة لتدوي دويًا أجوفَ وعنيفًا، كانت طلقات النيران الصادرة عن المدرعات والأسلحة الآلية المثبتة على المدرعات تهدر قريبًا منا، وتدوي بصوت رنان عند الانفجار، وسرعان ما تنفجر ذخيرة قاذفات مدافع الهون، بينما بسطت الأسلحة الآلية شبكتها القاتلة، ظلت انطلاقات كشافات الضباب الروسية تنقر تجاهنا، حيث كانت أصوات الرنين التي تصم الآذان وأصوات الأنين، والصفير والنحيب والصراخ تتوالى دون انقطاع، حتى تحولت إلى إعصار غرق في رعد متواصل بلا نهاية، لم نعد قادرين على التمييز بين طلقات البنادق وضربات القذائف، كانت تلك نيران حامية، جلسنا في الخندق وقد ارتدينا ملابسنا واستعددنا بأسلحتنا، لم يكن هناك ما يحمينا سوى طبقتين من الكمرات الخشبية وأكوام التراب، إلا أننا شعرنا بالتحرر من الشلل والانتظار الخانق، فقد بدأت المعركة، ولم يكن الاشتباك ليزداد سوءًا عن تلك البداية، ظل الخندق يهتز ويرتج، كنا نتطلع بهدوء على وطيس الحرب، وعلى النيران والكتل الأرضية المتطايرة والدخان، تصاعدت أتربة سوداء عاليًا لتسقط مجتمعة أمامنا، كما ذرت الرياح أبخرة بنية شاحبة وصفراء وسوداء ورمادية تصاعدت من دخان البارود، كانت الرائحة نفاذة حتى أنها بلغت رئتنا وأحرقت أعيننا، ومثلما بدأ القصف الهادر فجأة انتهى فجأة وانتقل مرة أخرى إلى الأراضي الخلفية، اهترأت أسلاك الهواتف ولم يتجاسر أحد جنود المراسلة على الخروج، ولكننا كنا نعرف أن الموجة الأولى من الروس قد اجتاحت الخنادق الكائنة أمامنا الآن، أسرعنا صوب مدافع الهاون وأحضرنا أسلحتنا الآلية وجهزناها، ورأيناهم وهم قادمين، يرتدون ثياب التمويه البيضاء ويشكلون مجموعات وصفوفًا، لتنطلق نيران الدفاع، رأيناهم يسقطون ويتعثرون ويفرون، مرت ساعة، الموجه الثانية أيضًا اندحرت أمام نيران الأسلحة الآلية الألمانية، وقذائف قوات المشاة ومنصات الصواريخ، ثم حل الغسق، امتدت أمامنا جثث الموتى، فيما راح الجرحي يزحفون للخلف، حملنا جرحانا إلى الطبيب، ساد الصمت بشكل مخيف، لم يقطعه سوى دوي خَلفَهُ من حين

لآخر أشبه بصدى ضوضاء النهار، بيد أن غابة الأساطير الصغيرة تبدلت، إذ لم يعد الجليد أبيض اللون، فقد غطته قشرة سوداء من وحل البارود، بعد أن امتزجت عن آخرها بالغبار، والشظايا، والتراب، ما جعل الأساس فاتح اللون يلمع مع بداية حلول المساء مثل الأشباح، بدت الغابة صغيرة كما لو كانت أشجارها اجتثت، فقد استلقت الأشجار المقتلعة في أكوام، واصطفت حفرة القنابل إلى جانب الأخرى، وكانت القنابل قد كسحت في طريقها الأغصان المتجمدة".

وبعد عام، وفي يوم مشمس من أيام فصل الربيع -15 أبريل 1945- وصل جنود المدرعات البريطانيون إلى مخيم الاعتقال في بيرجن بيلزن، وقبلها بأيام قليلة كان ضباط الجيش البريطاني قد اتفقوا مع ممثلي قوات الدفاع على تسليم سلمي للمعسكر والمنطقة المحيطة به، وكان الاتفاق يفيد بأن يخضع المعسكر للقيادة البريطانية، بينما تبقى مسألة حراسة المعتقلين في يد قوة الدفاع وفرق الحماية، نظرًا لتفشي وباء التيفود في المعسكر، ومن ثم بات واضحًا أن الضباط البريطانين كانوا يعتبرون معسكر الاعتقال بمثابة مكان متحضر لتنفيذ العقوبات؛ لأنهم لم يكونوا ليوافقوا على مثل هذه الاتفاقية لو عرفوا ما ينتظرهم، وما أن وطأت أقدام أول جندي بريطاني أرض المعسكر حتى ظهرت أمامهم الصورة المفزعة، لا وصف ولا تصوير فوتوغرافي، يمكن أن ينقل شكل للمكان، هكذا قال أحد ضباط قبيلة السانتي وهو يتذكر ما حدث، روائح كريهة منفرة، وجبال من الجثث كانت ملقاة في المكان وفي العنابر، وكائنات هزيلة ونحيلة ترتدي ملابس السجن زاحفة على الأرض بحثًا عن طعام صالح للأكل.

بدا أن جوزيف كرامر Josef Kramer، آمر المعسكر لم يدرك على الإطلاق مدى صدمة المحررين، فهو لم يحاول الفرار عندما اقتربت النهاية، حتى أنه بدلًا من ذلك استقبل الجنود عند بوابة الدخول وقادهم في أرجاء المعسكر "بلا حياء"، ودون أدنى انفعال، وفق ما ذكره أحد الضباط البريطانيين، ولم يستطع أحد أن يفهم، لماذا لم يهرب كرامر بسبب كل الفظائع التي ارتكبها بل أن حراس قوات الحماية لم يدركوا بدورهم أن وقت القتل والضرب قد ولى، وعندما تزاحم المساجين نحو مطبخ المعسكر أوسعهم المساجين المحظيون -المعروفون بمسمى كابو- ضربًا، أردى رجال قوات الحماية العديد من الأشخاص رميًا بالرصاص، رغم وجود الجنود البريطانين في المعسكر، وعندما سأل أحد الضباط كرامر عن سبب مواصلة إطلاق النيران

والضرب، رد عليه قائلًا إنه من المستحيل الحفاظ على النظام في المعسكر دون استخدام القوة مع المساجين، وعندما أمروه بإحضار ملفات من مكتبه، جلس على مكتبه وقد وضع أحد ساقيه باسترخاء على مسند الكرسى، وكان لا يزال يعتبر نفسه قائد المعسكر، وأخذ يتحدث عن إدارة الجحيم، كما لو كان ذلك من أكثر بديهيات العالم، منذ سنوات وهو قائد، أولًا في معسكر أوشفيتس، ثم في بيرجن بيلزن والآن يقولون: إن كل شيء قد انتهى؟ عندما أجبره الضباط البريطانيون على حمل سجين مصاب على كتفيه ونقله إلى المستشفى العسكري، ثم وضعوا الأصفاد في يديه بعد ذلك، شعر بالاضطراب، إذ لم يستطع أن يصدق أنه هو من كان يحرص على إرساء النظام دائمًا، يصبح الآن قيد الاعتقال.[3]

لُغز العُنف

يغير العنف كل شيء، ومن يتعرض له يصبح شخصًا آخر، فمعايشة العنف شأنها شأن رحلة إلى عالم جديد، حيث تسود قواعد أخرى ويعيش أشخاص آخرون، في هذا العالم تحيد المعايير عما هو طبيعى، فما يمكن أن يعتبره الناس بديهيًا، يبدو في ضوء العنف غريبًا بطريقة نادرة، وما هو غير معتاد يصبح من شؤون الحياة اليومية، ما أن تطأ قدمك مواطن العنف حتى تعرف أنه لم يعد أي شيء كما كان، وقد كتب الجندي ويلي ريس Willy Reese يقول إنه لم يستطع مطلقًا نسيان وحشية العنف، والتي كان شاهدًا عليها، فقد نظر إلى قاع الروح الإنسانية ولمس فظائع الحرب بكل خلجاته، وكان قد أتى إلى روسيا من مملكة السلام والرخاء، ليغادر البلاد ثانية بوصفه موصومًا.

ريس، المهووس بالكتب، مرهف الحس، أصبح شخصًا آخر، منذ أن رأى الجحيم، وقتل نساء وأطفالًا، وأمطر جنود الأعداء بوابل رصاص من سلاحه الآلي، لقد قتل بشكل آلي ودون أدنى تعاطف، كي يتمكن من النجاة من الحرب وكي ينقذ حياته، ولكنه باح لدفتر مذكراته مرة قائلاً:

"إلا أنني لم أجد الهدوء ثانية أبدًا، ولم أجد طريق العودة لذاتي مرة أخرى، إذ ظلت الذكريات تطاردني مثل اللعنات، حتى أنني كنت أعايش فظائع حرب الشتاء مرارًا وتكرارًا، وأسمع دوي

القذائف وصراخ الجرحى، ورأيت الجنود يتدافعون ويتهاوون ويلقون حتفهم، ورأيت نفسي مثل شخص غريب في قدري على هامش بلد المجهول».[4]

كان هذا أيضًا لسان حال الجنود البريطانيين الذين لم يتمكنوا مطلقًا من نسيان ما رأوه في بيرجن بيلزن، وحاولوا أن يفهموا ما دفع رجال مثل جوزيف كرامر لارتكاب فظائع لا يمكن تبريرها بأي حال من الأحوال، لم يستطع هؤلاء الذين رأوا الحرب ولمسوا الموت فهم ذلك، ربما كان بالإمكان فهم تحول آمر معسكر اعتقال أوشفيتس- بيركناو، وبيرجن بيلزن ورئيس لبيبريا مجرم سادي أو وحش، ولكنهم لم ينطبق عليهم مطلقًا ما يعتبر في العادة مبررًا لنشأة العنف، إذ لم يكن كل من تايلور وكرامر مرضى نفسيين، لم يكن أي منهما عرضة في الماضي لاضطهاد أو من ضحايا العنف، ولم يحدث -ذات مرة- أن أبدى أي منهما اهتمامًا ببرامج سياسية وأيدولوجيات، ورغم ذلك فقد اعتبرا تلك الأمور التي رأى فيها الجنود أنفسهم خرقًا للمدنية والتحضر أمورًا طبيعية، كيف استطاع كرامر وتايلور- اللذان أمرا بقتل عشرات الآلاف من البشر- أن يعتقدا أنهما تعرضا للظلم حين تم إلقاء القبض عليهما، وأنهما يجب أن يُخلى سبيلهما بمجرد استدراك الخطأ؟! ألم يدركا ما كان يدور حولهما؟! تبدو الحالة من الوهلة الأولى واضحة، فالجناة لم يروا ما رآه الآخرون، ولم يعتبروا هذا غير معتاد، لا سيما ضرب البشر ورميهم بالرصاص وإلقاء جثامينهم مثل القُمام، ولكن أنّى لنا أن نفهم أن هذين الرجلين لم يشعرا بأي شيء؟ أما نحن فقد وقفنا مشدوهين بمجرد أن سمعنا عن أفعالهم وجرائمهم.

نحن نعتبر الحب والحاجة للإشباع الجنسي بمثابة البديهيات، نعتبرهما جزءًا من المكونات الإنسانية الأساسية التي لا تبدو في حاجة إلى تفسير، بينما يعتبر العنف بمثابة الشطط الذي لا مكان له في حياتنا، لماذا؟ يمكننا أن نسهل الأمور على أنفسنا ونقول: لأن العنف يسبب الألم والخوف، على الأقل لدى هؤلاء الذي يتعين عليهم الخضوع له، ولأن متعة العنف لا يتم إشباعها إلا من خلال معاناة الآخرين وعذابهم، ولكن ذلك لا ينم سوى عن نصف الحقيقة بشأن الاضطراب الذي تسببه أعمال العنف لدى الأشخاص الذين يعيشون في سلام، فنحن نشعر بالبلبلة والاضطراب عند مواجهة أفعال بشعة لا تحدث في العادة في محيطنا؛ لأننا نعيش في مجتمع مسالم، يعتبر الجريمة والقتل أمورًا استثنائية وليست القاعدة، ونحن نركن إلى الاعتقاد بأننا لن نصير ضحية للعنف؛ لأننا

نعرف أن سلطة الدولة تفرض قيودًا على المجرمين وأن الصراعات لا تُحسم بموت المغلوبين على أمرهم، أي أننا نثق للغاية في المؤسسات وقواعدها غير المرئية، لدرجة أننا نعتبر أنه من المسلمات ألا نتعرض للقتل عندما نغادر منازلنا في الصباح.[5]

ولكن من الذي لا يزال يعرف حقًا أن السلام لا يدوم إلا بسبب وجود المؤسسات التي يمكنها أن تُجبر الآخرين عليه في كل وقت؟ بالنسبة للناس الذين لا يعرفون إلا السلام والرخاء، يُعدُّ العنف بعيدًا لدرجة تجعلهم يعايشونه بوصفه حدثًا مُزعجًا ينبغي أن يختفي من حياتهم، وليس من قبيل الصدفة أنه في نظرية يورجن هابرماس المؤثرة عن الفعل التواصلي -والتي تُعد أيضًا انعكاسًا لاستقبال العالم القائم على ما بعد النظرية- لا وجود على الإطلاق للعنف بوصفه إمكانية كي تفوز على الآخرين. [6]

ونحن نعتقد أن عالمنا خالٍ من العنف؛ لأنه وديع ومسالم، وإذا حدث -رغم ذلك- ما لا ينبغي أن يَرد في مجتمع متحضر، يجب أن تُساق أسباب ودوافع حتى لا يهتز الإيمان بالسلام الأبدي، فنحن لا نريد أن نتجرأ على اعتبار العنف بلبلة واضطرابًا؛ لذا نستعين بالمبررات التي تتوافق مع أعراف مجتمع سلمي، كم أنسنا إلى الهدوء والدماثة لدرجة أننا لم نعد نفهم الأشخاص الذين يعيشون في مواقف توتر وصراع على الإطلاق، فما أن تظهر على السطح مشاعر مثل الكرامة والغضب والحنق والاستعداد للقتال حتى يعتقد المعالجون النفسيون أن هذا الغاضب ضحية "لعقدة عصابية"، حسبما يشكو منه بيتر سلوترجيك [Peter Sloterdijk 7]؛ لأن الاعتقاد بأن العنف ما هو إلا سلوك منحرف يساعد الناس في المجتمعات السلمية ليتصوروا واقعهم بوصفه فراغًا تنتصر فيه حُجة القبضة، إذ يقول جان فيليب ريمتسما Jan-Philipp Reemtsma: "نحن نجعل من الكارثة لغزًا حتى لا نضطر أن نثقل على حياتنا الطبيعية بالبلبلة المستدامة".[8]

الأسباب والمبررات

بعد الفِعلة تأتي ساعة التبرير، فالجُناة أنفسهم يوارون أصل العنف وفحواه؛ لأنهم يسوقون دومًا أسبابًا لجرائمهم، تسمح لهم بأن يضعوا أفعالهم ضمن منطق سلوك المجتمع المسالم؛ فعندما تنتهي المواجهات الجسدية وحالات الاغتصاب والاضطهاد والمذابح والحروب ويُحظر العنف ثانية، فإن

الدافع الوحيد الذي يمكن سرده حينها هو فقدان الجاني والضحية عقليهما، وهو ما يجعل العنف يبدو كاضطراب عابر أو مؤقت، فالإنسان يستعين بالإشارات إلى الدوافع للضروريات والحتميات بغرض تجاوز الإثارة والبلبلة التي أطلقت للعنف العنان، إذ يحيل الجناة المسألة دائمًا إلى حالة طوارئ إصدار الأوامر، إلى مقتضيات حتمية أو إلى التوابع القاتلة التي كانت ستطرأ لو كانوا عارضوا أوامر القتل، بعضهم يستعين بالقيم العليا ومفاهيم الشرف، وبعضهم يصرح بأن شرور الضحايا لم تترك لهم الخيار، فيتعين عليهم أن يصبغوا ما ارتكبوه بحق ضحاياهم بالعقلانية أمام أنفسهم وأمام الآخرين، وإذا ما تعرضوا للمساءلة بعد انتهاء العنف، فإنهم يحاولون أن يسوقوا أسبابًا مفهومة حتى يدرك الجميع لماذا لم يتمكنوا من التصرف بشكل مغاير، وما أن ينتهي الاعتداء الوحشي ويعم السلام لا يمكن وصف العنف إلا بأنه استثناء للقاعدة، ومن يُقر أمام المحكمة بأنه أمر بقتل أناس بدافع اللا مبالاة، أو لغرضٍ ما أو انطلاقًا من دوافع متدنية أو حتى فقط لرغبته في ذلك فهو يدين نفسه لا محالة، لذا لطالما قدم أعوان الديكتاتوريين والطغاة بعد انتهاء أعمال الاعتداءات الوحشية مبررات لإثبات أن إرشاداتهم وأوامرهم كانت تخدم أغراضًا مفهومة، حتى أن مساعدي هتلر أشاروا أمام محكمة نورينبرج إلى أوامر حتمية اضطروا لتنفيذها ولم يكن لهم حيلة في ذلك، حيث صاح القائد السابق للقيادة العليا لقوات الدفاع فيلهيلم كاتيل Wilhelm Keitel أمام المحكمة، قائلاً: "ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ فالضابط لا يستطيع مناطحة قائده، الآمر الأعلى، ومعارضته! ليس بوسعنا سوى تلقي الأوامر وطاعتها»[9]، أما أدولف إيشمان Adolf Eichmann، منظم عمليات قتل اليهود، فقد أعلن أمام قضاته في القدس بأنه لم يكن سوى ترس في محرك كبير، لا حول له ولا قوة، وليست باستطاعته مقاومة الماكينة التي أجبرته على أداء العمل الكبير المتمثل في القتل الجماعي، ورغم أنه ليس قاسيًا، بل مطيع، وأنه موظف وخادم مخلص لسادته، يفعل ما يؤمر به، وقد سقطت هانا أرندت Hannah Arendt في فخ استراتيجية التبرير هذه؛ لأنها صدقت إيشمان حين قال إن تنفيذ الأوامر كان مبدأ وقاعدة لتصرفاته.[10]

والآخرون الذين لم يتعرضوا للمساءلة قط على جرائمهم يلمّحون إلى دوافع نبيلة، وإلى درء الأخطار كي يمنحوا إبادة الملايين منطقًا مفهومًا، إن الإرهاب الجماعي كان ضروريًا، على حد زعم مولوتوف بعد وفاة ستالين بعشرين عامًا؛ لأنه كان يحمي الاتحاد السوفيتي من الأعداء

الداخليين والأخطار الخارجية، ومن ثم حفظه من الزوال[11]، كما أخبر تشالز تايلور Charles Taylor هيئة المحكمة التي انعقدت من أجله في لاهاي أنه اضطر لاستخدام العنف كي ينهي الحرب الأهلية التي مُنيت بها تلك الدولة الإفريقية، ماذا غير ذلك كان بإمكان كاتيل ومولوتوف وتايلور قوله؟ إنهم قتلوا بشرًا بدافع الرغبة في ذلك؟ ماذا كان ويلي ريس ليعلن أمام الرأي لعام الألماني إذا كان قد نجا وتعرض للمساءلة عن معايشته في الحرب؟ هل كان سيقول ما أسرَّ به إلى دفتر مذكراته عام 1944، هي إجابة واحدة تستند إلى حتمية الحرب، كانت هي الإجابة التي تمنح الأمر منطقًا حتى بعد سنوات طوال، فالفظائع تبرر ذاتها حين يستند الجناة إلى الضرورة والحتمية.

يتصرف الناس ويتحدثون وفق المتوقع منهم في موقف ما، أو في مساحة فعل ما، وأثناء الحرب العالمية الثانية، ظلت المخابرات الإنجليزية تتنصّت على جنود وضباط ألمان بشكل منظم في معسكرات احتجاز الأسرى، ولم يتحدث أحد الأسرى تقريبًا عن الحرب مثلما فعل أمام المحكمة أو فى معية أفراد أسرته، حيث أخذوا يتفاخرون بأعمالهم البطولية، وجرائم الحرب والأفعال الشنيعة؛ لأنهم لا ينبغي أن يكتموا الأسرار بعضهم عن بعض، كل منهم كان يعرف أن إطلاق الرصاص على الفدائيين الأسرى وإغراق السفن وقتل الرهائن، كلها أمور استخدمتها قوات الدفاع، ومن الواضح أنهم لم يروا سببًا لإيقافهم لما ارتكبوه[12]، حتى من قاموا بالاغتصاب والضرب لم يتفاخروا بأفعالهم إلا بين أقرانهم، وبمجرد ظهور جهة أخلاقية في الأفق وإلقاء المسؤولية على هؤلاء، تُساق الأسباب التي لا تسبب البلبلة لدى مجتمع متحضر، إذ إن المتوقع من مرتكبي أعمال العنف أن يقدموا المبررات والتفسيرات حتى وإن كانوا -هم أنفسهم- اعترفوا بأفعالهم وأن المنطق الذي يبرون به تلك الأفعال لا يتوافق مع القواعد الأساسية ومسلمات مجتمع المواطنة، فلا أحد يحب أن يسمع أن الجناة عذبوا وقتلوا بدافع الشعور بالسعادة أو الملل، ولأنهم لم يتمكنوا من مقاومة ضغط الجماعة لذا فعلوا ما فعلوه وإن كانوا وحدهم لما فعلوا ذلك[13]، لا وجود للجناة دون مسؤولية إلا لأن المجتمع المسالم لا يستطيع احتمال الجناة المسؤولين عن أفعالهم.

إذن يجب أن يستند العنف إلى أسباب يمكن فهمها، وكل تفسير يرجع إلى أهداف ونوايا أفضل بالنسبة لنا عن الرغبة في التدمير، وهذا هو ما يدفع الجناة والضحايا- في الوقت ذاته- إلى محاولة

منح العنف الذي عانوا منه منطقًا حتى لا يفقدوا عقولهم، وقد كتبت الرسامة ليوبوف فاسيليفنا شابورينا Malerin Ljubow Wassil jewna Schaporina ابنة مدينة ليننجراد في دفتر مذكراتها بتاريخ 10 أكتوبر/ تشرين الأول عام 1937 تقول:

"أشعر بامتعاض شديد حين أسمع أحدهم يحكي بلا مبالاة ويقول، لقد أردى رميًا بالرصاص، قُتل رميًا بالرصاص، رميًا بالرصاص، رميًا بالرصاص، يحلق هذا التعبير دائمًا في الهواء، يقوله الناس بكل هدوء، كما لو أنهم يريدون أن يقولوا: "لقد ذهب إلى المسرح! كيف يمكن أن نرضى بفكرة أن الناس قد أُخرجوا من بيوتهم دون أدنى سبب ثم أرداهم أحد قتلى رميًا بالرصاص؟! كيف يمكن أن نرضى بأننا بقينا طوال ليلة بأكملها نسمع أصوات إطلاق النار على أشخاص أحياء وربما أبرياء، دون أن نفقد عقولنا، بل وعدنا بعد ذلك كي نستغرق في النوم ونواصل النوم كما لو أن شيئًا لم يحدث؟[14] كيف يمكننا تجاوز ذلك؟ في وقت ما ستحين ساعة التفسير التي تمنح الفظائع والذعر منطقًا، اصطحبت سيدة روسية يهودية من مينسك تم ترحيلها في صيف عام 1941 إلى جيتو -شأنها شأن آلاف اليهود الآخرين- مجموعة فراشاتها في رحلتها الأخيرة، لترى الطبيعة في حالة الطوارئ والاستثناء، وقد قالت لاحقًا عن تلك الفظائع التي عايشتها: بحث الناس عن منطق لما حدث -أي تفسير- فالبشر يرغبون حتى في فهم الجحيم[15]، ومن يتحمل الألم ويعايش موت الأصدقاء والأقارب لن يستطيع تحمل فكرة مؤداها أن كل شيء حدث من قبيل المصادفة".

من يخرق أعراف التبرير يصبح وحشًا في عين المُدَّعي، فقد لعب جوزيف كرامر أمام المحكمة دور متلقي الأوامر الوقح، وقد ساق أسبابًا للتبرير لم يكن لها أي معنى في أفق المُدَّعين والقضاة، حيث زعم أن الأمر لم يشكل له فارقًا بشأن من يرسله إلى الحبس سواء أكان شيوعيًا أم يهوديًا، فهو لم يؤدِ سوى واجبه باحتجاز المساجين، أي أن أيديولوجية النازية لم تهمه على الإطلاق؛ لأنه انضم -على حد قوله- إلى قوات الحماية فقط بدافع البحث عن عمل، «القتل بدافع العرفان نظير الدخل والترقّي الوظيفي"، هذا هو الدافع الذي حصر فيه كرامر مبرراته، وقد تحدث عن قتل النساء في غرف الغاز كما لو كان يتعيَّن عليه حل مسألة تقنية معقدة، حين قال إنه ما إن انساب الغاز إلى داخل الغرفة حتى أخذت النساء في الصراخ، ولم يخبر المحكمة بأكثر من ذلك، لكنه

عندما تم نقله عام 1944 مرة أخرى إلى معسكر أوشفيتس اعترض على تنفيذ الأمر، وقد سأله القاضي: لماذا لم يرغب في العودة إلى مقر عمله القديم؟، وكان يتوقع بالطبع أن يقول كرامر إنه لم يعد يرغب في مواجهة هذه الفظائع، وبدلًا من ذلك أجاب قائلًا: "لقد ضايقتني الأوضاع البولندية هناك! لقد كنت أفتقد النظام! فهو-بكل بساطة- لم يفهم أن استراتيجية الدفاع التي تستند إلى أخلاقيات النازية لا تأثير لها أمام محكمة المنتصرين.

تعرَّض كرامر للمساءلة نظير موت عشرات الآلاف من البشر، ورغم ذلك لم يعتبر نفسه قاتلًا، بل رأى نفسه حارسًا للنظام، نزيهًا لا يقبل الرِّشوة، ولا ينبغي لومه على أي شيء، حتى أنه في زنزاته اعتقد أن المُدَّعين أنفسهم سوف يدركون خطأهم، وأنهم في النهاية يجب أن يفهموا أنه ليس متهمًا، حيث كتب لزوجته يقول إنه يتمنى انتهاء "وقت العناء" وأن يعود إلى بيته سريعًا [16]، لم تجد مبررات كرامر معنىً ومنطقًا إلا في الإطار المرجعي لأخلاقيات النازية، وبعد انتهاء عصر الديكتاتورية ظل خافيًا عليه ما كان يتعيَّن عليه قوله للقاضي كي يبرِّئ ساحته، كان بإمكانه الاستناد إلى طفولته الصعبة وإحالة ما حدث إلى البطالة والفقر، أو حتى بوصفه محبًّا للمناصب أو متعصبًا أو شخصًا مُعرّضًا للغواية، أو غير متقبل للموعظة، ربما كان سيحظى بتفهُّم القاضي، وبدلًا من ذلك تحدث الرجل عن العنف كما لو أنه من البديهيات التي لا تحتاج إلى تفسير، وقد بدا للقاضي أن المتهم ليس لديه ما يقوله كي يبرئ ساحته، لا بد وأن يكون كرامر وحشًا، إذ لم يجد الأشخاص المعاصرون له أي تفسير آخر، حتى أن الصحف البريطانية أطلقت عليه لقب "وحش بيلزن"، إذ لا يستطيع أن يرتكب الفظائع دون سبب إلا من يعاني من اعوجاج نفسي، ولم يكن هناك سبيل آخر لفهم الرسالة التي انتشرت بين الرأي العام بعد الحرب بشأن آمر معسكر الاعتقال.

أيًا كان العنف، فهو دائمًا ما يُطرح بوصفه شططًا وانحرافًا وحَيْدًا عن الطريق القويم أو حتى باعتباره مرضًا قد يُعالج ذات يوم، فالتبرير الذي يصدر عن المعالجين النفسيين يفيد بأنه عند تشخيص الأمراض يمكن علاجها عن طريق التحضر، وعن طريق التسامح أو العدالة الاجتماعية، وكل الشروح التي أطلقها علماء الحضارة والاجتماع بشأن اندلاع العنف ما هي إلا تنويعات لهذه الدوافع، وتأثيرها ينتج عن الإيمان بإمكانية التحكم في الظروف والسلطة عليها، لذا تُعد تفسيرات الجناة والضحايا ومبرراتهم بمثابة النصيحة السيئة إذا كنا نريد أن نفهم ما يفعله العنف بالبشر وما

يفعله البشر بالعنف[17]؛ لأن من يتحدث عن الأسباب والعلل فقط لن يعرف سوى القليل عن ديناميكية علاقات العنف ومنطقها الخاص.

تقول روث كلوجر Ruth Klüger-التي نجت من معسكر التعذيب والقتل في أوشفيتس- متذكرة: "آنذاك جالت بخاطري تلك الفكرة التي بقيت مترسخة في ذهني أكثر من الحنق بسبب الجُرم الكبير، لا سيما الوعي بعبثية الأمر برمته، ويكمن التناقض في أن سخافة هذه الجرائم والاعتقالات التي أطلقنا عليها الحل النهائي، والهولوكوست والكارثة اليهودية، ومؤخرًا أيضًا الشواة، تحمل دائمًا مسميات جديدة؛ لأن الكلمات سرعان ما تتعفن في أفواهنا، والأمر السخيف وغير المنطقي يتمثل في أنه كان من السهل أن نمنع هذا، وألا يكابد أحد ما كابده، ولم أكن لأحمل قضبان القطار بدلًا من أن أجلس على مقعد المدرسة الخشبي، وألعب الدور الذي لعبته الصدفة في ذلك، أنا لا أعني أنني لا أفهم كيف وصل الأمر إلى ذلك الحد، بل أفهم جيدًا، وأعرف على الأقل بقدر ما يعرف كثيرون آخرون عن الخلفيات، ولكن هذه المعارف لا تفسر شيئًا، فنحن نعد على الأصابع ما كان من قبل ونعتمد على أن الآخر الراديكالي نشأ من بينها". [18]

في كل الحكايات التي يحكيها المؤرخون يتم ربط أي من الأحداث في ذلك الوقت مع بعضها، وهم يقولون إن كل حدث تتسبب فيه سلسلة من الأحداث السابقة عليه، كما اعتاد القراء على أعراف نثر المقومات التاريخية حتى أنهم اعتبروا ما يسوقه إليهم تاريخ المسببات ذا مصداقية دون إثباتات.

وتتساءل روث كلوجر وسط ذكرياتها عن الفظائع وتقول: "لا يمكن تفسير ذلك إلا تاريخيًا! لماذا؟ لأن كل طفل له جدة كبرى لذا لا بد وأن يكون لكل شيء سبب، وبهذا تتحمل الجدة الكبرى المسكينة -فجأة- مسئولية العبث الذي يمارسه خلفُها"، [19] ولكن هذا الحساب لا ينفتح؛ لأن الحياة ليست اصطفافًا للأحداث المرتبطة سببيًا بعضها ببعض، بل تتكون من لحظات، أيًا كان ما قد حدث من قبل، لا يُفسر مطلقًا لماذا يقتل بشرٌ بشرًا آخرين تحت ظروف معينة، كل شيء كان يمكن أن يأتي بشكل مغاير[20]، فالبحث عن أصل العنف لا طائل منه.

ما يقدر عليه البشر

نحن لا نريد أن ندرك أن بعض الناس يعتدون على أشخاص عُزّل ويقتلونهم فقط؛ لأن ذلك يسبب لهم السعادة، وأن الحروب عندما تندلع تتّبع منطقًا لا توجهه عبارات العقيدة والقناعات أو حتى الحُجج، ولا نريد أن ندرك أن بعض الناس يتحولون إلى وحوش شرسة وجامحة إذا ما سُمح لهم بارتكاب ما هو ممنوع وقت السِلم، يتذكر مارسل رايش راينيكي Marcel Reich-Ranicki حياته التي قضاها في مناطق العَزل أو الجيتو ويقول: "كل ألماني كان يرتدي زيًّا عسكريًا ويحمل سلاحًا، كان باستطاعته أن يفعل ما يحلو له بأي يهودي في وارسو، كان باستطاعته إجباره على أن يغني أو يرقص أو يبول على نفسه أو يركع أمامه ليترجاه كي يبقيه حيًّا، كان باستطاعته أن يطلق النار عليه فجأة أو يقتله بطريقة التعذيب البطيء، كان باستطاعته أن يأمر يهوديًّا أن يخلع ملابسه وينظف أسفلت الشارع بملابسه الداخلية، وأن يتبوّل أمام أعين الجميع، والألمان الذين سمحوا لأنفسهم بهذه المُتع لم يجدوا من يفسد عليهم التسلية، ولم يمنعهم أحد من الإساءة إلى اليهود وقتلهم، لم يعرضّهم أحد للمسئولية، فقد اتضح ما الذي يقدر عليه البشر عندما تُتاح لهم سلطة لا محدودة على بشر آخرين».[21]

لطالما أصاب البشر بعضهم بعضًا وقتلوا بعضهم عندما كانوا يؤمنون أن ما يفعلونه مسموح به، وعندما تأكدوا أنهم لن يتعرضوا للعقاب أو الانتقام أو المساءلة، لقد نسينا فقط أن الأمر هكذا؛ لأننا نعيش في مناطق يشكل القانون بنيتها، يفكر هيرزوج، الشخصية الرئيسة في رواية سول بيلو التي تحمل الاسم ذاته، ويقول: "لا أستطيع أن أفهم ذلك، ولكن هذا هو السيئ لدى الناس الذين يقضون حياتهم في دراسات إنسانية ويتوهمون أن القسوة قد تزول عن العالم، بمجرد أن يصفوها في الكتب، بالتأكيد أنه لم يعرف أكثر مما عرفوا، فالناس لن تعيش بالطريقة التي يمكن أن يفهمها الأمراء، ولماذا يفعلون ذلك؟». [22]

لم يصبح الإنسان على ما هو عليه، فهو كان مكتملًا دائمًا، لذا كان العنف في كل الأوقات إمكانية ولم يكن هناك أي برنامج تنوير منعَ الناس من تصور جرح وقتل بشر آخرين، ليس العنف هو اللغز ولكن اللغز هو أن نتعجب بشأنه، العنف مصدر فعل ليس فقط متاحًا لكل شخص، بل يمكن لكل شخص استخدامه أيضًا، وقد عرفه عالم الاجتماع هاينريش بوبيتس Heinrich Popitz بأنه سلطة تصرف من شأنها "أن تؤدي إلى إصابة جسدية متعمدة لآخرين، بغض النظر عما إذا كان

لها مغزى لدى مرتكبها أثناء التنفيذ (سلطة تصرف محضة)، أم أنه كان تحت تهديد الوقوع رهن الخضوع الدائم (سلطة تصرف ملزمة)"،[23] كل شخص يستطيع أن يصرخ ويهدد ويطبق قبضة يده، وأن يستخدم سلاحًا أبيضَ أو ناريًا، فالمجرم يسترعي الانتباه، ربما يمكن تجاهل حجة ولكن لا يمكن تجاهل لكمة في الوجه، حتى أصغر الناس قيمة والذي لا يريد أحد الإنصات إليه يمكنه- عند استخدام قبضته- أن يجني مكسب سلطة ويكتسب الاحترام، من يضرب لا يمكن تجاهله لفترة أطول، يمكن أن ندع العنف يتحدث عندما تعجز اللغة، حينئذ يمكن التعبير عما فشلت الكلمات في التعبير عنه، يقول عالم الاجتماع تروتس فون تروتا Trutz von Trotha :"منح الشرعية هو الإجابة على الأسئلة، فالعنف المُدبر مقنع نظرًا لعدم وجود أسئلة أخرى". [24]

من يمارس العنف يبقى ضمن الحوار حتى وإن لم يكن هناك من يرُد إليه الحديث، وفي كل حالة لا يمكن لأحد أن يقول للمجرم إنه لم يتصرف، وفي هذا الصدد يكتب عالم الاجتماع ديرك بيكر Dirk Baecker ويقول: "من يصبح عنيفًا ومجرمًا يبقى ضمن اللعبة، ويؤكد أن أدوات اللعب القادمة ستكون لها علاقة به". [25]

يستند مصدر العنف إلى أساس قوة التخيل، فنحن يمكننا أن نتصور أي شكل من أشكال الوحشية وما انحفر-ذات مرة- في الذاكرة لا يمكن إخراجه منها ثانيةً، العنف لا يبقى حاضرًا في الذاكرة بوصفه ذِكريًا فقط، بل بوصفه شيئًا مأمولًا سوف يحدث، وفي هذا الصدد يقول بوبيتس: "يتوسع أفق الممكن هذا -كما نعرف- ليتجاوز ما يمكن وضعه بالحسبان، فالعنف المُتخيل يلمع في أحلام اليقظة والكوابيس ويضللنا بكل الطرق".

ليس هناك مجال في الوعي لا تستطيع تخيلات العنف أن تنفذ إليه، إلا أن العنف المُتخيل يجعلنا نظن أنه لا خطر منه؛ لأننا نستطيع أن نتجاوز المقاومة، والمخاطر ومحدودية القوى الخاصة.

والقتل لا يكون بلا خطر إلا في الخيال، وكذلك بلا رائحة أو صوت، فضلًا عن أنه يبقي بلا توابع. [26]

من يرغب في تحقيق الكثير ولكنه لا يجد دعمًا ربما يرى في العنف -حقًا- مخرجًا من مُعضلة حمل نفسه وزرها؛ لأن العنف -بوصفه مورد فعل- يَعِد بمكسب للسلطة لا يمكن الفوز به دون

ذلك، ويمكن تجاهل ذلك العنف الذي لا وجود له سوى في عقولنا حتى يحدث فعليًا بأن يأخذ أحد زمام المبادرة ويتصرف، لذا يجرّد الجُناة- الذين يريدون القتل ويبحثون عن تشريع أفعالهم- أعداؤهم من إنسانيتهم، أي أنهم يحرمونهم من صفة الإنسانية ويجعلون منهم وحوشًا لا حق لهم في الحياة ويمكن إبادتهم دون عقاب، يمهِّد خلع صفة الإنسانية عن الضحية الطريق الذي يجعل كل شيء ممكنًا، ولكن العنف لا يمكن تصوره بوصفه حلًا غير دموي للصراعات المجتمعية سوى في الخيال، وبكل استهتار يتحدث محامو المحتوم عن إبادة أعدائهم، وينتشون في خيالهم ولغتهم؛ لأنهم لا يرون الدم ولا يتعين عليهم سماع صراخ الضحايا، إلا أن التخيلات شيء والأفعال شيء آخر، بمجرد فعل ما كان تصورًا في العالم سيتغير كل شيء؛ لأن في فعل العنف تتحول التصورات إلى أفعال والجماعة إلى أشخاص فرادى تنمحي حياتهم حقًّا.

مع معايشة العنف يخبو تصور الموت عديم الصوت والرائحة؛ لأن العنف الحقيقي كريه وصادم حتى بالنسبة لمعظم الجناة، فهم عكس كل التصورات التي يصنعها أي منا له، [27] هذا ما يعرفه الجنود الذين يصبح القتل أثناء المعارك بالنسبة لهم تجربة لم يتخيلوا المرور بها.

يتذكر جندي بريطاني حارب عام 1975 في الحرب الأهلية الأنجولية ضد الجنود الكوبيين ويقول: "يعتقد بعض الناس أن الحرب دغدغة لطيفة وخفيفة في القدم، هذا ليس صحيحًا، فالحرب هي جماجم تهشّمت حتى صارت أشبه بالعصيدة، وسيقان مبتورة وصبية برزت أحشاؤهم وأخذت تتدلّى في دوائر، صبية يُقصفون بالنابالم الحارق لكنهم يبقون أحياء" [28]، هكذا كان الحال دائمًا في كل مكان يمارس فيه الناس العنف بعضهم ضد بعض، في سبتمبر/ أيلول من عام 1941 اجتمعت كتيبة من الشرطة في مدينة بيرديتشيف الأوكرانية، وقد صدر لهم الأمر بقتل جميع اليهود القاطنين بالمنطقة، نحن لا نعرف ما الذي فكر فيه هؤلاء الرجال وكيف شعروا عندما أطلقوا الرصاص على رؤوس النساء والأطفال من الخلف وتطايرت على زيهم العسكري بقايا أمخاخهم، [29] ولكن من رأى وجوه الضحايا وسمع صرخاتهم، من دفن الجثامين وشمّ رائحة دماء المقتولين رميًا بالرصاص لم يكن ليتخيل أن الجريمة كانت معملية نظيفة، حتى هتلر الذي كان يصدر يوميًا أوامر القتل كان يعرف جيدًا ما الذي يعنيه التعرض للوحشية، في صيف عام 1943 صرّح أمام بعض الضيوف الذين زاروه في بيرج هوف بأن المجازر، أو أماكن ذبح الماشية تثير

اشمئزازه، إذ كانت الدماء تصل حتى بطن الساق؛ لذا كان يفضل تناول الخضروات حيث لم تكن مشاهدة عش غراب مقطوع تؤثر فيه، [30] ذلك الرجل المسؤول عن موت الملايين لم يكن يتحمل رؤية حيوان مذبوح.

ليس هناك أحد يُجبَر على أن يصبح وحشيًا دون اضطرار، وفقط إذا كان هناك دافعًا، فكل شخص عندما تلوح أمامه البدائل يستطيع أن يكبت غضبه ويقرر عدم الانسياق وراء أهوائه، كتب هاينريش بوبيتس يقول: "لا يجب على الإنسان أبدًا التصرف بعنف، لكنه يستطيع ذلك دائمًا، فهو لا يتعين عليه أبدًا القتل، لكنه يستطيع ذلك دائمًا"[31]، ورغم أن المجرم الذي يُرهب البشر ويسيء معاملتهم يمكن أن يكون عاطلًا عن العمل أو فوضويًا، أو يعاني من الصداع، ولكن هذه المعلومة لن تساعدنا كي نفهم ما يحدث، فالبطالة لا تحرك يد الجاني ولا تُفعّل خيالات القتل التي تعم رأسه، يتساءل عالم الاجتماع فولفجانج سوفسكي Wolfgang Sofsky : "لماذا لا يوجد ملايين المجرمين رغم وجود ملايين المحبطين ومهاويس الأسلحة ومحبي أفلام الرعب وملايين من التعساء في الحياة الزوجية أو العاطلين عن العمل؟"[32] والإجابة هي: لأنه ليس كل شخص يستغل الفرصة التي تلوح له، ولأن الأمر يتوقف على المواقف وشخوصها، إذا ما كان العنف يمثل اختيارَ فعل جاذبًا؟ أم لا؟ إذا اختلف الأمر لمَ انتهى العنف؟ لأنه ليس كل من كان يعتبر نفسه نازيًا أو ستالينيًا، كان متخصصًا في ممارسة العنف، وليس كل جاسوس للأمن محبًّا للتعذيب، وليس كل عاطل عن العمل قاتلًا محترفًا.

تستند كل شروحات الخلفيات وتفسيراتها إلى الاعتقاد بأن الأشخاص المتحمسين من السهل أن يقعوا فريسة ممارسة العنف، ولكن العنف ليس رد فعل للدوافع الاجتماعية، إذ يصعب الأمر على الجاني ولا تساعده أي فكرة على تخطي قيوده، إلا أنه في الحقيقة يسهل العنف فقط على الأشخاص الذين يقتلون بدافع رغبة خالصة، ومن يقعون تحت ضغط أو اعتادوا عليه، كتب عالم الاجتماع الأمريكي راندال كولينز Randall Collins يقول: "أيًا كانت دوافع الشخص وحماسه فلن يستمر العنف إذا لم يتطور الموقف في هذا الاتجاه، ما يثير توتر المواجهة ويسهم في تجاوز الخوف".[33]

المَوَاطِن والمواقف

العنف ديناميكي ينتج عنه ما يجبر على تصرفات ما من النادر التكهُّن بتوابعها، فنحن لا نعرف ما الذي سيحدث، إذ يقول كولينز: "عندما تندلع أعمال العنف فإن ذلك مرجعه في الغالب إلى شروط التفاعل المباشر، ولا تفسر نظرية الدوافع إلى استخدام العنف سوى القليل؛ لأن الطريق بين الدوافع وصولًا إلى استخدام العنف الفعلي طريق طويل». [34]

كما تطغى اختيارات العنف على بدائل الفعل الأخرى عندما يجد الأشخاص أنفسهم في مواقف تسمح لهم بتجاوز الحدود، وتتوقف دائمًا ماهية القرارات المُتخذة على الموقف، والبعض يوائم التكلفة والفوائد لعنف ما بالضبط ولا يدعون القوة تتحدث إلا عندما لا يضعون في الحسبان وجود سلاح مضاد لهم، بينما يجفل آخرون ويتراجعون عن التدخل بعنف؛ لأنهم يخشون من توابع فعلتهم، ولأنهم يشعرون أنهم لن يتمكنوا من الفوز إذا عوّلوا على مواجهة عنيفة، أو لأنهم فوّتوا اللحظة المناسبة، لذا فهم يتخذون قرارًا مغايرًا لميولهم، رغم أن لديهم أسبابًا كي يتّسموا بالعنف.

يتصرف بعض الناس بدافع الرغبة، أو لأن العنف الذي يريد التدمير يوقظ لديهم -للحظة- الشعور بالسلطة المطلقة، [35] بينما يقتل آخرون في جماعات، وينجرفون مع العصبة ويتوحدون معها ومع غضبها ولا يهدؤون ثانية إلا عند انتهاء الكفاح وتمزق العصبة، يتصاعد العنف في جماعات عند غياب القواعد، وعندما لا يتمكن الخصوم من الدفاع عن أنفسهم، يصبح الجاني غير مرئي، يصبح جزءًا من حشد ويقتل لأن الآخرين يفعلون ذلك أيضًا، إذ يربط القتل المشترك بينهم ويطلق اليد، كما أنه يزيل العوائق بين البشر ويخلق مساواة اجتماعية، وحينما لا تتماشى الرغبة مع المواءمات يمكن أن يخرج العنف عن السيطرة في مثل هذه المواقف، كتب إلياس كانتي Elias Canetti في هذا الصدد يقول: "إن الجريمة عديمة الخطر المسموح بها والموصى بها والمشتركة مع آخرين كُثّر، لا يستطيع غالبية البشر مقاومتها".[36]

أيًا كان ما سيفعله الناس، فهم دائمًا ما يتصرفون في مواقف، أو في مواطن العنف التي لا تُملي عليهم ما يفعلونه، ولكنها تحُد من إمكاناتهم في السيطرة على الأحداث وفق أهوائهم، فإذا كنا نريد أن نفهم كيفية نشأة العنف، وما الذي يدفع إليه، يتعين علينا أن نصف- بدقة- المواقف والمواطن التي ينطلق منها، ولا نعني فقط المناطق الجغرافية والطبيعة المُسيجة أو المعسكرات والسجون والمؤسسات العقابية، بل نعني تلك المواطن غير المرئية التي تنشأ من خلال تصور عالم مُقسم

جماعيًا، تلك المواطن التي توجّه سلوك الجماعات وتمنحها ملامح مميزة، ليست الأفكار والأسباب، بل الموانع والمواقف وملزمات الفعل هي التي تحدد ما يحدث لنا عند اندلاع العنف، وهي أمور لا يملك زمامها الجاني والضحية على حد سواء، فالناس مختلفون، بعضهم قوي بينما الآخرون ضعفاء، بعضهم مسلح بينما الآخرون عُزل، بعضهم لديه أسباب ليفعل ما يتعين عليه فعله، بينما يتصرف آخرون دون خطط مسبقة، أيًا كانت البداية التي أطلقت العنف فلن نعرف سوى القليل عن ديناميكية العنف وإمكاناته إذا حاولنا أن نتقصَّى أسباب البداية، ورغم أن علاقات العنف لها مسببات إلا أنها تنتج عن ديناميكية العنف ذاته، ولا يمكن أن نفهمها أو نصفها من منظور بحوث الأسباب المجتمعية، إذ يعتقد متخصص علم النفس الاجتماعي هارالد فيلتسر Harald Welzer أن الموقف "يلعب دورًا أكثر حسمًا في ما يفعله الناس، أكثر من دور السمات الشخصية التي تدفعهم إلى هذا الموقف"، [37] ومن هذا المنطلق، يتعين على بحوث العنف -والتي تريد أن يأخذها الناس على محمل الجد- ألا تتحدث عن النوايا، بل عن الأفعال التي تُسفر عنها المواقف، يجب أن تتحدث كذلك عن المواطن التي تتيح أفعال العنف وتحددها، وتتوقف الديناميكية التي يتطور عنها حدث ما على طبيعة العنف وموطنه والإمكانات التي أسفرت عنها المواقف، [38]أي أن الأمر لا يتوقف على ما يفكر فيه شخص ما أو يعنيه، بل أين يتصرف هذا الشخص؟ وكيف؟

تساءل يان فيليب ريمتسما Jan-Philipp Reemtsma في كتابه "الثقة والعنف" عما قد يحدث إذا أعلنت الحكومة أن سلطة الدولة مُعطلة لمدة أسبوعين؟ من ذا الذي سيطمئن حينئذ إلى أنه لن يتعرض للقتل أو السرقة إذا خرج إلى الشارع؟ ما الذي يمكن أن يحدث إذا نشأ صراع؟ هل سنستطيع الدفاع عن أنفسنا؟ ومن الذي من شأنه مساعدتنا في الحالات الجادة؟[39] فصاحب السلطة - في ذلك الوقت- سيكون هو القادر على الدفاع عن نفسه، ولن يعوض عيب نقص الذكاء في هذه المواقف سوى قوة العضلات والإصرار وانعدام الضمير، وكل المؤهلات التي يكتسبها البشر في أنظمة الأمان الاجتماعي ستتحول إلى عيوب أثناء الصراع من أجل البقاء، إذ سينقلب العالم رأسًا على عقب مع انهيار النظام لتدق ساعة الأشخاص منعدمي الضمير الذين يتمكنون من فعل ما، ويكتفي آخرون بمجرد الجرأة على التفكير فيه فحسب، وما أن يخرج العنف عن السيطرة حتى ينطلق زمن المرضى النفسيين والمجرمين الذين يحتاجون إلى القتل مثل حاجتهم للهواء من

أجل التنفس، ولطالما احترف الطغاة ولوردات الحرب وقادة الجيوش الاستعانة بخبراء العنف هؤلاء ممن لا يشعرون بالندم أو التعاطف. [40]

لا شيء يُعلي من الشعور بالسلطة أكثر من خوف الخاضعين للذعر والإرهاب، ومن ثم يستطيع قليل من أصحاب العزيمة أن يحيلوا حياة الكثيرين إلى جحيم إذا سمحت لهم الظروف بذلك؛ لأن هؤلاء القلائل -الذين يعرفون ما يفعلونه- يتمتعون بميزة في مواجهة الكثيرين الذين لا يستطيعون أن يتحالفوا ضدهم، البعض لديه سلاح ومستعد لاستخدامه، والآخرون يتطلعون إلى أمن النظام الذي لا يتوافر لهم عندما يتعرض لهم المجرمون الوحشيون، ولكن حكم القِلة على الكثرة يستند في كل الأوقات إلى هذا المبدأ. [41]

عندما يندلع العنف حقًّا لا تعود الأمور كما كانت من قبل؛ لأن استخدام الجسد على سبيل السلاح لا يمكن السيطرة عليه كما نشاء، على عكس التصورات التي يمكننا أن نكوّنها عن العنف، يسفر العنف عن مُلزمات بالانضمام إلى جماعة ما لا يمكننا السيطرة عليها؛ إذ نفقد اليد العليا على الموقف، ويخرج العالم عن السيطرة ويختفي اليقين بأننا محميون من الإصابة أو الموت.

لا يستطيع من يعايش العنف أن يتجاهله، وقد كتبت الأمريكية باربرا إيرنرايش Barbara Ehrenreich تقول في هذا الصدد: "إن العدو المُهاجم يصعب التخلص منه مثل لص الشوارع الذي يطلب إما المال وإما حياتك حين تشرح له أنك ترغب في الاحتفاظ بالاثنين".[42]

حتى الجاني نفسه لا يكون بمأمن؛ لأنه يتعين عليه أن يضع بالحسبان وجود سلاح مضاد وانتقام إذا ترك ضحاياه على قيد الحياة ومنحهم فرصة الأخذ بالثأر، المغتصبون الذين يقتلون ضحاياهم خشية العقاب الذي ينتظرهم إذا ما اكتشف أحد أمرهم؛ الجنود الذين يقتلون الأسرى، أو الطغاة الذين يبيدون مناطق بأكملها من السكان أو الأقارب، والأصدقاء الذين يقتلون أعداءهم لأنهم يعرفون أن ضحية اليوم سيصبح منتقم الغد، ما أن يتسم العنف بالتعسف ولا يمكن توقع مساره، فمن شأنه تغيير العلاقات الاجتماعية كافة، لا أحد يستطيع- حينئذ- أن يتصرف وأن يرد على وجود العنف في الوقت نفسه، من عاش ذات مرة في مجتمع أضير من الحرب والإرهاب، ففقد

الثقة، يعرف ما نتحدث عنه هنا، كتب فارلام شالامو Warlam Schalamow عن تجربته في معسكرات اعتقال ستالين يقول: "لقد أدركتُ معنى السلطة، ومعنى أن يحمل رجل سلاحًا". [43]

هل التخلي- لسنوات طوال- عن العنف يمنع البشر من الجرح والقتل كما يزعم عالم النفس الأمريكي ستيفن بينك Steven Pinker؟ أن «قوى المواطنة العالمية يمكن أن تكون سببًا كي نضع أنفسنا محل أشخاص آخرين مختلفين عنا"، إذ إن التعاطف والسلمية يمكنهما الاحتفاظ بالغلبة والهيمنة عندما يدير لنا وحش اللوياثان البحري ظهره، يالها من فكرة جميلة! بلا شك، لكنها تتعارض مع كل التجارب التي يمكن أن يمر بها البشر مع العنف.[44]

الجندي ويلي ريسه -أيضًا- جاء من مجتمع قانع إلى روسيا، إلا أنه أصبح شخصًا آخر بعد أيام قليلة، فما أن وطأت قدماه موطن الحرب حتى شعر بأنه غريب في بلد غريب، وسرعان ما اعتاد منظر الجثث وعايش السهولة التي يتم بها القتل والعناء الذي يصاحب الموت، ولولا السلاح والقدرة على القسوة على الذات لكان ريسه رجلًا ميتًا وسط كل هذا العنف من حوله، وهكذا أضحى ميدان المعركة بمثابة موطن له، أي أننا لا نحتاج إلى غرائز حربية كي نتواءم مع مثل هذا الوضع.

التأثيرات

لا يظل الإنسان صديقًا للإنسان إذا أُتيح له الاختيار إما أن يَقتل أو يُقتل هو نفسه، وما أن يلج إلى مملكة العنف حتى يصبح جزءًا من حياة لا يمكن أن يعيشها إلا للحظة الآنية، وكل ما كان يُعد طبيعيًا من قبل يفقد معناه أمام العنف المواجه له، كتب ريسه عن إجازته من الجبهة في موطنه يقول: "كانت أشبه بالحلم، فقد اعتقدنا أنه لا وجود سوى للجليد والثلوج على الأرض، وفي خضم الخوف من كل ما هو جميل وجيد داهمنا الحنين إلى الوطن، إذ اشتقنا إلى روسيا، إلى جحيم الشتاء الأبيض، إلى المعاناة، والتنازلات وخطر الموت، لم نعرف ما يتعين علينا أن نفعله بحياتنا، كنا نخشى العودة إلى الديار وأدركنا حينئذ مدى تدمير الحرب لأرواحنا".

هكذا انمحت كل معايير ما هو طبيعي ومعتاد، وإذا بالجندي ريسه الذي نجا لتوه من الجحيم يرى في الحياة اليومية للبشر الذين يعيشون في سلام واقعًا مخالفًا للمنطق[45]، فمن يجد نفسه في

الحرب ويتعيّن عليه كل يوم أن يضع في حسبانه احتمالية أن يفقد حياته، ومن يمارس القتل مهنة يومية من المحتمل ألا يفهم أبدًا ما المقصود عند الحديث عن تحريك المعايير، هكذا- أيضًا -استقبل قائد الجيش فون بيرجن بيلزين الأمر، فقد اعتاد قتل البشر لدرجة أنه لم يعد قادرًا على تصور الحياة في مجتمع خالٍ من العنف، بل حتى شهود عيان الوحشية أنفسهم لا يشعرون في أي وقت بالتقزّز أو النفور، فهم يشيحون بأبصارهم في ملل؛ لأن العنف أصبح جزءًا من حياتهم، عاش اليهودي البولندي يوليوس مارجولين Julius Margolin تجربة مؤلمة عندما تم ترحيله مع آلاف الأسرى الآخرين في يوليو 1940 إلى الاتحاد السوفيتي، وقد اعتبر الناس في بولندا قطار البؤس هذا بمثابة الظاهرة غير المعتادة، حيث كان بالإمكان مشاهدة أُناس يحدِّقون من فرط الذهول عند مرور القطار حاملًا الأسرى، ويُقال إن النساء كُنّ يحاولن دس الخبز لهم والبعض يبكي، بينما لم يعد أحد في الاتحاد السوفيتي يكترث بشأن مصائر التعساء، لذا بدا الأمر- بالنسبة لمارجولين- وكأنه وصل إلى بلد اللامبالاة عندما اجتاز القطار الحدود: "على جانب الحدود السوفيتية لم نعد نمثل حدثًا جللًا، لذا اتضح لنا أن قطار مثل قطارنا ليس سوى منظر معتاد للغاية بالنسبة للمواطنين السوفيت، جزء من حياتهم اليومية- وليس شيئًا خاصًا- فكم من مثل هذه القطارات شاهدوا؟ نقل الأسرى أمر طبيعي للغاية! كان الكبار يسيرون وقد أشاحوا بوجوههم بعيدًا عنّا، ولم يرغبوا في التعامل معنا مطلقًا، كما كان الأطفال (الصبية والفتيات ذوو العشرة أعوام) يمرون بها وهم يثرثرون ويضحكون دون أن يثير هذا القطار بأكمله الفضول أو الذعر لديهم، بل ودون أن يلفت انتباههم ما قد يمكن رؤيته بداخله؟».[46]

لن يسأل أحد عن أسباب العنف حيثما يصبح من الأمور الطبيعية لأن ما هو بديهي لا يحتاج إلى تعليل، وبدلًا من ذلك سيعتبر البعض اتخاذ التدابير الوقائية خشية الوقوع ضحية للعنف، من وصايا الذكاء؛ لأن من لا يرغب في أن يصبح ضحية يمكن أن يصبح جانيًا أيضًا.

إذا كنا نرغب في فهم أحد أحداث العنف، تتعين علينا معرفة الكثير من الأمور: ما الذي حدث قبل اندلاع العنف؟ هل كان الجُناة مسلحين؟ وهل كان معهم شركاء؟ هل كانوا معتادين على العنف؟ أم كانت تلك أول مرة يعتدون فيها على بشر آخرين؟ هل كان بينهم قائد؟ هل كان الخصوم -أيضًا -يحملون السلاح؟ هل يتعين على الجناة أن يضعوا في حسبانهم عملية انتقامية أو عقابية؟ أم يمكنهم

الاطمئنان لأن ما فعلوه كان مسموحًا، أو لأن خصومهم ليسوا قادرين على رد العدوان والانتقام؟ ما المساحة التي كان الجناة والضحايا يتحركون فيها؟ وهل استطاعوا شمولها بالبصر؟ هل توافرت طرق للهرب؟ أم ملاذات؟ هل كان الجناة مجبرين على القتل لأنهم مجبرون على طاعة الأوامر العسكرية بوصفهم جنودًا؟ أم أنهم كانوا يتصرفون بمحض إرادتهم؟ هل توهموا وضعية الدفاع عن النفس؟ أم كانوا هم من بادر بالعنف؟ هل شعر الجناة بالخوف؟ هل كانوا سُكارى؟ أم مخدرين عندما انقضّوا على خصومهم؟ هل كانوا تحت ضغط الجماعة؟ أم اضطروا للتواؤم مع القهر الاجتماعي أو إثبات رجولتهم؟ من منهم اعتبر ما رآه بعينيه أمرًا منفِّرًا أو مثيرًا للبلبلة؟ ومن منهم لم يعتبر الأمر كذلك؟ ما هي المواقف والمواطِن التي ينطلق منها العنف؟ كيف عايش الضحايا ما اقترفوه بحقهم؟ هل استقبلوا العنف بوصفه أمرًا مُهينًا، أم متعسفًا أم بوصفه أحد الأفعال الانتقامية؟ [47] لأن استقبال الضحية هو ما يحسم كذلك كيفية تواصل العنف، وكيفية التغلب عليه والتكفير عنه، وقد كتبت روث كلوجر تقول: "يشترك من تعرضوا للتعذيب والاغتصاب في أن الزمن لا يمحي ما حدث لهم، وأنهم- على خلاف من عانوا من حادث أو مرض- يقضون حياتهم بأكملها في محاولة تجاوز ما مورِس بحقهم، متساءلين عما إذا كان العذاب الذي يتعين على كل إنسان -تقريبًا- مواجهته وليد الصدفة أم مقصودًا"؟[48]

إن العنف الذي يتبع قواعد معترف بها يمكن توقعه، إلا أن من يتعرض لعنف مدمر ومهلك لا يبقى أمامه خيار سوى أن يموت، أن ينتحر، أما العنف التعسفي الذي يبدو بلا مغزى، والذي لا يقف وراءه سوى مرتكبه، يمكن التغلب عليه بشكل مغايرعن تجربة الإذلال "البشر الساديون".

بعد العنف يختلف كل شيء؛ لأن الشروط التي يمكن أن يتلاقى البشر وفقًا لها تتغير، كما يعرف جميع الضالعين في هذا الأمر أنه هكذا، حيث يشعر الجاني بالسلطة المطلقة عندما يكسر إرادة الآخرين وأجسادهم، أما الضحية فتشعر بالعجز المطلق، يحطم العنف الثقة، وسوف يتَّسم الناجون بالعنف، وسوف تبقى تجربة العنف راسخة في ذاكرتهم دائمًا، وستتحكم في تصرفاتهم، خاصة عندما يفرض الجناة على الضحايا كيف يتذكرون العنف الذي عانوا منه، ويمكن أن يمتزج العنف الجسدي بالنفسي عندما يتمكن القلائل من دفع الكثيرين إلى أن يمتدحونهم، وليس فقط أن يخضعوا لهم، وقد أُجبِر الناسُ في الاتحاد السوفيتي الستاليني على أن ينأوا عن أقاربهم المقتولين، بل وأن

يمتدحوا السلطة؛ لأنهم أزاحوهم من الوجود، كما اضطر الرعايا في كل الدكتاتوريات الشيوعية للمشاركة في الانتخابات التي لم تترك خيارًا، ولعرض ما كان يدركه كل شخص بوصفه كذبًا على أنه حقيقة يومًا بعد يوم، فلم تكن السلطة في أي مكان أكبر من أن تجعل الناس يفعلون ما لا يرغبون من فرط الألم؛ لأنهم لا يستطيعون مغادرة موطن العنف، فلقد ترسخت السلطة في إمبراطورية ستالين داخل العقول لدرجة أن ما كان أصحاب السلطة يتوقعونه من محكوميهم يحدث من تلقاء نفسه، صرح شاب عام 1928 على صفحات جريدة برافدا Prawda الروسية، أنه اضطر لإخفاء اسم أبيه الذي اتهمته سلطة الدولة بأنه عدو للشعب؛ لأنه كان يوصمه بالعار، تُرى ما الذي كان يشعر به هذا الرجل حين يطالبه أحد بإنكار أبيه والتبرؤ منه علانية؟ [49]

ماذا يحدث عندما ينقضي العنف دون أن يعرف أحد ما إذا كان سيعود؟ أو متى سيعود؟ أيًا كانت الإجابة على هذا السؤال فلا شك في أن خشية معاودة العنف في حد ذاتها مؤلمة، ولا تترك تأثيرات العنف أحدًا دون مساس، كما يتحول العنف الجسدي إلى نفسي عندما يتعين تجاوز توابع إصابة ما نفسيًا، وعلى عكس ذلك لا يعاني من يشعر بالخوف أو يتعرض للتهديد أو الإذلال لآلام نفسية فقط[50] ، وفي النهاية تترسخ توابع "العنف غير الظاهر" في أجساد الضحايا وأخلاقهم، فهم يصبحون مجانين أو مرضى أو لديهم اكتئاب، حتى أن بعضهم يصيب نفسه بجروح ويشعرون بالذنب؛ لأنهم هم من نجوا من الفظائع دون أصدقائهم وأقاربهم، أحيانًا ينهار الجناة بشأن العنف الذي مارسوه تجاه أناس آخرين: إذا ما أجبرهم أحد على القتل كي يبقوا هم على قيد الحياة، وإذا لم يكن مسموحًا لهم أن يتحدثوا عما حدث، أو عندما يتعين عليهم أن يضعوا في حسبانهم أن يلقي عليهم الضحايا بالمسئولية ذات يوم[51]، فهناك شرطي بالبوليس السرّي الروسي ممن شاركوا عام 1937 في عمليات قتل جماعي بالرصاص ظل -لسنوات لاحقة- مجرد حطام نفسي، وهو يتذكر ما حدث ويقول إنه كان "مثل المُشَوَّش"؛ لأنه لم يتمكن من نسيان الأشخاص الذين أخذوا يصرخون وهؤلاء الموتى، بينما كان هناك شخص من المفوضية الشعبية للشئون الداخلية الروسية NKWD يجلس ليلة وراء الأخرى على فراشه وهو يحمل مسدسًا، وينادي: "سوف يطالبون بالقصاص مني".[52]

يدفع معظم الناس ثمنًا باهظًا نظير القتل، فعليهم مواصلة العيش مع التفكير في ما ارتكبوه، وسوف يبقى العنف داخلهم إلى الأبد ليحدد حياتهم، أحد أتباع الهوهو من بوروندي ممن شاركوا في مذبحة عام 1994 وقتل عشرات من قبائل التوتسي أجاب على السؤال حول مدى قدرته على مواصلة الحياة وهو مُحمَّل بالذنب وقال: "إن أعين من نقتلهم تبقى خالدة إذا نظروا إليك لحظة موتهم، حيث تصطبغ بلون أسود مرعب، تجلب أعين القتلى التعاسة للقاتل إذا ما نظر إليها".[53]

يغير العنف إطار النسق الاجتماعي الذي يتحرك بداخله البشر؛ لأنه يعطل عمل الضمانات التي تقي الحياة -في سلام- من الخروقات، يفرز العنف انعدام الثقة ويدمر كل تواصل اجتماعي، وهما ما لا يمكن تصور مجتمع ما دونهما، بالطبع لا يمكن اعتبار كل موطن عنف مكانًا لإزالة الحدود بشكل شامل، إذ تختلف حرب الدول التي تُشن- وفقًا لقواعد معاهدة جنيف- عن الحروب الأهلية، وعن الحروب غير السميترية التي ينتصر فيها الضعفاء على الأقوياء؛ لأنهم يستغلون كل إمكانات العنف المتاحة أمامهم، فالحروب تتبع ديناميكية أخرى مغايرة للمذابح أو الاضطهاد، كما تختلف معارك الضرب بالأيدي عن الهجوم المسلح، ويختلف التعذيب عن إنفاذ العقوبة الطبيعي، ويختلف تدخل الشرطة - محدد الهدف ضد المجرمين أو مرتكبي أعمال عنف ممكن يخالفون القانون- عن الإرهاب الذي يمارسه البوليس السري تحت إمرة الحكام الديكتاتوريين بغرض بثّ الرعب والذعر، والسجون ليست معسكرات إبادة يتحول فيها الضحايا إلى أجساد؛ لأنهم ليسوا سوى أحد أملاك السلطة المطلقة، ويختلف الحكام الديكتاتوريون والمستبدون عن الأنظمة القمعية؛ لأنها وإن كانت تجبر على الطاعة إلا أنها تتخلى عن بثّ الرعب الدائم وتعطيل المؤسسات والإجراءات.[54]

في كل مواطن العنف يُعلق سريان قواعد التواصل الاجتماعي السائدة وقت السلم، وفيها يكون سلوك البشر بمثابة الإجابة على حضور العنف، وإذا لم تكن هناك إمكانية للفرار منه بسبب صعوبة الهروب من السجون أو المعسكرات، ولأنه لا يمكن مغادرة عصابات المافيا؛ لأنه لا توجد أراضٍ ظهيرة في الحروب الأهلية، أو لأن الجندي ليس أمامه خيار إلا إبادة العدو أو أن يُقتَل هو نفسه، لكل هذه الأسباب يُعد التواصل الاجتماعي نوعًا من تجاوز علاقات العنف. [55]

غلاف العنف

إن وقت العنف غير المنظم قصير، والناس الذين يتضاربون ويهاجمون بعضهم بعضًا، واللصوص الذي يسلبون المحال أو يقتلون من يقف في طريقهم، والقتلة الذين يقتلون بلا صوت، كلهم يريدون أن ينقضي العنف ويمر بسرعة؛ لأنه كلما طالت مدة إثارة الاهتمام زادت احتمالية فشلهم في تحقيق نواياهم، لذا ينسحب المهاجمون عندما يدركون أنهم لن يتمكنوا من الانتصار، فقط عندما يصبح العنف منظمًا ومؤسسيًا يمكنه الاستمرار لفترة زمنية أطول، والجنود الذين يخدمون في الجيوش والجواسيس في المعسكرات والسجون يجرحون ويقتلون أيضًا حتى وإن لم يرغبوا في ذلك؛ لأن نظام العقوبة والتنكيل يؤدي إلى أن يخضع المرؤسون لرؤسائهم، وينفذون أوامر ضد رغبتهم، وتتوقف قدرة أداء الجيوش على ما إذا كانوا سينجحون في السيطرة على خوف جنودهم بشكل منظم، [56] أيًا كان ما يفعله الناس في جماعات العنف المنظمة عسكريًا، فهم يفعلون ذلك بدافع تنفيذ الواجب، هم يفعلونه لأن الرفاق لا يخونون؛ لأنهم لا يريدون أن يكونوا جبناء؛ لأن السمعة والشرف يكونان على المحك، أو لأنهم اعتادوا الخضوع للحكام المستبدين، لذا يتصور البعض أن القدرة على عدم تنفيذ أمر ما غير مقبول حقًا من حيث السياق الأخلاقي للمؤسسة العسكرية. [57]

لا تجبر المؤسسات على العنف فحسب بل تتيحه أيضًا؛ لأن الناس تحت سقف اتحاد مسلح وقوي يستطيعون أن يفعلوا ما لن يتجاسروا عليه بمفردهم، وعندما يُسمح لهم بما يفعلون، فهم يتمكنون من إساءة معاملة الضعفاء وغير القادرين على الدفاع عن أنفسهم دون أن يضعوا في اعتبارهم حساب الانتقام أو المساءلة، فالعنف المؤسسي يتيح الفرص، وفي كل المؤسسات الشمولية يزداد خطرُ أن يصبح بعض الناس جناة والبعض الآخر ضحايا، فلا أحد يستطيع مغادرة جيش أو معسكر، ولا يستطيع أحد الفرار من ضغط الجماعة الناجم عن مُلزمات العنف المُنظم، فالمرء ليس حرًّا كي يفعل ما يريد حتى في المدرسة، لذا يكون حجم العنف الذي تعرض له الإنسان ووقع فريسة له أكبر ما يكون حيثما يرتبط بهياكل مستبدة وهيراركية، فهي تجبر البشر على البقاء في المكان والطاعة تحت كل الظروف، وهكذا يصل الأمر إلى أن يعتبر الجنود والضباط ورجال الشرطة وآمرو معسكرات الاعتقال أو رجال المافيا ممن ظلوا يقتلون ويعذبون بكم كبير ولفترة زمنية طويلة، يعتبرون ما يفعلونه طبيعيًا، فهم يعتادون الحياة اليومية الدموية ليس فقط لأنهم

يفقدون الحس ويتوحشون من فرط الروتين، بل لأنه من يحظي بالمكانة في محيطهم هو من يتقن حرفة القتل.

يشرح رودلف هوس Rudolf Hössآمر معتقل أوشفيتس بعد الحرب، الأمرَ، قائلاً: "لم تخطر فكرة عدم طاعة الأمر ببال أحد، وإذا لم أكن فعلت ما فعلت، لقام بذلك شخص آخر على أي حال». [58]

عندما يُتاح القتل يُصبح التعاطف بمثابة الخرق لميثاق شرف الجماعة، إذ تُفسر كل جريمة قتل على أنها واجب مُلزم أو دفاع اضطراري أو دفاع عن النفس، وهكذا يتم تبريرها، وهؤلاء الناس لا يسمعون -ذات يوم- سوى الأمر الذي يقول لهم ما يتعيّن عليهم فعله وما يتعيّن عليهم تركه؛ لأنهم لا يستطيعون أن يتخيلوا أنفسهم في أي عالم آخر بعيدًا عن الحرب، إذ إن إطارهم المرجعي الأخلاقي يتزحزح حتى يؤمنون بعد فترة معينة -هم أنفسهم- أن الشيء الممنوع في أماكن أخرى طبيعي لديهم، إذا كان الأمر مختلفًا لما كنا فهمنا لماذا خلفت وحدات الحماية SS التي أُخليت من الجبهة الشرقية في العامين 1943 و 1944آثار الدمار والفناء في كل الطرق التي سلكوها حتى في إيطاليا وفرنسا.

وقد قادوا في الاتحاد السوفيتي حرب إبادة، ولم يدركوا- بعد سنوات من تجربة العنف المفرط- لماذا كان من المفترض أن يختلف الأمر عند الجبهة الغربية، كان جنود جيش الحماية يتقنون حرفتهم، كما اعتادوا استخدام الأسلحة -دون مراعاة- ضد أي شخص، وكافحوا وهم على قناعة بأنهم يخدمون بشرف، [59] حتى في معسكرات الإبادة تم استخدام حراس لم يمثل القتل المُنظم بالنسبة لهم سوى عمل معتاد.

يتذكر بريمو ليفي Primo Levi قائلاً: "كانت قوات الحماية بالمعسكرات تتألّف من أشخاص قساة فاقدي الحس، وليس بالضرورة وحوشًا ثاقبي الفكر، فقد تربوا على ممارسة العنف، كانت ممارسة العنف تنساب بين عروقهم، كانت هي الشيء الطبيعي، البديهي". [60]

رغم أن مواقف الفضاء وإمكاناته هي التي تحدد كيفية تنفيذ العنف والمعاناة منه، ولكن لا يوجد شخص يلقي بنفسه في موقف عنف دون شروط، ونحن نعرف ما يتعيّن علينا فعله؛ لأن الجاني

مثل الضحية، المهاجم والمدافع عن نفسه يلجآن -دون تفكير- إلى عادة العنف المألوفة مرة أخرى، والتي تكتسب مغزى في كونهم الثقافي، وفي بعض الصراعات مثل نزاعات الثأر أو Vendetta تصبح ديناميكية العنف متوقعة بالنسبة لجميع الضالعين في الأمر؛ لأنهم يعرفون القواعد التي يتبعها تصاعد الصراع، من يعرف العوز ويتربى على العنف يستطيع التعامل مع موقف العنف أفضل من الأشخاص الذين يُلقَى بهم دون تحضير في المعركة، [61] إذ يعتاد الناس العنف حيثما يضطرون لمعايشته طويلًا؛ لأنهم دون ذلك لن يتمكنوا من مواصلة الحياة، وما كان يُعتبر شاذًا يصبح مُتوقعًا، لذا لا يُعد أمن النظام والعنف في كل الأحوال من المتناقضات التي لا يمكن التوفيق بينها، تحليل للعنف لا يتحدث عن الفضاء أو الثقافة التي ينبثق عنهما العنف، لكنه لا يقدم إجابة على السؤال بشأن ماهية إمكانات التصرف المتاحة للبشر في مواطن العنف.[62]

يزعم فولفجانج سوفسكي Wolfgang Sofsky أن "دافع تشوه المجتمعات وسببه هو خوف البشر بعضهم من بعض" [63]، حينئذ نسأل نحن: لماذا؟، فنحن لا نخاف من بعضنا؟! نعم ولكن الخوف سيعود إلى حياتنا إذا عطلنا اتباع القوانين، وعندما نُعلي الحرية على القانون والحق وسمحنا لممارسي العنف أن يجبرونا على قواعدهم.

كتب سيجموند فرويد عام 1915 إلى ألبرت أينشتاين يقول: "حيثما توجه المجتمعات الاتهام يتوقف قمع الطغاة الأشرار ويرتكب الناس أفعالًا وحشية، لا سيما المكر والخيانة والفظاظة، تلك الأفعال التي لطالما اعتبر الناس ربط إمكاناتها بالمستوى الثقافي أمرًا غير وارد"،[64] أي أنه عندما تنفتح السدود وتُزال متاريس صمامات الأمان إما لأن النظام انهار، أو أن سلطة الدولة قررت إساءة استخدام احتكار السلطة وممارسة الإرهاب، حينئذ تتحول مواطِن القانون إلى مواطن عنف لا مفر منها، لا يسري فيها سوى قانون العنف، ورغم أن العنف بوصفه إمكانية يكون واردًا عندما لا يكون هناك أحد عنيفًا بطبعه، وعندما تنتصر الحُجة على القوة، والنظام الذي لا يستطيع تطبيقه في أي وقت ضد المقاومة لا يستطيع البقاء طويلًا، [65] لذا يظل العنف إمكانية حتى وإن عمَّ السلام، ولا ينبغي أن نأمل في تجاوزه، بل في السيطرة عليه.

التَّحضُّر..عندما يختفي العُنف

نحيا في عصرٍ تسوده وداعة ومسالمة منقطعة النظير، فمعظم من يعيشون في أوربا المعاصرة، لا يعرفون معنى الحرب والإرهاب وما يمكن أن يتسببا فيه؛ لأنهم لم يمروا بتجربة التعرض للعنف الوحشي، حتى وإن كابدوا -ذات مرة- ما لم يكونوا ليعتقدوا أنه أمر ممكن الحدوث، فإنهم يظنون أن أعمال العنف، لا تعدو عن كونها مجرد استثناءات، وأنها نادرًا ما تحدث، فنحن نشعر بصدمة، عندما يعتدي الرجال على النساء بالضرب ويغتصبوهن، وعندما يتعرض الأطفال لإساءة المعاملة، وربما لو تعرض الكثيرون منا لصفعة، لشعر بتزعزع الثقة بشدة، وحتى وزير الدفاع، الذي يمثل الذراع المسلحة للسياسة الخارجية، لا يعرف، ما مآل الأسلحة، التي سمح بوجودها في مناطق نشوب الصراعات، بإمكاننا أن نتخيل الجنود، يقدمون مساعدات إنسانية ويقومون بأعمال خيرية، لكن يشق علينا، أن نراهم بوصفهم بشرًا يقتلون بشرًا آخرين، فالعنف لا يرد في حياتنا اليومية سوى بوصفه حدثًا مُجرَّدًا، وعندما يتابع المشاهدون الجالسون في غرفة -عن طريق الخطأ- أي خبر يرد في التلفاز متعلقًا بالعنف، فإنهم يعايشون ذلك الخبر بوصفه حدثًا نقيًّا، بلا صوت ولا رائحة، حدث يقع في عالم خيالي ويتألّف من مجموعة من الأقوال المأثورة والتعبيرات الموجزة، فلا يدرك ثمة شخص تقريبًا، ما كابده الآخرون، بوصفه تهديدًا، فبعد أن درأنا العنف، تقع كل الأمور في نطاق سيطرتنا، ولهذا فنحن نوهم أنفسنا، أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتكرر، ما حدث في ألمانيا قبل عقود مضت، يقول المدافعون عن عملية المدنية والتحضر، إنه ما علينا سوى أن نتذكر فظائع الماضي وأن نصدر تنبيهات بشأنها، وحينئذ سيتوقف بالتأكيد العنف عن التحكم في حياتنا، لقد أصبحنا ننكر وجود العنف، بسبب ما مررنا به في حياتنا من خبرات، لذا فإن الوداعة والمسالمة السائدتين في البيئة المحيطة بنا تغوياننا بافتراض أن واقعنا الذي نحياه، يمثل الوضع الطبيعي، وأن الحياة التي يسود فيها العنف، تعد أمرًا استثنائيًا، فنحن نظن أن من يضطر إلى تحمل الحرب والإرهاب، لا يعتريه شعور بأن ثمة شيء يزعجه، أي أن البعض يحيا في ظل وضع طبيعي بينما يحيا البعض الآخر في ظل وضع استثنائي طارئ، وليس هناك أمر محبب إلى نفوسنا أكثر من الإيمان بعملية المدنية والتحضر، التي ننتظر منها أن تقينا الارتداد منتكسين إلى السلوكيات الهمجية، فهناك باعث معقول حقًا، يدفع من قضى فترة طويلة من حياته في سلام، إلى الإيمان بالتأثير المتحضر للتقدم؛ لأنه لم يمر بما يُعَد في بقاع أخرى من وقائع الحياة اليومية ولأن الحاضر -الذي يحياه- أكثر سِلمًا من الماضي، كما أن الحكايات التي يقُصها المؤرخون، تسهم في تعزيز مثل ذلك الشعور بالأمان المنبثق عن تحقيق النظام؛ لأن تلك الحكايات تبرهن للقراء

والمستمعين، صحة ما يظنون أنهم يعرفونه على كل حال، حيث تبرهن لهم أن السلام لم يصبح ممكنًا اليوم، إلا بسبب تخلي البشر عن عنف الأمس، اختار المؤرخ هاينريش أوجست فينكلر Heinrich August Winkler عنوان "استحضار لعهد استثنائي" للفصل الأخير من كتابه، الذي ألّفه عن أوربا في عصر الحروب وأنظمة الحكم الشمولية، إن ما حدث ذات يوم، لا يمكن أن يقع مرة أخرى، فمن يود أن يؤمن بالصدفة أو بسطوة اللحظة، إذا كان باستطاعته أن ينحاز لأسطورة عملية المدنية والتحضر؟ كما كتب عالم النفس الأمريكي ستيفن بينكر Steven Pinker ما يلي:

"بالرغم من كل ما يمر بنا في حياتنا من كدر، وبالرغم من كل الصعاب، التي لا تزال باقية في الحياة، فإن انحسار دائرة العنف يعد بمثابة إنجاز يمكننا الإشادة به، ودافع إلى الإعلاء من قدر قُوى التحضر والتنوير، التي أتاحت ذلك الإنجاز".

وطبقًا لرأي بينكر، فإن العنف لن يتحكم في الإنسان في عصر الحداثة، بل ستسيطر الحكمة والشعور بالتعاطف مع الآخرين على ذلك الإنسان، ولن يستطع أحد أن يضع نفسه موضع شخص كان يعيش في العصر القديم وكانت تراوده خيالات تدفعه إلى ممارسة العنف، كما سيسود الشعور بأن العنف أمر مُنفِّر، ولن يستطع كل من اضطر إلى معايشة ما عاناه، من عاشوا في عصور سالفة، سوى "أن يجهش في البكاء تعاطفًا معهم.»[66]

من يجمع خبرات حياتية في جامعة هارفارد سيحكم على العنف حكمًا يختلف عن حكم من يخوض على بعد كيلومترات قليلة منه حربًا في سبيل الحصول على المخدرات من أجل الحفاظ على حياته، ولكن من ذا الذي سيصغى إلى أحد المجرمين، إن كان بمقدوره أن يطمئن لما يقوله أساتذة جامعيون وعلماء تربويون؟! ولهذا فقط نشعر باضطراب، عندما نجد تلاميذ بالمدرسة يستخدمون السكين في شجاراتهم، أو عندما يوجه شباب في الشارع ضربات لضحاياهم بأقصى درجات الوحشية، أو عندما تطالعنا صور ينقلها التلفاز بالفظائع التي تقع في المناطق التي تندلع بها حروب أهلية في عالمنا هذا، لو كان العنف أمرًا مألوفًا، لما كنا لنتعجب منه، إن السلم السائد في حياتنا اليومية، يجعلنا سريعي التأثر بالعواقب الهدّامة للعنف، ولو كان العنف أمرًا مألوفًا، لقلّ الاهتمام بأسبابه، فلا أحد يتساءل عن مغزى حدثٍ ما، يعتبره الجميع حدثًا بديهيًا.

هل نعيش حقًّا في وضع عادي؟ وهل من المنتظر، أن يحيا أولئك -الذين ينبغي عليهم أن يخضعوا إلى العنف بشكل يومي- يومًا ما مثلما نحيا نحن؟ هل سيبقى من بلغ حالة الوداعة والمُسالَمة، مُسَالِمًا للأبد؟ هل من تطُورٍ ينقل البشر من ممارسة العنف إلى خوض النقاش والحُجج؟ لقد اختلفت إجابات المؤرخين وعلماء الاجتماع وعلماء الأنثروبولوجيا على تلك التساؤلات، فإجابة من يعتقد، أن ما حدث في السابق، يعد سببًا في ما يقع في الحاضر، ستختلف عن إجابة من يعتبر الحدث التاريخي بمثابة تتابع للحظات وقعت عن طريق الصدفة.

مواطن الفزع

أيًا كان ما نستطيع قوله عن حقيقة حاضرنا، فلن يستطيع أحدنا ادعاء أن العنف المرئي يسهم في تشكيله، بيد أن العنف كان له حضور طاغٍ في حياة أسلافنا، ففي العصر القديم كانت منافسات المصارعة تقام في ساحات المصارعة، حيث كانت الحيوانات المفترسة تمزق أجساد المصارعين، لمجرد الترفيه عن المشاهدين وتسليتهم، وعندما غزا الصليبيون القدس في عام 1099 ميلادية، ارتكبوا مجزرة مُرَوِّعة بحق سكان المدينة؛ حيث أخرجوا النساء والأطفال عُنوةً من منازلهم وساقوهم إلى الشوارع، حيثما قتلوهم كما تُقتَل الماشية، كما أمر القيصر أوتو الأول، بعد خوضه إحدى المعارك الحربية عام955 ميلادية، بدسّ رأس زعيم أعدائه في سيخ وفقء عين مستشاريه والتمثيل بهم[67]، وحتى قبل أربعمائة عام أيضًا كان من الصعوبة بمكان غض الطرف عن الفظائع المرتكبة في أوربا، ما بين إعدامات علنية لبعض الأشخاص وعرض جثامينهم على الملأ على مدار أيام متتالية، وإعدام البعض على المشانق، وإعدام البعض عن طريق ربط أجسادهم في عجلات، وكذلك جنود المشاة وغيرهم من الجنود المرتزقة، الذين لا يفرقون بين الأفراد المدنيين والعسكريين، واللصوص، الذين كانوا يرتكبون جرائم السلب والقتل والاغتصاب.[68]

كما تعرّضت مدن -في خضمّ الحملات الحربية والتي تم شنها أثناء حرب الثلاثين عامًا- للتدمير عن بَكْرة أبيها، وتعرض سكانها للذبح وسرقة ممتلكاتهم، ولم تمر أي حرب دون أن يظفر الفائز فيها بغنائم وبأسلاب على سبيل التذكار، ولم يتحقق كذلك أي انتصار دون أن يتعرض المغلوبون على أمرهم للاغتصاب والقتل، ولم يكن باستطاعة الفلاحين في أي مكان أن يقاوموا المرتزقة الذين يعيثون في الأرض فسادًا أو اللصوص الذين يقومون بأعمال السلب والنهب؛ لأن قراهم لم

تكن مُحصَّنة، ولأنهم لم يكونوا يملكون ما قد يستطيعون تقديمه للمُعتَدين عليهم، لكي يسترضونهم، لقد نشب في أوربا -في القرن السابع عشر- ما يربو على خمسة آلاف حرب، كما تصحرت أراضٍ وتعرضت مدن للتدمير بعد احتراقها ودمّرت الجيوش ركائز حياة أعدائها، ولقد استرجع ضابط صف -ينحدر من مدينة هانوفر، شارك في نهاية القرن السابع عشر في اليونان في الحرب ضد الأتراك، بوصفه أحد مرتزقة جمهورية البندقية- ذكرى المشهد المرعب، الذي دار في ميدان القتال بعد وقوع الاعتداء بقوله:

"لم يكن هناك بين صفوف كل الأتراك، الباقين في الحملة ذاتها، من يرتدي ملابس، فقد قطع أعداؤهم رؤوس جميع الأتراك الباقين ومزّقوا أجسادهم وانتزعوا أحشاءهم، ولفوا أمعاءهم حول أيديهم وأقدامهم، كما بتروا أصابع أيديهم وأصابع أقدامهم وعاناتهم جميعًا، لم يتبقَ في جثمان أي منهم قيد أنملة من شحم أو لحم فقد تعرضوا جميعًا لتعذيب ساحق ودبغ أعداؤهم جلودهم وباعوها قطعة قطعة".[69]

كان السفر يعد -حتى منتصف القرن الثامن عشر- أمرًا خطيرًا، حيث لم تكن هناك قوات شرطة بإمكانها أن تكفل الأمان للمسافرين في جميع طرق السفر، فقد كان مجتمع ما قبل الحداثة مجتمعًا يشوبه انعدام الثقة، فلم يكن باستطاعة أحد أن يثق بأن شخصًا غريبًا عنه خارج نطاق عالمه الخاص الصغير، الذي يحيا فيه، لن يمارس تجاهه عنفًا، تشهد على ذلك القلاع المشيّدة والأسوار المحيطة بالمدن والأسلحة وطقوس النزاعات الثأرية، التي يُلَوّح البشر من خلالها باستعدادهم للدفاع عن أنفسهم في مواجهة بعضهم بعضًا، في عالم كهذا كان من الحكمة أن يتأهب الإنسان لمواجهة العنف، وألا يثق في الأغراب عنه، وألا يخضع سوى لمثل تلك القواعد الأخلاقية، التي تدمج أفراد الجماعة التي ينتمي إليها، وبعبارة أخرى: إن التزام الإنسان بالسلم كان يسري فقط في نطاق الجماعة التي ينتمي لها، بيد أنه لا يسري في التعامل مع الآخرين خارج نطاق تلك الجماعة.[70]

على الرغم من محاولة الدول في مطلع العصر الحديث أن تُحَجِّم العنف، بأن تستبدل قوات المرتزقة بجيوش نظامية تتألف من جنود يتقاضون أجرًا مقابل أداء خدمتهم، وأن تنشر مزيدًا من الأمان في الشوارع والأماكن العامة، وأن تبعث رجال شرطة وقضاة إلى الأقاليم، كي تنتزع عن

حكام الأقاليم سلطاتهم الاستثنائية، إلا أنها لم تضع بذلك نهاية للعنف، فبدلًا من إنهاء العنف أنتجت الدولة العنف؛ على يد محصّلي الضرائب وموظفي التجنيد، الذين أجبروا الفلاحين على الانضمام إلى الجيش وكذلك ضباط الشرطة والقضاة، الذين حاولوا فرض مطالبات الدولة المركزية ببسط نفوذها، كما أن إكراه المواطنين على اعتناق المذهب الديني، الذي يعتنقه حاكم الإقليم، الذي لم يعد ينبغي لأحد أن يعارضه بعد إقرار صلح أوجسبورج بين الطوائف الدينية عام 1555 ميلادية، كان منبعًا للعنف.

إن الوحش المتنامي في مطلع العصر الحديث تمثل في الدولة ذات التطلّعات، التي ولّدت العصيان، حيثما أرادت أن تفرض وجودها في مقابل الأعراف المعمول بها، لم يكن ذلك المأزق جليًا على هذا النحو مثلما كان في روسيا، حيث لم يكتفِ القيصر الروسي بطرس الأول بمحاولة حشد جميع موارد بلاده، من أجل تحديث الدولة والجيش، بل حاول –أيضًا- بسط سيطرته على الشعب، ولم يكن بمقدور القيصر الروسي أن يحشد موارد الدولة هكذا، دون أن يسيطر على الشعب، من الصعب بمكان أن تكون قد وقعَتْ في أي وقت ممارسات قمعية أكثر وحشية وقسوة من تلك الممارسات التي حدثت في ظل حكم بطرس الأول، الذي أراد ألا يصبح مجرد قيصر، وإنما –أيضًا- إمبراطورًا ورجلًا إصلاحيًا، لقد شن بطرس الأول حروب إبادة، حوّلت مدنًا تنعم بالرخاء إلى أنقاض، وعاقب النبلاء غير الموالين له واللصوص والفلاحين، الذين خرجوا عن طاعة سادتهم، بوحشية منقطعة النظير، وكان من شأن سياسة الحديد والنار، التي انتهجها بطرس الأول، أن تئد روح التمرد في مهدها وأن تحوّل الرعية إلى عبيد لأصحاب السلطة.[71]

لجأت الدول في مطلع العصر الحديث في كل البقاع إلى العنف الجسدي المفرط، سعيًا لفرض تطلعاتها لبسط نفوذها، لم ينبع هذا من قوة تلك الدول، بل من ضعفها، تولّد إفراط الدول في استخدام العنف من إدراكها أن تطلعاتها لا تتّسق مع إمكانياتها، وأينما تتحول الصراعات من أمر شخصي بين طرفين، إلى شأن يتعلق بطرف ثالث، فإن الآراء تتفق أنه لا يعد من الممكن التغلب عليها بالتنازع أو التفرق؛ فمن مصلحة الدول -في ظل جميع الظروف- أن تتعقب من يرتكب عنفًا غير مشروع، كما تريد الدول أن يعتري الخوف من لم يلجأ إلى العنف بعد، من التبعات، التي قد

يجلبها لنفسه، حال عصيانه للدولة، ولذلك كانت مرحلة بناء الدول في مطلع العصر الحديث تشهد ممارسة العنف بوحشية فجة.

كان هذا –أيضًا- السبب في إفراط أصحاب السلطة في فرض العقوبات على من يخترق القانون، فلم يكن لدى أصحاب السلطة سوى القليل من الوسائل، التي تمكّنهم من أن يفرضوا على رعيتهم الطاعة وأن يفرضوا السلام، فيما عدا قدرتهم على معاقبة مخترقي القانون بقسوة، لقد مثّل العنف -الذي مارسه أصحاب السلطة- الفزع الذي اعتراهم، بوصفه ردَّ فعل رمزيًا على مخالفة القواعد القانونية، حيث كانوا يطبقون العقوبة بوصفها انعكاسًا لِلفعْلة المرتكبة ويُظهِرون، ما قد يحدث، إذا اخترق البعض القواعد القانونية، إن مسرح الفزع ينقل رسائل تؤذي نفسها بنفسها، مفادها أن العنف المستخدم بوصفه عقابًا ينهش في جسد من يقترف جُرْمًا، وسيتذكر كل من قرأ كتاب "المراقبة والمعاقبة" لميشيل فوكو، ذلك المشهد المرعب، الذي استهل به فوكو كتابه، يصف ذلك المشهد الإعدام العلني لروبرت داميان، قاتل الملك لويس الخامس عشر في عام 1757 ميلادية، بأنه كان احتفالًا مصطبغًا بالتعذيب، الذي تم وفقًا لخطة عنف موضوعة بدقة، أحدث الجلّاد جروحًا غائرة في جسد المذنب مُستخدِمًا كمّاشة متوهجة، وصبّ في تلك الجروح رصاصًا مذابًا، ثم فسخ ساقيه وذراعيه عن جذعه وألقي بجسده المعذّب في النار، وأثناء ذلك الإجراء، الذي امتد لساعات، كان أحد رجال الدين يواسي المُحتضِر، وبدا جليًّا أن جميع من شهدوا ذلك الإجراء، لم يشعروا بأن به ما يخالف مقتضيات الإنسانية، فالجاني قتل الملك، والآن يخلّد أصحاب السلطة أنفسهم بتعذيب جسده، فهم يقتصون منه قصاصًا مرئيًا ومحسوسًا، حتى لا ينسى أحد، أنه ليس بإمكان أصحاب السلطة التهديد فقط بإيقاع عقوبات مروّعة، بل يستطيعون أيضًا تنفيذها.[72]

انطوت الحياة اليومية –أيضًا- على حدوث حالات عنف بين الأزواج، وبين الآباء والأبناء، وبين الفلاحين والخدم، وبين الضباط وجنود المشاة المرتزقة، كانت العائلات والقرى والكتائب العسكرية آنذاك بمثابة وحدات حققت الاكتفاء الذاتي، وبمثابة ممالك صغيرة، يفرض فيها أرباب الأسر والأسياد والضباط على رعيتهم أن يطيعوهم باستخدام العنف؛ لأنهم لم تتهيّأ لهم وسائل أخرى سوى العنف، ولأنهم ليس بمقدورهم الاحتكام إلى مرجعية، قد تستطيع تسوية صراعاتهم، في مجتمع كان الحضور الطاغي فيه للعنف الغاشم، الذي يمارسة الآباء وذوو الأملاك وحكام الأقاليم،

ومع ذلك ربما لم يكن ليجول بخاطر أحد أن يضع حقه في فرض العقاب وفي تأديب رعيته بالضرب موضع التساؤل.[73]

انخفض في القرن الثامن عشر عدد الصراعات المسلحة، على الأقل في أوربا، فقد أصبح شنّ الحروب مقيّدًا ببعض القواعد، وأممّت الدولة المنشآت العامة، واستطاع الحكام -حينئذ- أيضًا فرض الطاعة على رعيتهم، دون اللجوء إلى عقابهم، فقد تخلّى الحكام عن استخدام العنف الوحشي؛ لأن رعيتهم كانوا يؤدون من تلقاء أنفسهم، ما كان منتظرًا منهم، ومثّل ارتباط الرعيّة بالحاكم شرطًا لطاعتهم لهم عن طيب خاطر، فبمجرد أن تتقيّد قدرة من يخضعون للحاكم على الحركة، يمكن أن تترسخ فيهم سلطة الحاكم عن طريق الخوف والارتباط بالسلطة الحاكمة، وبذلك قلّ المجهود، الذي يجب أن يبذله الحاكم، من أجل التحكم في تصرفات رعيته، فلم يعد لزامًا عليه أن يظهر، ليشكّل تصرفات رعيته، وأصبح اللجوء إلى ارتكاب الأعمال الوحشية أمرًا مهجورًا، كما أصبح توليد الخوف أمرًا لا لزوم له، فلم تتمثّل السمات المشيرة إلى الدولة الحديثة في التعذيب والتشويه، بل في السجن والتأديب، يتضح القصاص في أحكام القضاء الحديثة في تناسب مستوى العقوبات، التي تفرضها المحكمة، مع قدر الجريمة المقترفة، وظل الوضع هكذا حتى يومنا هذا، لقد حلّت الدعاوى القضائية في ساحات المحاكم محل المبارزات والنزاعات، كما حلّت المناقشات محل تبادل اللكمات، لكن هل يعد تحجيم العنف –أيضًا- نتيجة لعملية مدنية وتحضر دامت وقتًا طويلًا؟ هذا كان رأي عالِم الاجتماع نوربرت إلياس Norbert Elias، الذي أراد من خلال كتابه "عن عملية المدنية والتحضر" الصادر عام1939 أن يسوق الدليل على أن العنف يزول، عندما تتلاشى الظروف المتسبّبة فيه.[74]

الرغبة والعنف

يتحدّث إلياس في كتابه عن تركيبة الانفعالات النفسية للإنسان الذي يتألّف من غرائز مختلفة، ومنها الجوع والعطش والرغبة الجنسية والرغبة العدوانية، ويرى إلياس أنه من الجلي أن البشر لا يسلكون- منذ القِدَم- سلوكًا على النحو، الذي قد نعتبره اليوم تعبيرًا عن التعامل المتحضر.

فلو كان بمقدور الإنسان في الوقت الحاضر أن يضع نفسه مكان إنسان ينتمي للعصور الوسطى، لما كان له أن يشعر سوى بالاشمئنزاز من غِلْظة عادات الناس آنذاك ومن وقاحتهم ومن القذارة المستشرية في كل مكان[75]، ويضيف إلياس أنه يبدو- من منظور الوقت الحاضر- أن الرغبة العدوانية قد انخفضت لدى الناس في بلاد الغرب، فبالمقارنة مع التعطش الجنوني للقتال الذي اعترى المحاربين الجرمان في فترة هجرة الشعوب، فحتى أمم العالم المتحّضر، والتي تشتهي شن الحروب، تُعد هادئة ومُسالِمة، فقد "خضعت الرغبة العدوانية للحصار والترويض من خلال عدد هائل من القواعد والمحاذير، التي أصبحت بمثابة مقتضيات حتمية ذاتية، وهكذا تحولّت تلك الرغبة وتهذّبت وتحضّرت، شأنها في ذلك شأن كل أشكال الرغبة الأخرى، ولم يعد يظهر سوى قليل من قوتها المباشرة وغير المنظّمة، إما في حلم يراودنا أو في أحداث تندلع على نحو منفرد، ونسجّلها بوصفها ظواهر مرضية».[76]

يجب إذن تصّور الناس في عصر الحداثة بوصفهم كائنات كبحت جماح غرائزها، ولم تعد تتذكر الشعور بالرغبة في ممارسة العنف، يرى إلياس أن الإنسان في العصور الوسطى لم يعرف شيئًا عن ذلك، فقد كانت حياته تنحصر في ممارسة السرقة والقتال والصيد، وكان ذوو النفوذ والأقوياء يعتبرون إصابة الآخرين بجروح وقتلهم من "مسبّبات السعادة في الحياة"[77]، كما كانت أناشيد الحروب والقصائد المنظومة في تلك الفترة تتغّنى بـ"شراسة الحس" وبالشعور بالسعادة من خوض المعارك وصيحات الألم المنبعثة من العدو، وللتدليل على ذلك استشهد إلياس بالجنس الأدبي "ملحمة البطولة"، كانت تلك الملاحم تمجّد الحروب والمحاربين، تمجّد الفرسان الذين يقوّضون حصون أعدائهم ويردمون الآبار ويُتلِفون كروم العنب ويبيدون الماشية ويقتلون البشر، كما لو أن ما يقترفونه أمرًا بديهيًا، آنذاك كان الفقراء والمنتمون للطبقة الدنيا في المجتمع الأكثر تعرضًا للقتل والتشويه؛ لأنهم لم يكونوا ذوي نفع يُذكر، ولأنه لم يكن من الممكن الحصول على فدية حال أخذهم رهائن، ولم يعتبر أحد إصابة الآخرين بجروح وقتلهم بُغية ممارسة العنف بمثابة الأمر المستنكر، ويضيف إلياس قائلًا إنه "لم تكن تلك الملاحم مجرد أغانٍ يتغنّى بها البعض، فقد تبوّأت تلك الملاحم مكانة مباشرة في الحياة الاجتماعية.»[78]

أقرّ إلياس أن أعمال عنف وحشية كهذه وقعت –أيضًا- في مراحل لاحقة من التطور التاريخي، ولم يختلف الأمر- حينئذ- سوى في دراية من ارتكبها، بأنه اقترف أمرًا محظورًا ومستنكرًا، فمن غير الممكن إذن -في عصر الحداثة- أن نعتبر ارتكاب المذابح سوى أمر يشذ عن القواعد والمعايير، بيد أن أعمال السرقة والسلب والقتل لم تكن -وفقًا لرأي إلياس- محظورة في العصور الوسطى، فقد كانت تمثّل إحدى صور التعامل في المجتمع، فآنذاك كان أحد النبلاء ليفقد سمعته وسلطته لو لم يكن قادرًا على قتل أعدائه، "كان الشعور بالسعادة لتعذيب أناس آخرين وقتلهم شعورًا غامرًا بالسعادة مباحًا في المجتمع". [79]

رأى إلياس –أيضًا- أن المحاربين لم يكونوا يصيبون الآخرين بجروح أو يقتلونهم لمجرد الرغبة في ذلك على الإطلاق، ولكن كانت هناك أسباب عمليّة لاستخدام العنف الوحشي، فما عسى المحاربون المنتصرون أن يفعلوا مع الأسرى بعد انقضاء المعركة؟ لقد مثّل كل من تبقى على قيد الحياة من الأسرى عبئًا ثقيلًا وخطرًا يهدد أمن المنتصرين، فاستبقاء الأسرى كان يستوجب تقديم الطعام لهم، كما أن إطلاق سراحهم كان بمثابة تعضيد لقوة العدو القتالية، ما قد يجعل الانتصار في المعركة يذهب سُدى، ولذلك كان المنتصرون في المعارك الحربية يقتلون خدم أعدائهم الخاسرين أو يشوّهونهم، حتى يصبحوا عديمي النفع، ولتحقيق مثل تلك الأغراض كانوا يخرّبون الحقول الزراعية والحدائق ويدمّرون الآبار والقلاع، فلا يمكن لأحد أن يبقي بمأمن من الثأر والانتقام، إلا بهدم ركائز حياة العدو، ولم يكن أحد يعرف، ما قد يقع في المستقبل، وهل قد يصبح من خسر المعركة اليوم منتصرًا غدًا؟ لم يكن هناك أمان في أي مكان، فقد كان من الممكن أن تنتهي حياة الإنسان سريعًا، إذا تغلب التهور على الحيطة، كان الناس آنذاك يعيشون من أجل اللحظة الآنية، وليس من أجل الغد المقبل، وكانوا يخشون ما قد يحدث دون حسبان، ويستخدمون العنف للتخلص مما يعتبرونه مصدرًا لخوفهم.[80]

كتب إلياس أن النخبة العلمانية في العصور الوسطى، كانت تتألف من طبقة المحاربين، الذين كانوا يحبون خوض المعارك دون سواها، كان الفرسان يحيون حياة المحاربين؛ فقد كانوا يشعرون بالإشباع عند خوض المعارك الحربية وعند التأهب للقتال، وفي فترات استراحتهم من خوض الحروب، كانوا يحاكونها بإجراء مبارزات بين الفرسان!، يسرد إلياس قصة حياة أحد الفرسان

الفرنسيين في عام 1465ميلادية، وينقل كلامه، الذي اكتسب مصداقية لدى إلياس، عندما يسمعه يصيح بقوله: "إن الحرب لا تمثّل له سوى السعادة والغبطة، فالحرب لا تقتصر على جلب الموت والدمار، وإنما تُوجِد النظام أيضًا في صفوف أولئك الذين يشنونها، فالاشتراك في القتل يعني أن يؤازر المحاربون بعضهم بعضًا وأن يجتازوا المخاطر معًا".

"إنها أحاسيس بسيطة وقوية تمامًا، تنبعث من حديثه، فالمحارب يمارس القتل ويهب نفسه تمامًا للقتال، يرى رفيقه يقاتل، فيقاتل في صفه، ينسى المحارب، أين هو، ينسى الموت ذاته، إنه لأمر جميل، أيمكن للمحارب أن يتمنى شيئًا أكثر من ذلك؟".[81]

لم يكن باستطاعة أحد سوى السادة النبلاء، أن يحشدوا الأتباع والخدم، الذين كانوا يرافقونهم في حملاتهم لجمع الغنائم وفي نزاعاتهم الثأرية، وكانوا يخوضون الحروب معهم، ولم تكن سُبل القوة هذه متاحة للفلاحين وسكان المدن، غير أنهم كانوا متورطين –أيضًا- في نزاعات ثأرية وحروب صغيرة، كانوا يخوضونها بعضهم ضد بعض بمساعدة أقاربهم وأصدقائهم، يقول إلياس إن العنف ساد آنذاك كل مكان، وأنه كان يمثل جزءًا من حياة الناس، شأنه في ذلك شأن الورَع، الذي كان يعين الناس على أن يضفوا منطقًا على حياتهم غير الآمنة، مثّل العنف والورع جزءًا من مجموعة الانفعالات النفسية ذاتها، كان الناس يخشون العنف، وكانوا يؤدون صلواتهم كي يتحقق لهم السلام النفسي، إلا أنهم لم ينجحوا في كبت غرائزهم والسيطرة على رغبتهم في ممارسة العنف.

"لقد سارت الغرائز والانفعالات -آنذاك- على نحو أكثر استقلالًا وبغتة وانكشافًا، عما وقع فيما بعد، ويبدو لنا نحن فقط أن القوة السافرة لذلك الورع تتناقض مع قوة تلك الرغبة العدوانية أو تلك الوحشية، حيث تدور كل الأمور لدينا على نحو أقل حدة وأكثر اعتدالًا وأكثر حسبانًا، فقد ترسخّت لدينا المحظورات المجتمعية في مجموعة الانفعالات النفسية ذاتها بصورة تفوق كونها مقتضيات حتمية ذاتية، فالدين والدراية بالقدرة الإلهية النافذة على العقاب وعلى الثواب لا يحدثان في حد ذاتهما –إطلاقًا- أثرًا "تحضرّيًا" أو خافضًا لحدة الانفعالات النفسية، فالعكس هو الصحيح، حيث تعّرضت الأديان، كُلّ على حدة، لعملية "مدنية وتحضر"، شأنها شأن المجتمع أو الطبقة الرائدة في المجتمع، ولأن الانفعالات تتجلّى هنا على نحو، لا يمكن أن نلحظه في نطاق حياتنا سوى في سلوكيات الأطفال، فإننا نسمي مظاهر تلك الانفعالات بـ"الطفولية» [82]، " يمكننا أن نتصور أن

الناس في العصور الوسطى كانوا مثل الأطفال، فقد كانوا يعجزون عن التخطيط لما هو آتٍ أو التصرف برؤية مستقبلية، وكانوا يعيشون فقط من أجل اللحظة الراهنة ومن أجل الشعور الجارف الطاغي، الذي يعتريهم، ومفاد الرسالة المستخلصة من ذلك ما يلي: "من استسلم للرغبة اللحظية، يعد غير صالح لإقرار السلم والتعاون".

لكن أنّى لنا أن نعرف، كيف رأى الناس في الماضي -حقًا- ممارسة العنف؟ وبم شعروا عندما كانوا يقتلون أناسًا آخرين؟ أو عندما كانوا يصابون بجروح؟ استند إلياس إلى رسومات من "كتابات بخط اليد من العصور الوسطى"، تصوّر الحياة من منظور أحد الفرسان في أواخر القرن الخامس عشر، وتعرض كيف رأى الناس آنذاك العالم؟.[83]

كان العصر الذهبي للفرسان قد ولّى بالفعل، عندما ظهرت تلك الكتب، إلا أن هذا بالضبط مثّل سبب الأهمية الخاصة، التي أولاها إلياس لتلك الكتب، حيث يرى إلياس أنه يمكن -من خلال اللوحات- التعرف على الحياة الجديدة وعلى عادات البلاط الملكي، غير أنه يمكن في تلك اللوحات –أيضًا- رؤية أمور غير معتادة وأمور مزعجة، كان من الجلّي أن الناس في القرن الخامس عشر اعتبروها أمورًا طبيعية وبديهية، تظهر في تلك اللوحات قرى صغيرة وحقول وأشجار ومروج، وفي بعض الأحيان أنهار وقلاع، غير أنها تفتقر إلى التوق إلى السكون والجمال، وإلى تجلّي الطبيعة بوصفها مشهدًا ريفيًا بسيطًا، كما صوّرها رسامو عصر الرومانسية، فلم تعد لوحات القرن الثامن عشر تنقل كل ما في الطبيعة كما هو، فقد صوّرت تلك اللوحات هضابًا، لكنها لم تصوّر المشانق والمجرمين، الذين كانوا يُعدَمون عن طريق ربطهم في عجلات، صوّرت تلك اللوحات حقولًا ومروجًا، لكنها لم تصوّر الفلاحين ذوي الثياب الرثّة وجيف الحيوانات، تظهر الطبيعة في اللوحات المرسومة من أواخر العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث بوصفها كواليس تدور فيها وقائع السعادة والبؤس، فتظهر فيها إعدامات وجثث مستلقية في ميادين القتال وتعذيب وموت، ليس كصرخة احتجاج، بل كحدث يتناغم بالطبع مع الطبيعة، حيث تعرض إحدى اللوحات مشاهد، يبدو أنها لا ترتبط بعضها ببعض بثمة رابط، حيث تُنتَزع أحشاء أحد الحيوانات، بينما يحرث الفلاحون أحد الحقول، ويقاد محكوم عليه بالإعدام إلى المشنقة وتستلقي جثة مجرم تم إعدامه على إحدى العجلات، وتطير فوق تلك الجثة الطيور في حركات دائرية، ويظهر في لوحة

أخرى، كيف يشيّد أناس منزلًا، بينما يراقبهم رجال من طبقة النبلاء، وفي مقدمة اللوحة يطعن ويضرب بعض الحرفيين بعضًا بشدة، كما يظهر في اللوحة صاحب إحدى القلاع وهو يعرض لزوجته ما يحدث بأريحية تامة، كما لو أنه أمر بديهي، أن يُشيّد البعض هنا منزلًا، بينما يتعرض شخص هناك للطعن.

تندمج كذلك –أيضًا- في الصور، التي تعرض المعارك والحملات الحربية، مشاهد القتل والتشويه والاغتصاب في الطبيعة على نحوٍ منافٍ للعاطفة، فتجمع تلك الصور بين الحياة والموت وبين السعادة والألم في أضيق نطاق، لماذا ينبغي ألا تعتبر الطبيعة –أيضًا- بمثابة كواليس للموت والخراب؟ لم تمثّل الطبيعة في عالم يسوده انعدام الأمان والعنف سوى أحد الموارد للإنسان، كما لم يكن أحد يشعر أنها مكان للاستجمام والجمال، لم تكن مثل تلك الرؤية للعالم ممكنة، إلا عندما اختفى العنف من الطبيعة ولم يعد يشكل تهديدًا، غير أن الإنسان في العصور الوسطى كان يشعر أن ما يشاهده في تلك اللوحات أمر طبيعي، فحرث الأرض والصلاة يندرجان ضمن الأعمال التي يؤديها الإنسان في الحياة اليومية، تمامًا مثلما يقع الإعدام والقتل في المعركة الحربية![84]

فسّر إلياس حدوث العنف في كل مكان تفسيرًا بسيطًا: "فأينما يقاتل نبلاء ضد نبلاء، وإقليم ضد إقليم، وقرية ضد قرية، ومدينة ضد مدينة، وحيثما تمّثل كل جماعة كيانًا ذا سيادة، يحكمه قانونه الخاص، ولا يوجد من يستطيع أن يلعب دور الوساطة بينهم، فإنه يكون من الحكمة، ألا نتوقع فقط وقوع العنف دائمًا، بل نتأهب ونستعد له أيضًا، لن يكون بمقدور الناس التخلي عن إصابة الآخرين بجروح وقتلهم، إلا عندما تتغلب قوة مركزية على كل سبل المقاومة وتكتسب تلك القوة المركزية الحق في احتكار ممارسة العنف بصورة مشروعة، وبمجرد أن يعي الناس، أنهم ليسوا بحاجة لممارسة العنف، من أجل حماية أنفسهم، فسوف يعتادون –أيضًا- على أن يصبحوا سلميين، لم يعد ممكنًا أن يفرغ الإنسان غرائزه على نحو عنيف سوى في مناطق الجيوب الداخلية للدول، وفي أوقات محددة، فحتى جيوش الدول القومية الحديثة، التي تخضع لنظام صارم والتي لم يعد جنودها يلتقون بعدوهم وجهًا لوجه، لم تعد تُمارِس العنف بلا ضابط ولا رابط، ففي تلك الجيوش يقع القتل أو الموت وفقًا للأوامر، لقد كُبِحَت جماح تلك الغريزة إلى حد بعيد، لدرجة أن العنف لم يعد رغبة محضة، بل أصبح ضرورة، يمكن للإنسان في الرياضة وحدها أن يعايش حقًا، ما يستعصي عليه

حتمًا في مكان آخر، ففي حلبة الملاكمة يتحكم الملاكم في تفريغ طاقته العدوانية، وتتحول الرغبة في ممارسة العنف إلى "رغبة مهذّبة في مشاهدته".[85]

إن الإلزام الذاتي يمنع الإنسان من فعل ما كان أسلافه يُقبِلون على فعله، فمن السمات المميزة للإنسان المتحضر بدرجة كبيرة، أنه يمتنع -انطلاقًا من إلزام ذاتي ذي تكوين اجتماعي- عن أن يتشبث بصورة عفوية، بما يشتهيه أو يحبه أو يكرهه، فيمكن للإنسان أن يشاهد ما يحدث، لكنه لم يعد مضطرًا إلى اللجوء إلى العنف، وبذلك يتبّدل العنف إلى تجربة بصرية، تنبثق منها مشاعر جيّاشة، لكنها لا تتسبب في ألم، يضيف إلياس أن سكان مدينة باريس في القرن السادس عشر كانوا يشعرون حقًا بالسعادة عند تعذيب القطط وحرقها على الملأ، وكذلك عندما يقطع الجلاد رؤوس بعض المجرمين أو يقطع أجسادهم إربًا إربًا، حلّ في عصرنا الحالي ما يجري في منافسات الملاكمة والمصارعة محل ذلك المشهد الاستعراضي المفزع، فعلى الرغم من أن منافسات الملاكمة والمصارعة تقتصر على محاكاة العنف المفرط، لكنها تسمح لنا بذلك أن نتخيله، "أصبح اليوم الكثير من الأمور التي كانت تثير الرغبة فيما سبق، ثقيلة على النفس"[86]، لا يريد الناس أن يروا الدم أو أن يشموا رائحته، فعلى الرغم من رغبة الناس في إشباع شهواتهم الخفية، لكنهم يودون تخيل العنف بوصفه مجرد حدث يقع بلا صوت ولا رائحة، لا تلقى الرغبة في ممارسة العنف قبولًا مجتمعيًا، ما يجعل مَنْ قد يستحسنها، مضطرًا إلى الإقلاع عنها، ومن لا ينجح في التحكم في ذاته، فإنه مهدد بالتعرض لعقوبات، عن هذا كتب بيتر سلوتردايك Peter Sloterdijk: «منذ ذلك الحين أصبح الغضب المشتعل بين المواطنين ضيفًا غير مُرَحّب بوجوده، إلا في ظل شروط صارمة، ولم يعد -بوصفه شعورًا جنونيًا ذا طراز قديم- متوائمًا على الإطلاق مع عالم تسوده المدنية".[87]

الإلزام الخارجي والإلزام الذاتي.. عملية المدنية والتحضر

كيف لنا مع ذلك أن نتصوّر عملية تحوّل الغرائز؟ كيف يتأتى أن يفضل الإنسان في الوقت الحاضر أن يجري حديثًا على أن يخوض معركة ويفضل عقوبة السجن على عقوبة الإعدام العلني؟ يقدم إلياس –أيضًا- إجابة بسيطة، ولكنها مبتكرة، على ذلك السؤال: لقد أدرك المحاربون من طبقة النبلاء -في وقت ما- أنهم لا يستطيعون باستخدام العنف أن يبلغوا ما يُمنّون أنفسهم به؛

فقد تعلّموا في بلاطات الدولة الناشئة في مطلع العصر الحديث كيفية التعامل بعضهم مع بعض؛ لأن استعمال الكلمة هناك كان ذا جدوى تفوق جدوى استخدام السيف، ويضيف إلياس أن اختفاء العنف الغاشم من حياة النخب الأوربية، لا يرجع إلى قرار حر أو إرادة محضة، بل إلى مصلحة شخصية، يتحدث إلياس عن "مقتضيات حتمية متشابكة"، حوّلت المحاربين من طبقة النبلاء إلى منافقين ومتآمرين؛ لأن البلاطات الملكية وبلاطات الأمراء لم تكن مجرد أماكن لإدارة الدولة مركزيًا، مُمَثّلَة للسلطة المطلقة، وإنما كانت –أيضًا- أماكن لخلق التواصل والترابط، وهكذا لم يكن باستطاعة أي من النبلاء ذوي المكانة العليا أن يبقي بمعزل عن البلاط[88]، وعلى الرغم من التحاق بعض النبلاء في القرنين السابع عشر والثامن عشر بالخدمة في جيوش الحاكم بوصفهم ضباطًا، لكنهم لم يمارسوا العنف إلا بتكليف من قيادتهم ومن أجل خدمة الدولة، التي احتكرت ممارسة كل مهام الحكم، لم يعد باستطاعة أولئك النبلاء التعيّش على شن الحروب والاقتصاد المعتمد على امتلاك الضيعات، فلم يعد مسموحًا لهم أن يشاركوا في النزاعات الثأرية أو أن يشنوا حملات السلب، غير أنهم كانوا يتمتعون في البلاط الملكي بهيبة اجتماعية وبأسباب النعيم والنفوذ، لذا كان عليهم أن يجدوا سبيلًا مستديمًا للدخول إلى البلاط الملكي، إن أردوا الحفاظ على نفوذهم، ففي البلاط الملكي كانوا لا يقابلون الحاكم وحده، بل يقابلون –أيضًا- موظفيه، الذين كانوا يفصلون في الطريقة التي ينبغي أن يلتقي بها القائد والنبلاء[89]، أنّى لمن يمارس العنف ويَخبُر التعامل بالسيف أن يلعب دورًا في مكان هكذا؟

يحتاج المسؤولون الذين ينبغي عليهم أداء مهام سيادية، إلى السلام، حيث يجب عليهم أن يحسنوا التعامل مع بعضهم بعضًا؛ لأن سلاسل الأفعال في مؤسسات الدولة يمكن أن تصبح طويلة وغير ظاهرة للعيان، ولا يمكن للأجهزة البيروقراطية أن تؤدي عملها دون أن تضمن تحقق توقعاتها، ودون أن تستطيع التنبؤ بالأفعال، ولذلك يجب على البشر أن يكبحوا جماح عدوانيتهم وأن يسيطروا على غرائزهم، فتشابك العلاقات بين البشر وتبعيتهم المتبادلة يولّدان إذن ثقافة التعامل المتحضر، لقد أصبح بمقدور الإنسان أن يبقى نبيلًا معتزًا بنفسه، وأن يكف عن خوض الحروب، أي أمر قد يكون أكثر جاذبية من ذلك؟ لقد تخلّى المحارب عن اللجوء إلى العنف الغاشم، وكوفئ على ذلك بقضاء حياة آمنة.

تحوّل البلاط الملكي إلى "مؤسسة لترويض النبلاء والمحافظة عليهم"،[90] فقد كان استخدام العنف في البلاط الملكي أمرًا محظورًا؛ لأن اللجوء إلى العنف لن يكون مفيدًا البتَّة، في بادئ الأمر ظل رجال الحاشية من النبلاء يشعرون بالألم؛ لأنه لم يكن مسموحًا لهم أن يفعلوا ما تهفو أنفسهم إليه، ولكن -مع مرور الوقت- تحوّل ذلك الإلزام الخارجي إلى إلزام ذاتي، يجب في البلاط الملكي أن يتملّق المحاربُ الملكَ للفوز بالحظوة لديه وأن يدبّر المكائد وأن يراقب -بدقة- ما يفعله رجال الحاشية المتنافسون، "إنهم يتطلّعون لشيم أخرى ويروّجون لها، شيم مغايرة للمعارك، التي يمكن حسمها باستخدام السلاح، فالتروي وبعد النظر عند احتساب الأمور وضبط النفس والتحكم الأدق في الانفعالات النفسية ومعرفة الناس والبيئة المحيطة بهم بأكملها، تعد شروطًا ضرورية لتحقيق كل نجاح اجتماعي"، [91] يتسم رجال الحاشية –أيضًا- بالعدوانية، حيث يشعرون بالرغبة في إصابة الآخرين بجروح وقتلهم، إلا أنهم يتورّعون عن ممارسة العنف؛ لأنهم يتنبّهون لما يقع، عندما يستسلمون لشهواتهم، حيث ينبذهم البلاط الملكي ويفقدون نفوذهم وامتيازاتهم، أي أن اتباع رغباتهم قد يعود عليهم بفائدة قليلة وبخسارة كبيرة، ولذا روّض رجال الحاشية أنفسهم وتصدّوا لميولهم، حتى وإن كانت عدوانيتهم موجهة ضد شخص، غير حاضر على الإطلاق.

لقد تصحّحت صورة الإنسان، فأصبحت أكثر غنى بدرجات ظلال متنوعة وتشكّلت نفسيًا، فتطورت لدى الإنسان "الأنا العليا"، التي تخبره، بما يُحظَر عليه فعله،[92] فما أن يُخضِع الإنسان مشاعره وغرائزه لسيطرته بصورة دائمة، فإنه يُخلّف وراءه ثقافة الشرف، التي كانت باعثًا على ممارسة العنف بلا ضابط ولا رابط، ويدخل لحيز ثقافة الكرامة، ربما يمكن القول أيضًا بأن التنوير لم يكن سببًا لعملية المدنية والتحضر، بل نتيجة منبثقة عنها، فلا بد في الأساس من إدراك المتاعب، التي يعاني منها أناس آخرون، قبل شعور الإنسان بها بوصفها متاعب، من تخلى عن الوحشية والعنف، لا يود رؤية أناس آخرين يُعدَمون أو يصابون بجروح، فالعنف يصبح غير محتمل، عندما يتغلب التعاطف مع الآخرين ومشاركتهم في مشاعرهم على العدوانية والرغبة.

يدرك الإنسان الآن أن ممارسة العنف الغاشم محظورة في ظل جميع الظروف، ما جعله يتخلّى عن اللجوء إلى العنف؛ لأن اتباع القوانين يُمَنّيه بجلب مزايا له، غير أن أولئك، الذين يصدرون الأوامر أيضًا، يجنون المكاسب من تخلي الآخرين عن ممارسة العنف، فالحاكم يوفر الوقت، فلا

يضطر على أي حال أن يصدر تعليمات وأن يراقب اتباع الناس لها، ولا يتوجب على الحاكم البتة أن يكون حاضرًا، ليضمن نفاذ إرادته، عن هذا يقول بوبيتس إن "السلوك القويم معروف للإنسان، فهو ينبثق عن الموقف الذي يدور فيه"،[93] وعملية تطويع الحضارة للعادات تجلب المزايا لكل من يخضع لها؛ لأنها تخلق شعورًا بالأمان، ينبثق عن حدوث التوقعات وتحقيق النظام، كما تمنح السلطة إمكانية الاستمرار، فلا يمكن لأي عمل من أعمال العنف أن يؤدي ما يستطيع التحضر أداءه.

يرى إلياس أن ثقافة البلاط الملكي في العصور الوسطى تعد باعثًا وسببًا لتحجيم الإنسان لذاته وهي –أيضًا- بداية تحقيق السلام بين الناس، كما أن المتاجرة في البضائع تندرج ضمن وسائل الترابط الاجتماعي بين الناس؛ حيث يزعم عالم النفس الأمريكي ستيفن بينكر، أن من ينتج إنتاجًا فائضًا ويستطيع أن يبيعه، ينخرط في علاقة من الأخذ والعطاء، ويضيف بينكر أن العوامل المحفّزة لممارسة العنف تعد قليلة، إذا توقف الأمر على الاستجابة لاحتياجات أناس آخرين ورغباتهم، من أجل إقامة علاقات تجارية معهم، ويرى بينكر أن المثقفين يعتادون ازدراء التجار، "إلا أن السوق الحر يعد في حقيقة الأمر بمثابة مكافأة لمن يشعرون بالتعاطف مع مشاعر الآخرين"،[94] فمن أجل أن يستفيد الناس من مزايا السوق الحر، عليهم أن يخططوا للمستقبل، ويحتاجون للشعور بالأمان، ويجب عليهم أن يضعوا أنفسهم موضع أناس آخرين، فيمكن القول باختصار: إنه يجب عليهم أن يتعلموا التحكم في انفعالاتهم النفسية، كي يجدوا لأنفسهم سبيلًا في مختلف السياقات الاجتماعية.

يحكي كل من بينكر وإلياس عن عملية المدنية والتحضر؛ لأنهما يريدان أن يُظهِرا أن العنف يختفي، عندما يوجِد الناسُ الشروطَ التي تسمح لهم بتدبّر أمورهم دون ارتكاب فظائع، ففي رأيهما لا تعد عملية المدنية والتحضر خطة قدرية، أو حيلة عقلانية؛ لأنها بلا بداية ولا نهاية، ولا تتبع هدفًا أو تخدم غرضًا، ولا يمكن لأحد أن يبتغيها، فعملية المدنية والتحضر ليست سوى نتيجة عفوية للارتباطات الإنسانية وتشابك العلاقات بين الناس، إن ذلك التشابك الجوهري في الخطط والتصرفات الفردية الإنسانية يمكن أن يؤدي إلى حدوث تحوّلات وتدبيرات، لم يخطط لها أو

يخلقها فرد بعينه، ينتج عنها (أي عن معطيات الاعتماد المتبادل بين الناس) نظام ذو طبيعة مميزة للغاية، نظام أكثر إلزامًا وقوة من إرادة الأفراد، الذين يشكّلون ذلك النظام، وعقلهم".[95]

عندما يحدث، ما شهدت بلاد الغرب بالفعل تمامه واكتماله، يصبح من الممكن إزاحة العنف من كل بقاع الأرض؛ لأن نموذج عملية المدنية والتحضر يعد نموذجًا عالميًا: فأولًا تنكّب النخب على تعلّم أن العنف لا يجلب نفعًا، وفيما بعد تتهذّب العادات في جميع طبقات المجتمع، حيث يمكن لأفراد تلك الطبقات –أيضًا- أن يدركوا أن التخلي عن ممارسة العنف أفضل سبيل يمكن أن يؤمن به الإنسان حياته، إذن يتحول الإلزام الخارجي- في وقتٍ ما- إلى إلزام ذاتي، فالبشر يتعاملون مع بعضهم بعضًا، على الرغم من أن كلًا منهم لا يعرف الآخر؛ لأنهم يتسمون بالانضباط ويملكون زمام أنفسهم وبالتالي لم يعودوا بحاجة إلى الشعور بالخوف من عنف الآخرين، وبإمكان البشر أن يتكيفوا على ثقافة التجاهل المهذّب دون أن يتعرضوا لمخاطر؛ لأنهم يعرفون أن الإلزام الذاتي قد تَمَكّن من جميع البشر وأنه يثنيهم عن فعل الشر، لقد انتهت عملية المدنية والتحضر، بدرء العنف، عن هذا كتب بينكر: "لم تتغلّب العملية التاريخية للمدنية والتحضر على العنف، لكنها دفعته باتجاه الأطُر الاقتصادية الاجتماعية للمجتمع".[96]

ويضيف بينكر إنه مع ذلك يمكن في أي وقت أن يرتد الناس إلى الهمجية، وبالتحديد إذا تغيّرت الشروط، التي يتلاقى في ظلها الناس مع بعضهم بعضًا، لقد أقرّ إلياس في وقت لاحق أن حكم النازيين كان عملية "لإزالة المدنية والتحضُّر"، بيد أنه لا يمكن سرد القصص، التي تحكي عن حدوث تطورات دون ذكر بدايتها ونهايتها ومجرى أحداثها، ومن يتحدث عن حدوث انتكاسة، يجب عليه أن يؤمن بالتقدم؛ لأن التقدم وحده يمكنه أن يفسر لنا، لماذا يمكن أن "يرتد" الناس إلى الفترة التي تسبق ما بلغوه؟ يسرد إلياس قصة نجاح بدأت في أواخر العصور الوسطى وتقودنا إلى الوقت الحاضر، ويردف قائلًا: "إنه ذلك النظام المتشابك، الذي يحدّد مسار التحوّل التاريخي، إنه ذلك النظام المتشابك، الذي ترتكز على أساسه عملية المدنية والتحضر"،[97] لم يكن بمقدور هيجل أن يقول قولًا أجمل من ذلك.

يجب دفع الثمن في سبيل تحقيق مثل هذه المكاسب، وقد وصف ميشيل فوكو تنظيم الذات والتحكم في النفس بتقنيات، تستولي على الجسد وتنتج القوة منه، حيث يرى فوكو أنه عندما اختفى التعذيب

والعقوبات الفظيعة من الواقع، لم يعد بإمكان السلطة أن تسجل وجودها وتظهره في جسد المذنبين، حيث يتوارى جسد المجرم في السجن، فيُحجَب عن أعين العامة، أي أن الأمر لم يعد يتعلق بارتكاب فظائع لتوصيل رسائل لأولئك، الذين يجب عليهم أن يشاهدوا، ما يحدث للمُدان بارتكاب إحدى الفِعْلات، كما أن شفرة المقصلة لا تلامس الجسد، إلا لكسورٍ من الثواني، ولذا لم يعد الجلاد بحاجة إلى ممارسة القهر على جسد المذنب، بل يكفي أن يشغل زرًا، كي يقتل أحد الأشخاص، "تقضي المقصلة على حياة المحكوم عليه بالإعدام دون أن تلامس جسده تقريبًا، شأنها في ذلك شأن السجن، الذي يسلب الحرية، أو الغرامة المالية، التي تنتقص من الممتلكات، لا ينبغي على المقصلة أن تُنْفِذ القانون على جسدٍ حي يشعر بالألم، بقدر ما ينبغي عليها بالأحرى أن تطبّقه على فاعلٍ قانوني، يتمتع بحقوق متعددة، من ضمنها الحق في الوجود، وهكذا يجب أن تكون المقصلة متجرّدة، شأنها في ذلك شأن القانون ذاته».[98]

عندما انتصرت القوى غير المرئية، ولّى عهد الفظائع المعروضة أمام أناس آخرين، فمن يملك القوة، يستطيع أن يستأصل "مسرحة المعاناة" من العقوبة، فهناك طرق منهجية أكثر فعالية لفرض الطاعة بالقوة،[99] يتحدث فوكو عن تقنيات مراقبة، يستخدمها الإنسان دون أن يلجأ إلى العنف، وتولّد قوة، لم يكن بإمكان أي حاكم من حكام العصور الوسطى أن يتخيلها قط: "إن وجود السجن في نسيج المجتمع يضمن حقًا أن يبقى جسد السجين مصانًا وأن يظل بصفةٍ دائمة تحت الملاحظة، يعد السجن بِناءً على خصائصه الداخلية الأداة العقابية الأكثر تناسبًا مع الاقتصاد الجديد للقوة.

(...) إن السلطة تنادي بتقنية، تحقق الترابط بين الإذعان، الذي يخلق الذاتية، وبين التشيؤ، الذي يصنع الموضوعية، إن السلطة تجلب أساليب جديدة للتشيؤ،(...) ويمثل ما يمكن إدراكه في الإنسان (الروح والفردية والوعي والضمير والسلوك) أثر موضوع ذلك الإدراك التحليلي وتلك السيطرة الملاحظة".[100]

هكذا يتحول الفرد -عن طريق الإلزام الخارجي والإلزام الذاتي- إلى موضع التحكم في السلطة، وإلى موضع لإحداث الانضباط وللترويض، فما اعتبره إلياس بمثابة مكسب، وتحرر للإنسان من الشعور بالاضطراب والخوف والعنف، كان في رأي فوكو انتصارًا بلا جدوى، حيث رأى فوكو أن التخلي عن العقوبات المروّعة لم يكن ممكنًا إلا بسبب تورّط الناس في علاقات قوى، لم يعد

بإمكانهم التخلص منها، وأيًّا كان تصوّر الإنسان عن عملية المدنية والتحضر، فإن العنف الغاشم اختفى -في كلا الرأيين المختلفين- من حياة الناس.

العنف لا يختفي

لقد أخبر المؤرخون قراءهم -قبل عقودٍ مضت- أنه لا يمكن إيقاف ما قدمته نظرية الحضارة من وعود، وتمسّك المؤرخون -في تلك الحالة أيضًا- باستخدام حق الفيتو في الامتناع عن ذكر مصادرهم، ففي رأي المؤرخين لا يمكن لأحد أن يتحدث عن عملية المدنية والتحضر، سوى مَنْ ترك علامات في "الصحارَى الثقافية"، التي خلّفها الناس وراءهم، وهم يشقّون طريقهم نحو التقدم، غير أن المؤرخين يرون أنه لا يمكن إيجاد مثل تلك الصحارى سوى في الشهادات الشخصية، التي يرويها النخب، والتي تضع ما هو قديم في مواجهة ما هو جديد، كي تنزع المصداقية عما هو قديم وتسلط ضوءًا جديدًا على الحاضر، ووفقًا لرأي المؤرخين فإن العنف لم يختفِ مطلقًا في العهد الحديث، فتعذيب روبرت داميان، الذي قتل الملك لويس الخامس عشر، عن طريق تفسيخ يديه ورجليه، لم يقع في العصور الوسطى، وإنما في منتصف القرن الثامن عشر، ولا جدال في أن أعمال الاعتداءات الوحشية المصاحبة للثورة الفرنسية كانت بمثابة "تنظير تربوي للرعب"، ويقول المؤرخون إنه حتى في القرن الثامن عشر شكّل العنف الحياة اليومية لمعظم الناس، إلا أن العنف لم يكن ذا حجم ضئيل ونطاق محدود في عصر الحداثة وحده، بل أيضًا في العصور الوسطى؛ لأن العنف لا يعد مجرد تعبير عن شعور جارف جامح، فالشعور الجارف لا يتناقض مع التفكير الخالي من العاطفة وكذلك لا تتناقض العدوانية مع الحيلة، كما أن أي فوران عاطفي لا يُعَبِّر بالضرورة عن انعدام النظام على نحو همجي، فمن الممكن أن يكون سلوك الشخص عنيفًا، إلا أنه يستطيع أن يقلع عن العنف في أي وقت، ويؤكد المؤرخ مارتن دينجس أن العنف لا يقع إلا في إطار مكاني ما وبغرض ودلالة ما، ولذلك فإنه لا يمكن كذلك الفصل بين الأثر، الذي يُحدثه العنف وبين الشروط المصاحبة له.[101]

كما أن الخبراء يتشككون في الدور التحضري للدولة، باعتباره شأنًا من شئون الماضي، ففي رأيهم لم تُجِد الدولة في مطلع العصر الحديث من العنف، بل وسعّت نطاقه، عن طريق ممارسة التعذيب والإعدامات العلنية وفرض العقوبات الرادعة، ولم تفرض الدولة في الواقع حقها في احتكار

ممارسة العنف في أي مكان قط، ولذا فقد تعاملت سُلطات الملاحقة الجنائية بأقصى درجات الوحشية مع مخترقي القانون، وطبقًا لرأي الخبراء فإنه لم يكن هناك ثمة وجود لسلطات الدولة في القرى الروسية حتى القرن الثامن عشر، وعندما كانت تطلعات الدولة لا تتواءم مع الواقع، فإن السُلطة كانت تعمد إلى استخدام العنف المفُرِط، لتفرض ما لم يحدث من تلقاء نفسه، فحتى ضم النُخَب إلى البلاط الملكي لم يكن على الإطلاق ضمانًا لوقف العنف، فالناس لم يتغلّبوا على الحرب والعنف مطلقًا، وإلا فكيف يتأتى إذن تفسير مقتل ملايين اليهود في القرن العشرين في أوربا، على الرغم من أن أولئك، الذين أصدروا أوامر القتل، كانوا "متحضرين"؟[102]

لكن هل قال إلياس حقًا إن عملية المدنية والتحضر اكتملت وانتهت في القرن الثامن عشر، وأن الدولة فرضت حقها في احتكار ممارسة العنف على نحو عقلاني وسلمي؟ لم يود إلياس في الواقع سوى البرهنة على أن علاقات الترابط الاقتصادي والاجتماعي بين الناس تكبح جماح مشاعرهم الجارفة وتهذّب عاداتهم، حيث ينخفض حجم العنف بقدر ما يعتمد الناس على بعضهم بعضًا وبقدر ما يضطرون إلى أن يتعاملوا مع بعضهم بعضًا في أضيق نطاق.

ما لا شك فيه أن هناك أعمال عنف وحشية قد وقعت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ومنها -على سبيل المثال- حركات تمرد على الحاكم أو قتل للطغاة، غير أن النخب لم تعد تشن حروبًا على بعضهم بعضًا، وحتى عندما كانوا يشنون حروبًا على آخرين، كان يضطرون إلى أن يبرروا ما يفعلونه لأنفسهم وللآخرين، أو أن يواصلوا حياتهم بضمير مُعَذّب، وبعبارات أخرى يمكننا أن نقول: لقد سمح رجال وحدات S.S النازية، المسئولون في مكتب الأمن الرئيسي للرايخ ووزراء هتلر بقتل اليهود، إلا أنهم لم يعودوا يمارسون القتل بأنفسهم، وأوهموا أنفسهم أنهم مكلّفون بالتصرف هكذا على سبيل الضرورة والحتمية، سهّلت مثل تلك التبريرات عليهم أن يصدروا الأوامر التي اضطر الجلادون إلى تنفيذها بأنفسهم، ومع ذلك كانوا يشعرون أن الأمر الصادر بإبادة أناس آخرين، يخالف المبادئ الأخلاقية، لم يكن من الممكن أداء ما كان يفعله معاونو هتلر، دون الشعور بالذنب، وليس بمشاعر السعادة والتفاني، كما كان يحدث في السابق، لقد ظل الجناة يبحثون عن سند أخلاقي، يشد من أزرهم ويسمح لهم –أيضًا- أن يفعلوا في الواقع ما لا يمكن تخيله، وعن هذا كتبت الفيلسوفة سوزان نيمان Susan Neiman تقول: "إن إدراك أن الأفعال

السيئة تشترط وجود نوايا خبيثة يتيح لأنظمة الحكم الشمولية أن يحملوا الناس على امتهان ضميرهم الأخلاقي، وإلا ربما كان لذلك الضمير الأخلاقي أن يفرض وجوده".[103]

يبعث هيملر بإعلانه أمام رجال وحداتS.S النازية، أن قتل النساء والأطفال يعد أمرًا وحشيًا، لكن لا محالة من وقوعه، على فهم أن البشر المتحضرين لا يقترفون أعمالًا وحشية، سوى تنفيذًا للأوامر الصادرة لهم، وليس لأنهم يبتهجون بذلك، فقد صرّح هيملر في الرابع من أكتوبر عام1943 ميلادية أمام قادة مجموعات وحدات S.S النازية المجتمعين في مبنى بلدية بوزنان قائلًا: "ينبغي أن نذكر فيما بيننا بكل صراحة أمرًا ما، لن نتحدث عنه على الملأ أبدًا، أعني إجلاء اليهود وإبادة الشعب اليهودي"، وبعد ذلك بيومين كرّر هيملر أمام نخبة الحزب، ما كان قد أخبر قادة وحدات S.S به، واستطرد قائلًا: "كان يجب اتخاذ القرار الصعب بمحو هذا الشعب من على سطح الأرض، مثّل هذا للمنظمة، التي اضطرت لتنفيذ ذلك التكليف، أصعب، ما شهدناه حتى الآن"، [104] لا حماس، لا تحفز، لا سادية، لم يتحدث هيملر سوى عن اضطراره لأداء الواجب رغم أنفه، غير أن نظرية الحضارة لم تورد ذكر الموظفين المشاركين في ارتكاب جرائم على نحو بيروقراطي؛ لأنهم لم يمارسوا العنف، بل أصدروا الأوامر بممارسته فقط، كان هاينريش هيملر رجلًا، قد يشعر بالإثقال من تلقي صفعة على وجهه، فلم يكن يطيق أن يكابد العنف، أو أن يرى دمًا يسيل، غير أن تلك الحقيقة كانت بلا قيمة، في سياق تنفيذ جرائم قتل جماعي بحق الملايين، حيث يمكن لمن لم يسبق له على الإطلاق ممارسة العنف، أن يقترف جرائم،[105] وفي هذا الصدد كتب بينكر: "لم تكمن فظائع فترة حكم النازية في تأجج النزاعات بين قادة الحروب، كما لم يكن المواطنون آنذاك يطعنون بعضهم بعضًا أثناء جلوسهم على مائدة الطعام؛ فبالأحرى اختلف تمامًا مقدار العنف وجوهره وأسبابه بصورة جليّة"، [106] كيف يتأتّى الاستهلال بنظرية الحضارة، التي تفسر سبب تمسك فرسان هتلر بالتعامل السلمي فيما بينهم، برغم أنها لا تقدم الإجابة عن سؤال: لماذا يتم التخطيط والتدبير للقتل الجماعي المنظّم، في مجتمع يبدو أنه متحضر؟!

هل كان الناس في العصور الوسطى يشعرون بمشاعر جياشة ولا يتقيدون بقيود أكثر من الناس في عصر الحداثة؟ وهل اقتصرت علاقة التشابك بين الناس وفرض النظام بينهم وترويض سلوكهم

على المجتمعات الحديثة؟ أجاب عالم الإثنولوجيا هانز- بيتر دورر إجابة واضحة على هذه الأسئلة؛ حيث رأى أن عملية المدنية والتحضر تعد أسطورة، فلا توجد ثمة صلة تربط بين تكثيف العلاقات الاقتصادية والتمركز السياسي وإضفاء النظام على الحياة اليومية، وطبقًا لرأي دورر، لم تمثّل بلاطات الحكام في نظام الحكم المطلق أول مكان يشهد تحول الإلزام الخارجي إلى إلزام ذاتي، فلطالما خضع الناس للمقتضيات الحتمية الاجتماعية؛ حتى حيثما فرض العنف سيطرته على الحياة، إذ "من غير الصائب بكل بساطة الاعتقاد بأن الأفراد في مجتمعات ما قبل العصر الحديث أو في المجتمعات "التقليدية"، وكذلك سكان القرى في العصور الوسطى أو الأفراد المنتمين لـ"المجتمعات القبلية" كانوا يتمتعون باستقلالٍ أكبر، وأنهم كانوا يحيون حياتهم بمعزل بعضهم عن بعض وفي ظل التزامات متبادلة، تقل، كما يمكن أن نقول، عن التزامات سكان المدن الكبرى بعضهم تجاه بعض في عصر الحداثة"،[107] فلم تكن السيطرة الاجتماعية وتنظيم الذات على نحو ضخم قط، مثلما كانت في مجتمعات التواجد في عصر ما قبل الحداثة، ويزداد الضغط الاجتماعي، كلما زاد شعور الإنسان بمناخ العداء في البيئة المحيطة به، فالفرسان، الذين لا يعرفون، فيمن يمكنهم أن يضعوا ثقتهم، والفلاحون المضطرون لتقبل تلف المحاصيل والكوارث الناجمة عن سوء الطقس والحروب، ولا حيلة لهم في ذلك، وكذلك من يصارعون فقط من أجل البقاء على قيد الحياة؛ لأنهم يعانون من الجوع أو مهددون بذلك، كل هؤلاء سيحبذون الأشكال المطلقة والمغلقة للنظام على النماذج المنفتحة والمتحررة للحكم، إذا انحصر اهتمامهم الوحيد في الشعور بالأمان [108]

إن من يحيد عن القواعد، التي ارتضتها جماعته لنفسها، يتعرض للعقاب، فالكل يعرف القواعد التي حددتها جماعته، لتنظيم أمور الزواج وأداء الصلاة ومنح الهدايا وخوض الحروب، وليس لأحد أن يسمح لنفسه بأن يرفض المشاركة في القتال أو في منح الهدايا أو أن يشير إلى انعدام جدوى الأخذ بالثأر الدموي، فقد كان لزامًا على المحاربين الضعفاء أيضًا أن يشاركوا في القتال، وعلى الفلاحين الفقراء أن يمنحوا غيرهم الهدايا، وعن هذا قال أحد أفراد قبيلة هنود اليانومامي، القاطن في منطقة الأمازون، لعالم أنثروبولوجيا: «نحن نعاني من خوض القتال، لم نعد نريد ممارسة القتل، إلا أن الآخرين يتسمون بالغدر، ولا يمكن أن نضع ثقتنا بهم"[109]، أي أن

المحارب لا يضطر لخوض القتال بدافع من المشاعر الجارفة والاندفاع، بل بدافع من فقدان الأمل وانعدام الثقة، ولو أتيحت له حرية الاختيار، ربما كان ليختار السلام.

حتى الفرسان كانوا يشعرون بالخوف ويعانون من الآلام ويخشون الموت، لكنهم كانوا يخرجون للقتال؛ لأن وضعهم فرض عليهم حمل السيف في وجه أعدائهم، كان الفرسان يقاتلون طبقًا للقواعد، وبحساب وانضباط، لا يمكن دونهما الفوز في أي قتال، ومن لا يستطع الفوز بالقتال، لن يشن كذلك الحرب.

لقد كتب الباحث الفرنسي في تاريخ القرون الوسطى جورج دوبي عن المذابح التي وقعت في فترة أوج العصور الوسطى قائلًا: «ليست الحرب بمباراة رياضية، إنها صفقة، لا يخاطر المقاتل بشيء في سبيل بلوغ المجد وحده، فكل مقاتل يحتاط من الإفراط في القتال، وإن ظفر بمغنمٍ جيد، لا يدور بباله سوى أمر واحد: أن يعود ثانيًة إلى منزله بأسرع ما يمكن"،[110] كما أن النزاعات الثأرية، التي اندلعت في العصور الوسطى لم تهدف إلى إبادة العدو، بل إلى إرغامه على إقامة السلام، يزعم جيرد ألتهوف Gerd Althoff الباحث في تاريخ القرون الوسطى أن النزاعات الثأرية في العصور الوسطى، كانت تتم وفقًا لطقوس ما، بحيث "يمكن للمقاتل أن يخوضها دون أن تؤدي إلى خطر جسيم على حياته".[111]

وفقًا لرأي عالم الإثنولوجيا جورج إلفيرت Georg Elwert فإن كثرة وقوع النزاعات الثأرية وحملات السلب والحروب ارتبطت في الماضي بكثافة السكان وبالمصالح الاستراتيجية والاقتصادية للمحاربين، حيث كان مالكو العبيد يفضلون إرهاب ضحاياهم عن طريق ممارسة العنف الرادع، فقد كان يعنيهم أن يستعبدوا أناسًا يتمتعون بالنشاط والحيوية، ويضيف إلفيرت أن العنف الجماعي لم ينجم قط عن فورة مشاعر، واستطرد: "إن العنف المستمر أو المتكرر يعد عملية اجتماعية، تشترط وجود معايير وعقوبات وأدوار وطرق للاتصال وتخطيط وحساب"، ويرى إلفيرت أن الناس، الذين يمارسون العنف بلا سيطرة، توافيهم المنية مبكرًا، وأن المحاربين ذوي الانفعالات المتقلبة سرعان ما يتعرضون للهزيمة والهلاك، ولذلك تلقّى المحاربون -الذين كانوا يريدون أن يخرجوا منتصرين من المعركة- نصائح بالاعتماد على التخطيط والتكتيك الحربي وبعدم الانسياق وراء مشاعرهم الجارفة.[112]

بيد أن إلياس نقل صورة كاريكاتورية لمحاربي العصور الوسطى، حيث صورهم بوصفهم لا ينقادون لمشاعرهم الجارفة ولا يمارسون العنف سوى عند تقديمهم لذواتهم، وكتب فالنتين جروبنر Valentin Groebner أن كل ما تنامى إلى مداركنا عن الفظاظة، التي اتسم بها الإنسان في العصور الوسطى، يقتصر على ما تنقله اللوحات، غير أنه تجب قراءتها، فقد تجنّى المؤرخون بادعائهم أن الإنسان في العصور الوسطى كان يفتقر إلى الشعور بالتعاطف مع مشاعر الآخرين، بينما رأى جروبنر أنه لا يمكن لأحد أن يصل إلى مثل ذلك الحكم، سوى من يخلط بين التصوير الأدائي للانفعالات والشعور الداخلي بها، وبين الدعاية للقتال ومشروعيته وحقيقته،[113] إن طرق طرح العنف تعد رسائل تخبرنا كيف ينبغي علينا رؤية العالم والأصدقاء والأعداء، إلا أن تلك الرسائل لا تخبرنا أبدًا كيف اقترف الناس العنف، وكيف كابدوه، وبِمَ شعروا آنذاك.

لم يمثل القتال على نحو متواصل قاعدة في أنظمة ما قبل الحداثة، بل كان استثناءً، فممارسة العنف المستمر يحتاج إلى مؤسسات، تُبقِي عليه لفترة أطول، فحتى في القرن السابع عشر أيضًا لم تشهد أوربا تأسيس أي بِنى تحتية أو بناء جيش أو نظام بيروقراطي، يمكنها من أن تنشر الحرب النظامية في كل الأرجاء على المدى الطويل، لقد تحوّل العنف إلى أمر واقع يدركه كل الأفراد، ليس بسبب استمراره أو شدته، بل لأنه لا يمكن التكهن بنتائجه، فلا أحد يعرف الشعور، الذي اعترى الناس، عندما شهدوا تنفيذ إعدامات بشعة، فقد كانت تلك الإعدامات تُنَفذ حتى منتصف القرن الثامن عشر على الملأ في كل بقاع أوربا، ويصف ريتشارد إيفانز Richard Evans الإعدامات بمشاهد استعراضية، تُستَخدم فقط لتخويف مشاهديها بغرض ردعهم وتلقينهم دروسًا؛ لأنها لم تكن تقدم تسلية للشعب أو تشبع الرغبة الغريزية في ارتكاب فظائع، بل كانت مشاهد مسرحية جادة، فمن جابه الاحتفال المصطبغ بالتعذيب، رأى كيف يتغلب الإنسان على الموت والفناء، وأدرك معنى التكفير عن الذنب ومعنى الصفح، كان القساوسة يرافقون المذنبين إلى مكان تنفيذ حكم الإعدام، حيث ينتزعون منهم الاعترافات ويحملون الصليب أمام أفواههم، لكي يقبلّونه، "إن تتابع إصدار الحكم وتنفيذ القصاص والشعور بالندم والخلاص من الذنب أعطى الجميع الأمل في أن يحيا أولئك، الذين أبعدهم الموت في النهاية عن الجماعة الإنسانية، حياة مستقبلية"، غير أن من ينبغي عليهم أن يتعايشوا يوميًا مع العنف، كانوا يستطيعون أن يشعروا بالتأثر؛ لأنهم أدركوا

فناءهم ونقاط ضعفهم، "لا يعني كون الموت أمرًا مألوفًا، ألا يكترث الإنسان به، وإلا لما كان لأحد أن يبذل جهدًا في أن يشهد تنفيذ أحد الإعدامات".[114]

الحضارة والحداثة

تبدو العقلانية والمسالمة أكثر سطوعًا، كلما زادت قتامة الألوان، التي يرسم بها المؤرخون صورة الحياة في الماضي: فبينما يبدو أن المشاعر الجارفة استنزفت الإنسان في الماضي، كما بدا ذلك الإنسان غير منضبط ومستسلمًا تمامًا لغرائزه، فإن الإنسان المعاصر يبدو منضبطًا ومستنيرًا ومشاركًا للآخرين في مشاعرهم ومالكًا لزمام نفسه وقادرًا على صد ميوله، لكن أليس العكس صحيحًا؟ عن هذا كتب دورر Duerr قائلًا: "إن العين القروية تعد أداة مراقبة أكثر اكتمالًا بكثير من [آلاف الأعين] في المجتمع الكبير، الذي يتسم بالمجهولية"،[115] حيث يرى الإنسان في القرية كل شيء على نحو منفرد، كذلك يرى جميع البشر الآخرين، الذين يعيشون معه في القرية، ما يراه الإنسان منفردًا، ولذلك لا يستطيع أحد أن يحيد عن القواعد، التي تسير الحياة في القرية وفقها، دون أن يلحظه أحد ودون أن يلقى عقابه، إن الضغط الناجم عن ذلك التطابق بين أفراد القرية كبير، ومن يخرج عن ذلك النطاق أو يعارضه، فإن عليه أن يكابد الإحساس بتحمل عواقب العصيان، إذن فالكل يعرف، متى وكيف يتحدث العنف، وكذلك في مرحلة ما قبل الحداثة كان الإلزام الذاتي يتسبب في إقدام الناس على فعل بعض الأمور والإحجام عن فعل أمور أخرى، ولا تختلف أي معايير مجتمعية كذلك عن معايير أولئك، الذين يعيشون في المجتمع، فالإنسان يشعر بالخجل، إدراكًا لخطأ ما ارتكبه، وليس خوفًا من تلقي العقاب.

لم تكن القرية وحدها، بل كان –أيضًا- بلاط الحكام المستبدين، بمثابة مجتمع التواجد، حيث يربط بلاط الحكام المستبدين الناس ارتباطًا وثيقًا بعضهم ببعض، ويرغمهم على أن يراقبوا بعضهم بعضًا وعلى أن يفعلوا ما يُنتَظر منهم، ولا تعد قواعد السلوك والشرف والكرامة أمورًا ذات أهمية تُذكر في رأي الموظف في عصر الحداثة، الذي يمثل جزءًا من سلسلة مجهولة من الأوامر، فمجموعة الانفعالات النفسية لها تتشكّل من الوظيفة والمهمة وليس من القصر والفندق، يرتبط الفرد في عصر الحداثة يوميًا بعلاقاتٍ بالكثير من الناس، غير أنه لا يعرف الكثير عنهم؛ لأنه لا يلتقي بهم سوى عند أداء وظائف وأدوار محددة، ولذلك كثيرًا ما تظل مخالفة أحد المعايير بلا

عواقب، "لا يفقد الشخص المعني بالأمر ماء وجهه، بل يخسر أحد وجوهه"،[116] كما لم يظهر الحضور الطاغي لسيطرة الدولة في الأساس إلا بعد أن فقدت الأشكال القديمة للسيطرة الاجتماعية تأثيرها، فكلما قلّ وضوح العالم وكلما أصبح المجتمع أكثر تعقيدًا، زادت الحاجة إلى مؤسسات، تحفظ التوازن بين القوى الاجتماعية؛ وتحمي الناس بعضهم من بعض.[117]

يستطيع الناس في مجتمع الحداثة أن يتحرروا من المقتضيات الحتمية الأخلاقية، ويمكنهم أن ينخرطوا في أداء أدوار مختلفة وأن يتوارى بعضهم عن أعين بعض، ويمكنهم أن يطلقوا العنان لمشاعرهم الجارفة في المواضع، التي لا يعرفهم فيها أحد، فالسمة المميزة للإنسان في عصر الحداثة تتمثل في "ازدواجية معاييره الأخلاقية"، ربما يمكن –أيضًا- القول إن الضغط الناجم عن التطابق بين البشر يقل، كُلَّما أصبحت العلاقات الاجتماعية أقل وضوحًا وبلا هوية محددة، حيث يمكن للإنسان مرارًا وتكرارًا أن يصبح إنسانًا آخر في ظل زحام المدن الكبرى، وتتاح لمن يمارس العنف في المدينة إمكانيات مختلفة، لا تتاح لمثله في القرى، فالإرهابيون يرتكبون اعتداءاتهم في المدن الكبرى، ويحتاج البلطجية ومثيرو الشغب إلى أجواء مشوّشة، لكي يفعلوا، ما تهفو أنفسهم له، لكن تُرى هل ينتابهم الشعور حقًا، أن السلطة تعبر من خلالهم نحو ما تريد، كما يقول فوكو؟ يبدو أن العكس هو الصحيح، فإذا كان الجميع يفعلون المنتظر منهم من تلقاء أنفسهم، لماذا إذن توجد هيئات رقابية في الدولة، تتمثل في الشرطة وأجهزة المخابرات؟ من الواضح أن الدولة لا تثق ثقة كبيرة في أن الإنسان سيُروّض نفسه بنفسه.

تستحوذ أسطورة عملية المدنية والتحضر على حديثنا عن العنف استحواذًا كبيرًا لدرجة أننا لا نزال نثق ثقة عمياء في الوعود الكبرى التي مَنَّى الناس أنفسهم بها في القرن التاسع عشر، نثق أن احتكار الدولة لممارسة العنف، لا يحمينا فقط بعضنا من بعض، بل يدرّبنا أيضًا، حتى نتفادى حدوث، ما يبدو أنه لا يزال يعد أمرًا عاديًا على الجانب الآخر من الحدود الأوربية، وفي هذا السياق كتب جروبنر يقول: إن الإنسان يحتاج إلى تكوين صورة "بوهيمية على نحو خاص" للعصور الوسطى، لكي لا يفقد التفاؤل،[118] غير أن كبح جماح الغرائز لا يتعلّق بتمركز السلطة السياسية وتهذيب العادات، بل بالإمكانيات المتاحة أمام الناس، لكي يقرروا تأييد أو رفض استخدام العنف، فعلى الرغم من أن احتكار الدولة لممارسة العنف يعد بمثابة تدبير وقائي، يحقق الحماية

المتبادلة للدولة والشعب، إلا أنه قد يصبح أيضًا منبعًا للعنف، إذا استغل الحكام المستبدون والديكتاتوريون سلطتهم، من أجل إشعال الحروب أو إفراز الإرهاب المُنَظَّم، ووفقًا لما كتبه عالِم الاجتماع البريطاني زيجمونت بومان Zygmunt Bauman فإن عملية المدنية والتحضر أزاحت العنف فقط ووضعت التحكم في أدوات العنف في أيدي حفنة قليلة من الناس، استطاع القليلون إذن أن يتصرفوا في مآل تلك الأدوات وكيف يتأتي استعمالها، "عندما تتمركز وسائل العنف وتخرج عن نطاق أي سيطرة، يمكن بلوغ أهداف لم تكن متوقعة دون اكتمال الوسائل التقنية، ومن المنظور التاريخي فإن عدد من تعرضوا للهلاك في القرنين الماضيين إثْر عملية العسكرة تلك، لم يسبق له مثيل".[119]

إن العنف لا يختفي؛ فهو حاضر دائمًا بوصفه تهديدًا مُضمرًا، ولا تتوقف القدرة التدميرية للعنف سوى على الظروف والطريقة، التي يُنَفّذ الإنسان في ظلها العنف ويوّجهه أو يحدد مقداره، فحتى التجارة والصناعات، التي تربط بين الناس بعضهم ببعض في علاقات سلمية، لا تعد ضمانًا يكفل لهم عدم تعرضهم للإصابة أو الموت، ويزعم بينكر، أن السوق الحرة بمثابة مكافأة لمن يشعر بالتعاطف مع مشاعر الآخرين، "فعندما يتبادل الناس فيما بينهم الخدمات والإنتاج الفائض عن حاجتهم، تزداد قيمة شركاء التجارة فجأة، كما لو أنهم قد ماتوا"، [120] إنها بلا شك فكرة جميلة، إلا أنها تخالف كل الخبرات المكتسبة في المعاملات التجارية، فلماذا ينبغي على التجّار إذن ألا يقتلوا منافسيهم، إن كانوا يحرزون بذلك نجاحًا؟ لماذا ينبغي عليهم أن يتخلّوا عن تحقيق مكاسب من عقد صفقة مع الموت، إذا كانت الحرب تتيح لهم إمكانية ذلك؟ ليست من مصلحة التجّار والمهرّبين، الذين يزودون المحاربين بالأسلحة، أن ينتهي العنف؛ لأنهم يجنون أرباحًا من استمراره، فعلى العكس من ذلك يعد هؤلاء التجار والمهربون منبعًا متفجّرًا للعنف، وكذلك يعتبر –أيضًا- من يضغطون على الآخرين للحصول على إتاوات وتجار السلاح والقوادّون بمثابة رجال أعمال، يعرضون بضائع ويبيعونها ويستخدمون العنف في الدفاع عن نشاطهم السوقي في مواجهة منافسيهم، لماذا ينبغي على هؤلاء أن يقلعوا عن ممارسة العنف، إن كان العنف يكفل لهم نجاحهم التجاري؟ لقد رأى بنيامين كونستان Benjamin Constant مؤسس الليبرالية في أوربا القارية تلك الحقيقة بالفعل في نهاية القرن الثامن عشر، حيث يمكن أن يكون للحرب والتجارة الهدف ذاته، المتمّثل في الحصول على ما يريد الإنسان امتلاكه، ومثّل نظام العبودية مُنتَجًا انتجته الرأسمالية،

التي سيطر عليها التجّار، الذين تمثّلت أيديولوجيتهم في السوق الحرة، والذين كانوا يعتبرون أنفسهم متحرري الفكر.[121]

يندرج ضمن أسطورة عملية المدنية والتحضر –أيضًا- التصور بأن الحروب التي نشبت في العصور الوسطى كانت همجية وجامحة وذات طراز قديم، بينما دارت الحروب في عصر الحداثة وفقًا لقواعد ومعايير، وفي حقيقة الأمر اتسمت الحروب في الماضي السحيق بالوحشية، إلا أنها لم تكن عشوائية، فكما نشبت حروب في العصر القديم وأسفرت عن الإبادة التامة للعدو، حيث لم يكن ينبغي أن تتاح للمهزومين فرصة أن يستعيدوا قواهم في مواجهة أعدائهم مرة أخرى، غير أنه كان من الممكن إنهاء حروب أخرى محدودة النطاق وغير ضخمة، بمجرد أن يقدم المغلوبون على أمرهم للمنتصرين رهائن ويدفعون لهم الفدية، كان يمكن –أيضًا- في الحروب والنزاعات المندلعة في العصور الوسطى أن يتصالح الأعداء المتقاتلون مرة أخرى، إذا استسلم المغلوب على أمره في الوقت المناسب، أو تخّلي عن حقوقه في الحكم أو قدم للمنتصر رهائن، ونظرًا لقلة عدد الرجال المنتمين لطبقة النبلاء كان هناك اتفاق ضمني، مفاده أن يترك المنتصرون المغلوبين على أمرهم على قيد الحياة بعد انقضاء المعركة، طالما كانوا يدينون بالديانة المسيحية وينتمون للطبقة الاجتماعية ذاتها، فكان الخدم وحدهم، دون أسيادهم، عُرضة للقتل، ولم يكن من مصلحة المنتصرين، الذين قد يصبحوا مهزومين غدًا، أن يبيدوا أيًا من النبلاء[122]، كتب يوهانس بوركهارت Johannes Burkhardt أن أيديولوجية تبجيل الحرب وتأليهها لم تنشأ إلا في القرن التاسع عشر، وأضاف أن الناس في مطلع العصر الحديث لم يعتبروا الحرب احتفالًا يسبب السعادة، وإنما شرًّا لا محالة من وقوعه.[123]

على الرغم من أن الحروب، التي نشبت في القرنين التاسع عشر والعشرين، دارت وفقًا لقواعد، كان من شأنها أن تحمي المدنيين وأسرى الحرب وأن تضع حدودًا لممارسة العنف، إلا أن الناس لم يبتدعوا هذه القواعد إلا لأن القدرة التدميرية للآلية العسكرية الحديثة لم يعد لها حدود، فقد أنفقت كل الدول القومية الأوربية الأموال على الجيوش، التي استطاعت أن تجلب الموت والخراب لأعداء تلك الدول، كما تولّدت الحرب ذات الطابع المتحضّر من توازن الفظائع التي ترتكبها أطرافها، حيث أدركت كل أطراف الحرب، أن تجاوز الحدود يمكن أن يؤدي إلى إبادتها.[124]

إلا أن من تجاسر على أن يجعل من إبادة العدو قاعدة الحرب، فإنه يخاطر بوجوده، مثلما حدث في الجبهة الشرقية أثناء الحرب العالمية الثانية، دائمًا ما كان الإغراء بتجاوز الحدود كبيرًا؛ لأن استخدام أسلحة الدمار جعل كل شيء محتمل الحدوث، أصبح من الممكن في الحرب الحديثة أن تنقلب مكتسبات الحضارة ضد الحضارة ذاتها؛ لأن الفئة القليلة، التي تصدر الأوامر للكثيرين بشنّ الحرب، لم تعد تمارس القتل بنفسها، واستطاعت أن تستند إلى "قوانين الحرب"، تحوّلت الهمجية إلى ضرورة، ولم يعد القتل بمثابة أمر محظور أخلاقيًا.

إن من يُدبّر الحروب ويشعل فتيلها ليسوا الجنود الذين يشنونها، وإنما ذوو النفوذ، فهم يرغمون مرؤوسيهم على ارتداء زي موحد وعلى قتل من أعلنوا الحرب عليهم، زادت قوة الطاقة التدميرية لأقصى درجاتها في يد الدولة الحديثة، فالأسلحة الآلية والدبابات وسلاح المدفعية وأسراب قاذفات القنابل والأسلحة الكيماوية تتسّبب في ارتفاع عدد القتلى آلاف المرات، كما يمكنها في ثوانٍ معدودة محو مدن من الوجود وإبادة فرق عسكرية بكامل أفرادها، فآلة الحرب الحديثة تتغلب في أسابيع قليلة، على ما كانت الجيوش في الماضي تحتاج إلى سنين للتغلب عليه، عن هذا كتب بوبيتس يقول: "من ضمن نتائج الذكاء الاصطناعي للإنسان أن تستطيع طريقة تصنيع الأسلحة أن تبرر وجود فروق هائلة في درجة القدرة على إحداث إصابات، ويمكن للأقليات أن تستفيد من تلك الفروق"[125].

يعد حق الدولة في احتكار ممارسة العنف بمثابة سلاح، يمكن أن يستعين به الديكتاتوريون والحكام المستبدون والطغاة ضد شعوبهم أيضًا، فالدولة الحديثة لا تملك فقط وسائل مراقبة مواطنيها، والتحكم في كل خطوة يخطونها، وإنما يمكن للدولة –أيضًا- أن تزج بالمواطنين في السجون أو تحبسهم في المعسكرات أو ترحّلهم قسريًا خارج البلاد أو تسمح بقتلهم،[126] لم يشعر هتلر بتأنيب الضمير، عندما سمح بإصابة المعاقين بالعقم أو بقتلهم أو بالتخلص من مناهضي نظام الحكم في معسكرات الاعتقال، كما سقط الملايين ضحايا لإرهاب ستالين، حيث تضوّروا جوعًا، وكان ستالين يرسلهم إلى سيبريا أو إلى آسيا الوسطى وتعرضت فئات منهم للقتل، على الرغم من أحدًا منهم لم يُبدِ أي مقاومة تُذكَر ضد نظام ستالين، تناسبت الإمكانيات التقنية مع نزوات الأنظمة الديكتاتورية الشمولية الجانحة لممارسة الإبادة، فلم تجلب تلك الأنظمة لمجتمعاتها السلام

والاستقرار، بل جلبت لها الموت والخراب، حيثما كانت تلك الأنظمة تُخلّف أرضًا محروقة وتتسبب في حروب أهلية ومذابح وعمليات اضطهاد، فإنها كانت تفقد السيطرة على مجريات الوضع.

استطاع الأوربيون -على كل حال- أن يفعلوا خارج أوربا، ما لم يعد متاحًا فعله في القارة العجوز، فلم تكن لتخطر ببال أي لواء، فكرة أنه يجب حماية المدنيين في أفريقيا –أيضًا- ومعاملة أسرى الحرب هناك وفقًا للقواعد المنصوص عليها في اتفاقية جنيف ولائحة لاهاي المتعلقة بقوانين الحرب البرية وأعرافها، كان الأعداء الأفارقة ضعفاء، ولم يكن بإمكانهم الدفاع عن أنفسهم أو الانتقام من الأوربيين، ولذلك كان من الممكن أن يتعرضوا للقتل وفقًا لرغبات أعدائهم، وكان الجنود الألمان "غير مُهذَبين» و"لا إنسانيين"، هذا هو ما تّذكره أحد سكان القرى الواقعة في توجو، حيث اضطر أن يعايش، كيف دمّرت قوات الاستعماريين بلده في العقد الأخير من القرن التاسع عشر".

فوفقًا لشهادته فإن المستعمرين الألمان "اختطفوا بنات أهل البلاد، واغتصبوا زوجاتهم، ومشّطوا القرى من أعلى إلى أسفل وسلبوها".[127]

لم ينعم المغلوبون على أمرهم بثمة عفو في الحروب الاستعمارية غير المتكافئة، التي نشبت في القرنين التاسع عشر والعشرين؛ لأن المنتصرين لم يعترفوا بهم بوصفهم مقاتلين أندادًا لهم، بل كانوا يحتقرونهم، فقد اقتصرت لائحة لاهاي المتعلقة بقوانين الحرب البرية وأعرافها على ذكر الصراعات الناشبة بين الأمم "المتحّضرة"، ولم تتطرق قوانينها إلى ذكر أي أمّة تعد "غير متحضرة"، [128] استطاع السادة البيض أن يحتقروا المغلوبين على أمرهم هكذا؛ لأنهم كانوا غير مضطرين إلى أن يضعوا في حسبانهم أن يتعرضوا للانتقام، فلم تشهد الحروب الاستعمارية توازنًا في ارتكاب الفظائع، حيث استطاع المنتصرون دائمًا أن يئدوا المقاومة في مهدها؛ بقتل المغلوبين على أمرهم وترحيلهم وسرقة مواردهم، دون أن ينظروا إلى النساء والأطفال بعين الاعتبار، أو يميّزوا بين المقاتلين والمدنيين، فأثناء حروب الاستقلال الكوبية، التي وقعت في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، خرّبت فرق الاستكشاف الإسبانية قرى وحقولًا، ودمّرت ركائز

حياة المتمّردين عليها، كما أخذوا رهائن ونفوا الفلاحين في قرى محُصّنة ومستوطنات بالمدن، حيث لا يستطيع الثوار الإفادة منهم ثانيًة. [129]

عندما أخضعت القوات الفرنسية الجزائر لسيطرتها في منتصف القرن التاسع عشر، أخمدت المقاومة بإرهاب الجزائريين بلا رحمة، حيث قطعوا رؤوس سكان القرى ودمّروا منازلهم، فأصبحت بعض المناطق خالية من السكان، بعد أن مرّ بها الفرنسيون، واعتبر ألكسيس دو توكفيل Alexis de Tocqueville العرب "أنصاف متوحشين"، دائمًا ما يعطون الأولوية "للشعور على التفكير"، ولذلك بدا لضباط جيش الاستعمار أنه لا يجب –أيضًا- معاملة العرب كما لو أنهم أناس متساوون معهم في الحقوق،[130] كما أدرك المغلوبون على أمرهم أنهم لن يفوزوا بشيء في تلك المعركة، سواء بقوا على قيد الحياة أو ماتوا، وأن أحدًا لن يُبقي عليهم، فكان ينبغي عليهم أن يستسلموا، وعندما هزم الإثيوبيون جيش الإيطاليين في عام 1895 هزيمة نَكْراء، لم يسمحوا لأحد منهم بالفرار، حيث أخصى الإثيوبيون أسراهم من الإيطاليين وقطعوا رؤوسهم وشوّهوا جثث أعدائهم الملقاة في ميدان القتال، وثأروا ثأرًا مريعًا من العساكر الإثيوبيين الذين قدموا يد العون للإيطاليين،[131] وهكذا ساد في كلا الجانبين قانون الانتقام، كان القتال ينتهي بمقتل المغلوبين على أمرهم أو بطردهم، فقد كان المهزومون ليرون سماحة المنتصر معهم بمثابة ضعف منه.

لم تَحُلْ أي تهيئة ديمقراطية أو أي تأهيل حضاري بين النخب في الدول القومية الأوربية وبين ممارسة القتل في مواطن، كانوا يعتبرونها غير متحضّرة، حيث نقلوا ممارسة العنف المحظور عليهم إلى المستعمرات، حيثما استطاعوا أن يفعلوا، ما عجزوا عن فعله في أوربا، دون أن يتلقوا ثمة عقاب، كان الفيلسوف الإسكتلندي ديفيد هيوم David Hume قد برّر ذلك في عام 1751 ميلادية تبريرًا، تمّكّن الحكام الاستعماريون في كل العصور والبقاع أن يستندوا إليه، فقد كتب هيوم أن من يأبى الالتزام بالقواعد، عليه ألا ينتظر قتالًا نزيهًا، "فلو تورّطت أي أمة متحضّرة في حرب مع همجيين، لا يعترفون بأي من قوانين الحرب، لكان لزامًا عليها –أيضًا- التوقف عن اتباع قوانين الحرب ذاتها؛ لأن قوانين الحرب تعد في هذه الحالة عديمة الجدوى، ولكان لزامًا على تلك الأمة أن تجعل كل قتال وكل صِدَام دمويين ومهلكين لمن يبدأ بالاعتداء عليها قدر الإمكان"[132]، وكانت "الوحشية" بمثابة إغراء بالتحرّر من كل العراقيل، التي تضع حدودًا

للحرب في أوربا، فقد مارس رجال متحضرون القتل والاغتصاب والسلب، وبدا أن أحدًا في أوربا لم يلحظ، ما وقع في إفريقيا، فقد كانت إفريقيا بعيدًة عن وطنهم، وفي الجانب الآخر من التصورات الأخلاقية البرجوازية بدت كل الأمور ممكنة، فكان يكفي، أن يبرر الناس لأنفسهم ما يحدث، بأن أعداءهم همجيون غير متحضرين، فتنقلب بذلك المذابح المرتكبة إلى حملات تهدف لإحلال السلام.[133]

لا يتمثل تاريخ العصر الحديث في تاريخ عملية المدنية والتحضر، وإنما يعد بالأحرى تاريخًا لتركز السلطة، غير أن ذلك التاريخ لا يفسر لنا أي شئ عن حدة العنف، فقد كتب دينيس جونسون Denis Johnson قائلًا: "يترنّح العنف ويتفتت، إلا أنه لا يزال قائمًا، إن الإنسانية مصابة بحالة هذيان جماعي، فنتخيل أن كوكب الأرض يضم أممًا متحدة ونعتقد اعتقادًا مضللًا كبيرًا بأن الدولة القومية لم تؤدِ وظيفتها بعد، إلا أنها ستؤديها ذات يوم، وبأن الحكومات، التي قتلت في المتوسط مليون مدني في كل عام من القرن العشرين، بدلًا من أن تحميهم وتقدم الخدمات لهم، كما كانت تدعّي أنها تعتزم ذلك، سوف تضع في وقت من الأوقات نهاية لحروبها".[134]

يصبح الثمن، الذي يجب سداده في مقابل إحداث التحضر، مستحق الدفع، عندما تداهم الحرب والعنف البشر، فهدف عملية المدنية والتحضر يكمن -كما كتب ريمستما- في: "تسهيل جعلنا جميعًا قابلين التعرض للصدمات النفسية"، [135] فالعنف لا يختفي، وإنما تتغير حدته وأشكاله، حيث قال عالم الاجتماع ماركوس شرور إن العنف "يغير وجهه ويتوارى وينزح إلى فضاءات مكانية، لم يخمن أحد حتى ذلك الوقت أن يقع فيها"، [136] فما يبدو اليوم أمرًا وديعًا ومسالمًا، قد يسفر غدًا عن وجهه القبيح والعنيف، ولم تمنع أي عملية مدنية وتحضر الناس عن قتل بعضهم بعضًا، فقرار الناس بممارسة العنف أو رفضه لا يتعّلق بالتحكم الدائم في الانفعالات النفسية أو بالتأهيل الداخلي للنفس، بل بالفضاءات المكانية والظروف، فالأمر لا يتعلّق دائمًا سوى ببعض المواقف وإمكانيات حدوثها.

إزالة الحُدود.. الحَداثة والعُنف

"لا أكاد أصدق أن هناك همجيين في القرن العشرين، يسلكون سلوك العصور الوسطى ويتخذون من إحدى بقاع أوربا مستقرًّا، يُعَشّشون فيه»، هذا ما كتبته نينا لوجوفسكايا Nina Lugowskaja ذات الستة عشر عامًا في دفتر يومياتها في ديسمبر 1935، وأضافت قائلة: «حيثما تتواكب تصورات وحشية عتيقة على نحو غريب هكذا مع العلم والفن والثقافة"[137]، كما أنه ليس بإمكاننا تصديق: أن المطربين الأوبراليين كانوا يصدحون في مسرح البولشوي متغنين بالحب والولع، وكان أعضاء هيئة التدريس في الجامعة يتحدثون عن أناس جدد وعن أفضل عالم على الإطلاق، بينما يتعرض بعض الناس، على بعد كيلو مترات قليلة للتعذيب في ساحة لوبيانكا، كيف تأتّى أن يتعرض ملايين الناس للقتل، بعد كل ما أنجزه التنوير والعقل الحكيم في أوربا؟ هل ذهب قرنان من التحضر والتنوير سُدَى؟ هل فقد الحكام صوابهم؟ أم أن العقل الحكيم استعان بحيلة ما، لبلوغ هدفه بطرق ملتوية؟ ترى نينا لوجوفسكايا أنه لم يكن هناك ثمة منطق للإرهاب الجماعي، الذي أشعله ستالين وأتباعه، فلماذا يجب أن يموت ناس؟ على الرغم من أنهم لم يبدوا أي مقاومة على الإطلاق وليس هناك قتال أو حرب؟ من الواضح أن ستالين وشركاءه لم يستطيعوا أن يقدموا أنفسهم لهؤلاء الناس إلا في صورة الهمجيين والوحوش، وليس بوصفهم ينفذون أمرًا ضروريًا على نحو خالٍ من العاطفة.

بعد ذلك -بعقود- تذكّرت روت كلوجر الفترة الزمنية، التي كانت قد قضتها في معسكرات الاعتقال تيريزن شتاد وأوشفيتس وجروس روزن، ألقت روت كلوجر Ruth Klüger –أيضًا- ببصرها نحو الهاوية، غير أنها لم تتعجب بما ألّم بها، فعلينا ألا نستسلم لأي أوهام تتعلّق بإمكانيات العنف، "فمن طبيعة القطط أن تخدش ومن طبيعة الكلاب أن تعض ومن طبيعة البشر أن يقتلوا"، هل يجب أن نعتبر الجرائم الوحشية المقترفة في القرن العشرين بوصفها ارتدادًا إلى الهمجية وإخفاقًا لعملية المدنية والتحضر؟ بدا لكلوجر أنه ليس هناك أمر أكثر انحرافًا من تفسير ذلك، فكثيرًا ما كان للناس

أن يعتبروا أن قتل أناس آخرين أمر ممكن الحدوث، سواء أكانوا يشعرون بالالتزام بالعلم أو بالقتال، "هل النازيون همج؟ يا له من سؤال مثير للضحك! لم يكن النازيون بدائيين قط، بل كانوا ملتزمين بالعلم".[138]

لم يختفِ العنف، وإنما أصبح بالأحرى بقوته المهلكة من السمات المشيرة إلى القرن العشرين، فلم يسبق أن تعرض ناس للقتل والتعذيب والطرد بسبب نزاعات حربية، مثلما كان الحال في القرن المنصرم، ولم يسبق أن استخدمت دول وسائل العنف، التي تتميز بامتلاكها، بمثل ذلك الضمير المنعدم وتلك اللامبالاة، فباسم البرامج الأيديولوجيّة وبتكليف منها، تعرض الملايين لإبادة مُنَظّمة وللإنهاك والترويض كي يؤدوا أعمال السُخرَة في المعسكرات، لم يكن مرتكبو جرائم الإبادة في العصور السالفة مجرمين مولعين بتلك الجرائم على الإطلاق، وإنما كانوا يرتكبونها بوصفهم يمثلون حق الدولة في احتكار ممارسة العنف، أي كانوا حُمَاةً للنظام، يبيدون البشر، ليس لأنهم يخوضون حربًا ضدهم أو لأنهم يخشونهم، بل لأنه كان من سلطتهم، أن يقتلوا أي شخص في أي مكان وفي أي زمان، دون أن يضطروا لرؤية الضحايا قبل قتلهم.

يعد احتكار الدولة لممارسة العنف بمثابة تدبير وقائي، يحمينا بعضنا من بعض ويحفظنا من أن نقع ضحايا لعنف شخصي، إلا أن ذلك الحق لا يحمينا من عنف أولئك، الذين يسيطرون على الأسلحة، فمن يضمن لنا، أن تستخدم الدولة وسائل القوة، التي تمتلكها في حفظ السلام فقط، وليس في نشر الإرهاب؟ من يريد تحجيم العنف، يجب أن يكون قادرًا على ممارسته، نقرأ لدى تروتس فون تروتا Trutz von Trotha ما يلي في هذا الصدد:

"الحد من العنف يعتبر حلقة مفرغة من العنف والعنف المضاد"، ففي كل مكان، يكسر فيه احتكار ممارسة العنف التوازن في ارتكاب الفظائع، يتوّعد ذوو النفوذ الخاضعين لهم لكي يطيعوهم، ولا يستطيع ذوو النفوذ أن يفرضوا على الخاضعين لهم الاعتراف بهم سوى بأن يسوقوا دليلًا دمويًا على تفوقهم، وقد يغفل الناس عن الإنصات لإحدى الحجج، لكنهم يقتنعون بالعنف؛ لأنه لا يحتاج لمترجم"[139]، لا يزال السؤال يطرح نفسه: كيف يتأتّى أن يكسر العنف في عصر الحداثة كل سدود الحماية المنيعة المشيّدة لصده؟ أي سبب يمكن أن يسوقه أحد للمجازفة بالسلام، الذي رأى الجميع أنه مكسب تحقّق لهم؟ لقد شعر من عاصروا العنف بالفعل بالدهشة من حدة عنف الدولة

المُنَظّم ومن قدرته الهدّامة وتساءلوا، لماذا قتلت السلطة البعض على نحو يبدو أنه لا سبب له ولا جدوى منه، بدلًا من حمايتهم من التعسف والاضطهاد، هل أخفقت آلية التحضر في حماية البشر؟ لقد كان هاينريش هيملر Heinrich Himmler وراينهارد هيدريش Reinhard Heydrich رجلين متحضرين، أجادا حبْك الدسائس، لكنهما لم يتقنا القتل، ومع ذلك لم يشعر هذان الرجلان -اللذان لم يكن بمقدورهما رؤية دمٍ يسيل- بالانزعاج من التسبب في موت ملايين البشر.[140]

هل ينبغي علينا أن نتصور مسرحيّ أحداث الإبادة "كوليما" و"أوشفيتس" بوصفهما مكانين، يقعان خارج نطاق المدنية والحضارة ويرمزان إلى الهمجية؟ ولماذا ينبغي ألا تحتفظ الهمجية بحقها ضد عملية المدنية والتحضر إلا في القرن العشرين وفي ألمانيا على وجه الخصوص؟ يقول المدافعون عن عملية المدنية والتحضر أن السبب في ذلك يرجع إلى أن المجتمعات، التي يدبّر الناس في وسطها القتل وينفذونه، قد حادت عن طريق المدنية والتحضر، ينبغي إذن أن نتصور ألمانيا بوصفها "أمة متأخرة"، وروسيا بوصفها إمبراطورية متعددة القوميات والأعراق "متخلفّة عن الركب"، وأن كلا البلدين لم ينضجا بعد لبلوغ ما كان ينبغي عليهما بلوغه، يعرب عالم الاجتماع هيلموت بلسنر Helmuth Plessner عن أسفه من ذلك بقوله إن ألمانيا "لم تشهد ثمة ترابط داخلي بين قوى التنوير وتشكيل الدولة القومية"، وأضاف أنه في ظل مثل تلك الظروف التاريخية تكوّنت الصفات المميزة "للألمان للأبد"، وبذلك استطاعت الكارثة أن تأخذ مسارها،[141] لكن إذا كان الألمان قد عانوا من حالات خلل ناتجة عن عملية التجديد، فمِمَّ عانى إذن كل أولئك الجناة والمتعاملين مع الأعداء، ممن لم ينحدروا من ألمانيا، وارتكبوا أمورًا مُرَوّعة كذلك؟[142] كيف يمكن أن نجد سياقًا للحروب الاستعمارية الدموية ولما تعرض له السكان الأصليون من الهنود من دمار وطرد من بلادهم؟ لماذا لم تضع الثورة الروسية نهاية لكافة أعمال العنف الوحشية، بل كانت بداية لها؟ نجد في كل مكان سُبُلًا استثنائية، ولا نجد في أي مكان السلام الأبدي!

الدولة بوصفها بستانيًّا

من الصعوبة بمكان أن نؤمن بأنه لا محيص من انتصار المسالمة، بعد كل ما وقع في القرن العشرين من أحداث، عن هذا كتب فولفجانج سوفسكي Wolfgang Sofsky يقول: "إن العراة ومن يعيشون في الأحراش ليسوا بمثل تلك الوحشية، التي تدعّيها نظرية الحضارة، والمتحضّرون

لا يتسمّون على الإطلاق بتلك الوداعة والرحمة، مثلما يودوا أن يروا أنفسهم"، وأضاف سوفسكي قائلًا: "إن العنف والفظائع يعدان من ثوابت تاريخ الحضارة، ويجب على كل مجتمع أن يحجمهما، بأن يضع المعايير ويفرض الرقابة"،[143] لكن هل يضمن وضع المعايير وفرض الرقابة أن يتحقق السلام؟ ألا يعتبران أيضًا سببًا في أن يكتسب العنف قوةً؟ ألم يتخطَّ العنف في عصر الحداثة بالأحرى كل الحدود؟ لقد كتب بومان أنه يجب علينا أن نتصوّر الهولوكست وأعمال الإبادة الوحشية، التي ارتكبها ستالين، بوصفها أحداثًا تمخّضت عنها الإمكانات المتاحة في عصر الحداثة، واستطرد بومان قائلًا: "لولا الحضارة ما أمكن تخيل الهولوكست"،[144] ولولا القوة الهدّامة للدولة الحديثة لبقيت أعمال الدمار الشامل الوحشية، التي ارتكبها هتلر وستالين ضربًا من الخيال، يعتقد بومان، أنه لم يكن من الممكن تسخير كل الموارد الفكرية والتقنية لخدمة الدمار الشامل، سوى في عصر الحداثة، كان ينبغي أن يصبح العالم أجمل، ولذا توجّبت إزالة كل صور القُبْح منه، لقد حوّلت الإمكانات التقنية للدولة الحديثة الخيالات -التي راودت البعض بممارسة النفوذ بلا حدود- إلى جرائم، فوفقًا لرأي بومان لم تساعد الهمجية غير المتحضّرة والمشاعر الجارفة في تولّد العنف الشمولي، بل أسهم في ذلك التفكير العقلاني المتجرّد من العاطفة والغضب المنبثق عن تحقيق النظام، واستطرد بومان قائلًا: "إن الهولوكست يعد ساكنًا شرعيًا في منزل الحضارة، ولا يمكن في حقيقة الأمر أن يمكث في منزل آخر".[145]

وفقًا لرأي بومان فإن النظام الإلهي قد تداعى، عندما اعتبر إنسان عصر التنوير نفسه خالقًا لذاته، فمن أدرك حرية الأفكار، يمكنه أن يستخدم عقله، دون أن يضع الآلهة في الاعتبار، فالله لا يظهر للعيان، وإنما يريد أن يدرك الإنسان وجوده، وهكذا يصبح العالم مكانًا يدركه الإنسان ويُشَكّله وينظمه، وينبغي على الإنسان أن يتصوّر العالم عصر الحداثة بوصفه عصرًا، وأن يدرك النظام بوصفه صيغة للحياة، وأن يعرف الإنسان أنه خالق العالم، ما يمكّنه من ربط التصورات والنُظُم في علاقة ما، يمكن للإنسان بوصفه سيدًا متحكمًا في مصيره أن يقرر بنفسه النظام، الذي يعتبره الأفضل على الإطلاق، كان العالم -فيما سبق- قائمًا فقط، لكنه لم يكن يعرف ثمة شيء عن نفسه، ولم يكن له ليتعّرف على نفسه على الإطلاق في أي من أوصافنا، لم يشهد ذلك "العالم الطائش اللا مبالِ" أمورًا تقع على سبيل الصدفة أو الضرورة، بل شهد تكرار الأمر ذاته على نحو سرمدي، إلا أن التنوير نقل المملكة السماوية إلى الحياة الدنيا، ومن أراد أن ينشئ تلك المملكة على سطح

الأرض، وجبت عليه إماطة العوائق، التي تعترض سبيله، تُعَدّ الحداثة بمثابة ساعة ميلاد الحرية، ولكنها تُعتبَر –أيضًا- بداية جميع لحظات الاغترار بالنفس، فما أن يدرك البشر أن بيئتهم المحيطة بهم لا تعدو عن كونها فوضى، ويشكّلونها، فإنهم لا يعتبرون أنفسهم فقط يملكون زمام مصيرهم، ولكنهم يعرفون –أيضًا- أن كل تخطيط حياتي يمكن تحقيقه، إذا أمكن تصوّره، وأضاف بومان أن إنسان العصور الوسطى لم يُمعن التفكير في ذلك الأمر على الإطلاق؛ لأنه بيئته المحيطة به لم تُمثَّل له مشكلة، يجب فهمها، "إن اكتشاف أن النظام ليس أمرًا فطريًا، كان بمثابة اكتشاف للنظام بوصفه نظامًا"، ولذا فإن القدرة على التمييز بين النظام والفوضى، تعد السمة المميزة للحداثة، "يعد النظام والفوضى بمثابة توأمين في عصر الحداثة، استقبلهما الناس في خِضَمِّ اللَّغط والانهيار، اللذين أصابا النظام الإلهي في العالم، الذي لم يشهد أمرًا يقع على سبيل الضرورة أو الصدفة". [146]

يخلق النظام الفوضى، حيث يتحتم على الإنسان أن يقرر، ما الذي يخرج عن نسق النظام، وعرف إنسان العصور الوسطى –أيضًا- وجود التباين، لكنه لم ينتبه إلى أن وجود الفرسان والشحاذين والجلادين والعاهرات يعد بمثابة مشكلة، فكل إنسان كان يتبوأ المكانة التي حددّها له النظام الإلهي، ولكن إذا كان تغيير الحياة أمرًا واردًا، فلماذا لا ينبغي لجميع البشر أن يعيشوا في أفضل العوالم؟ يرى بومان أن تناقض عصر التنوير يكمن في ذلك: فالتنوير يُمَنّي بتحقيق السعادة للبشر ويولّد التناقض الذي تجب إزالته، فسعيًا وراء بلوغ اليقين والوضوح الجليّ تحوّل ما كان يعتبره الناس في ما مضي أمرًا عاديًا إلى تهديد، حيث يرى بومان أن مشروع الحداثة يتمثل في إرساء الوضوح الجليّ والتغلّب على التناقض، ففي كل مكان، يستسلم الناس فيه للنُظُم، التي يريدون أن يحيوا في ظلها، ويجب عليهم أن يحددوا لأناس آخرين أسماءً وأدوارًا ووظائف، وأن يقرروا ما ينتسب إلى عالمهم وما لا ينتسب إليه.

يمثل اكتشاف النظام ساعة ميلاد التخلّف، فحتى الدين ذاته يجب عليه أن يتحمل المسؤولية أمام محكمة العقل، وإذا لم يكن من الممكن التوفيق بين الإيمان المطلق بالقدر الإلهي، وبين الإدراك المنبثق عن العقل، فإن المؤمنين يتحولون إلى جهلة، تجب هدايتهم، وبناء على ذلك فإن كل فعل ناتج عن وضع نظام يعد أحد أعمال العنف، يُقترف بحق العالم، فذلك الفعل إما أنه يعزل الأمور

المقيتة أو أنه يجبرها على أن تتوافق مع النظام، ويعني التصنيف أن: "يكتسب العالم بنِيَّة، بأن نؤثر في احتمالياته وأن نجعل بعض الأحداث أكثر احتمالية من أحداث أخرى، وأن نتصرف، كما لو أن الأحداث لم تقع صدفة أو أن نقلل من وقوع الأحداث عن طريق الصدفة أو نستبعدها"، [147] يمكننا في عالم يسوده النظام أن نتنبأ، كيف تواصل الأمور سيرها، ففي هذا العالم يمثل كل أمر يقع عن طريق الصدفة وكل أمر مقيت وكل ما لا يمكن تقديره، تهديدًا يجب درؤه، غير أن هذا العالم دومًا ما يولّد هكذا ذلك التناقض، الذي يسعى إلى تجاوزه، ربما يمكن القول أيضًا، إن الفوضى تنمو بوجود مهام، وضعها حُمَاة النظام. [148]

يصمم الإنسان لنفسه عالمه، ويجب عليه أن يقرر، من ينتسب إلى هذا العالم ومن لا ينتسب إليه، ولذلك فإن اكتشاف النظام يعد أصل نشأة التناقض، كما تعد محاربة التناقض بمثابة بداية العنف الإقصائي، "تعتبر الممارسة النمطية الحديثة للنظام وجوهر السياسة الحديثة والتفكير الحديث والحياة الحديثة بمثابة مجهود مبذول لمحو التناقض: مجهود لوضع تعريفات دقيقة ولكبت أو إزالة كل ما لا توجد إمكانية أو رغبة لتعريفه بدقة، لا تتجه الممارسة العملية الحديثة للنظام نحو غزو أراضٍ غريبة، بل نحو مِلء الأماكن الشاغرة في خريطة العالم الكاملة، فالممارسة العملية الحديثة للنظام وليست الطبيعة، التي لا تتحمّل حقًا وجود ثمة فراغ، " لا تنبع البذور، التي تُنبِت التعصّب، من النظم الإلهية، بل من تقرير الناس لمصيرهم ومن الحرية، فإن الممارسة العملية لوضع نظام تعد عملية لا نهائية، فلو كان من الممكن أن نضع نظامًا نهائيًا للأبد، لاضطر الإنسان إلى التوقف عن اعتبار بيئته المحيطة به بمثابة مشكلة ومهمة، تقع على عاتقه ولاضطر إلى العودة إلى بدايات نشأة الكون وإلى اختلاق الفوضى، حتى لا يعرّض كيانه للخطر، إن كل نظام بحاجة لفوضى، يمكنه أن يثبت صلاحيته من خلالها، كما أن تلك الممارسة لا تكتسب منطقًا في رأي الإنسان في عصر الحداثة، سوى بوصفها مهمة، لن يتم أداؤها قط.

لا يعرف الإنسان في عصر الحداثة أنه لن يُشبِع توقه إلى تحقيق الوضوح الجليّ، ولا يعرف أن النظام يولّد التناقض، كتب ألبير كاموAlbert Camus : "إن العالم، الذي يمكن للإنسان أن يفسره، حتى بأسباب سيئة، يعد عالمًا مألوفًا، إلا أن الإنسان يشعر بأنه غريب، في كون، تجرّد من الخيالات والوضوح"،[149] لا يستطيع الإنسان في عصر الحداثة أن يتصّور سيزيف إنسانًا

سعيدًا، ولذلك لا يتوقف عن الحلم بنهاية القصة، وباكتمال تحقق الجنة على سطح الأرض، وهنا يظهر العنف، فكلما زادت الفوضى التي تنتجها الممارسة العملية لوضع النظام، زاد حجم الغضب التدميري لدى أولئك الذين لا يطيقون التناقض، ويزعم بومان أنه يجب إدراك الجرائم الكبرى المرتكبة في القرن العشرين بوصفها محاولات لخلق نظم نهائية للأبد، عن طريق الرفض الاجتماعي الشديد للناس وإقصائهم وإبادتهم.

يقترح بومان أنه ينبغي علينا تخيُّل الدولة في عصر الحداثة بوصفها بستانيًّا وبوصفها أداة محققة للنظام، تستخدمها أيديولوجية التنوير، التي لا تتقبّل انعدام الوضوح، فالبستانيون يخلقون النظام والجمال، وكلما زاد النظام الذي يخلقونه، زادت الأعشاب الضارة التي يجمعونها، ومنها الانشقاق عن النظام والهرطقة والشعور بالغربة، فتتخلص دولة البستاني -في مقلب القمامة- مما لا يتوافق معها، ولم يبلغ الغضب المنبثق عن تحقيق النظام ذروته إلا عندما امتلكت الدولة الإمكانات التقنية التي مكنّتها من استئصال تلك الأعشاب الضارة من كل أركان الحديقة، والادعاء بأن حكم النازيين كان ارتدادًا إلى الهمجية أبعد ما يكون عن الحقيقة، ففي ظل حكمهم كانت ألمانيا بلدًا متحضرة وعلى قدرٍ عالٍ من التطور التقني، ولم يتوقع أحد آنذاك، أن هذا البلد سيجلب الموت والخراب إلى أرجاء أوربا، فقد كانت دول جوار ألمانيا تنظر لها بعين الإعجاب، بسبب كفاءتها والنظام السائد فيها، وكونها دولة تنعم بسيادة القانون وكذلك بسبب إنجازاتها الاجتماعية، لم تكن الدولة الألمانية أداة للتدمير عديم الجدوى، بل كانت جهازًا للعقل التشريعي، تمثّلت مهمته في السيطرة على المجتمع وتشكيله وفي التغلب على الفوضى.

أينما يوجد نظام، يجب التمييز بين أولئك الذين يجلبون نفعًا، وأولئك الذين لا مكان لهم في خطة بناء العقل الرشيد، لم يجد وهم ما يمكن فعله من ينفذونه حقًا سوى في الدولة الحديثة، فلم يفطن موظفو الدولة الحديثة فقط إلى ما يجب تنظيمه، وإنما توافرت لهم الوسائل التقنية، للفصل بين الأمور المجدية والأمور عديمة الجدوى، ولفرض كل الإجراءات، التي تنتج عن مثل تلك التمييزات، يزعم بومان، أن أعمال الاعتداءات الوحشية الأكثر تطرفًا، التي نجمت عن مثل تلك "التقنية الاجتماعية"، لا تعد بسبب ذلك حالات اشتعال للهمجية، "كانت أعمال الاعتداءات الوحشية أبناءً شرعيين للروح الحديثة ولتلك النزعة لدعم عملية تقدم الإنسانية والتعجيل بها، حتى تبلغ حد

الكمال،[150] وتمتعت روح الحداثة بالتفاؤل، ولم يمر مهندسو المجتمع بأي مشكلة اجتماعية، لا يمكن حلها بصورة نهائية بالتخطيط العقلاني. [151]

خاض التكنوقراطيون في كل الدول الأوربية، تجربة اللجوء إلى بعض الإجراءات؛ لاستبعاد الخارجين عن نسق المجتمع والمرضى من مجتمعاتهم ولترحيل الأقليات، لم يكن إبعاد الأقليات في الإمبراطوريات متعددة القوميات والأعراق (أي في روسيا وفي الإمبراطورية النمساوية المجرية والإمبراطورية العثمانية) مفيدًا لرغبات الناس الملحة على الإطلاق، فقد كان التخطيط لذلك الإبعاد تخطيطًا بيروقراطيًا بعيدًا عن الواقع، نفّذه ممثلو الدولة[152]، عندما بدأ الشيوعيون والنازيون في إبعاد الناس من بلادهم وفي قتلهم على نطاق واسع، فإنهم لم ينفذوا على كل حال سوى فكرة، كانت مطروحة بالفعل في العالم، فوفقًا لرأي بومان يجب على الإنسان أن يتخيّل تجارب الأنظمة الديكتاتورية الشمولية، بوصفها اكتمالًا للفكر الحديث للنظام وليس بوصفها خرقًا للتقاليد، "لم تمثل حادثتا الإبادة الجماعية الأسوأ سمعة والأكثر تطرفًا خيانة لروح الحداثة أو حيدًا عن المسار المستقيم لعملية المدنية والتحضر، وإنما كانتا تعبيرًا متَّسقًا مع تلك الروح ولا يمكن إيقافه".[153]

كانت دولة البستاني بمثابة التربة، التي امتصت أفكار اليوتوبيا، فقد حققت، ما ابتدعه القوميون والعنصريون والشيوعيون، فكانت كل الأمور ممكنة التصور والإدراك، وكانت كل الأمور ممكنة الحدوث، حيث أمكن التخلص من المجرمين والخارجين عن نسق المجتمع والمرضى، وترويض من يجلبون نفعًا للمجتمع، واستئصال الأعشاب الضارة والفيروسات والنفايات من المجتمع، يمكن للإنسان أن يكون عدوًّا لعقوبة الإعدام ومدافعًا في الوقت ذاته عن حق ممارسة القتل الرحيم، كما يمكن للإنسان أن يكون مناصرًا شديد التحمس للمساواة الاجتماعية وفي الوقت ذاته مُبَرّرًا للقتل الطبقي، فقد كتب جوتس إلى أنه لم يعد باستطاعة التنوير أن يحتفظ بحقه في رفض ممارسة القتل الرحيم في الرايخ الثالث، فقد توجّب أن يستند الاعتراض بدلًا من ذلك إلى خلق الله، ومن ذلك المنظور كانت العنصرية والشيوعية ضربين مختلفين للمشروع ذاته: حيث تمّثل ذلك المشروع في وضع نظام العالم وتخليصه من أعدائه، ويعتقد بومان أن الشعور الجارف غير الخاضع لثمة سيطرة والرغبة في القتل، لم يمثلا الدافع لممارسة القتل الجماعي المُنظّم، بل تمثّل الدافع في الحسابات الخالية من العاطفة وفي التخطيط، ولذلك يرى بومان أن الهولوكست لم يكن "فعلًا واقعًا

خارج نطاق العقل تمامًا"، بل كان "تدريبًا خاليًا من العاطفة على ممارسة التقنية الاجتماعية"، [154] لقد أصبحت لغة الطب في كل بقاع أوربا لغة التقنيين الاجتماعيين السياسيين، الذين تعاملوا مع المجتمعات كأنها أجساد بشرية، وقدموا وعودًا باستئصال الفيروسات والقُرَح منها، إن ما اخترعه العلماء في القرن التاسع عشر وما اختبره الضباط والموظفون الاستعماريون، قاد الأنظمة الديكتاتورية الشمولية في القرن العشرين نحو النهاية.[155]

لم يدع النازيون -منذ بادئ الأمر- مجالًا للشك في أنهم سيسمحون بارتكاب أفعال إجرامية في أعقاب الوعد، الذي قدموه بتخليص جسد الأمة من أمراضه، بدأت تلك الأفعال الإجرامية بإصابة المعاقين جسديًا وذهنيًا بالعقم وقتلهم في مطلع العام 1940، حيث تخلّص النازيون منهم؛ لأنه لم يكن لهم مكان في ظل النظام الجديد، لقد سحب النازيون كل صمامات الأمان وفتحوا الهواويس، التي يمكن أن يتدفق منها العنف، فمع اقتراف أول جريمة قتل أصبح الجناة –أيضًا- على وعي بأنهم لا يستطيعون فقط أن يفعلوا ما عزموا العقد على فعله، بل أنه يجوز لهم –أيضًا- فعل ذلك، وقد كتب هنري فريدلاندر Henry Friedlander، أن نجاح سياسة القتل الرحيم أقنع القيادة النازية بأن القتل الجماعي ممكن الحدوث من الناحية التقنية وبأنه قابل للتنفيذ من الناحية الأخلاقية، كما جعلت تلك السياسة القيادة النازية على وعي بأن البيروقراطية ومعاونيها كانوا على استعداد لأن يشتركوا في قتل مئات الآلاف [156]، إذا كانت هناك إمكانية للتخلص من المعاقين، كما لو أنهم أعشاب ضارة، فلماذا لا ينبغي إذن أن تتاح –أيضًا- إمكانية تشريد شعوب ما وإبادة "أعراق ما"؟ يزعم بومان أنه "لولا مشروع النازية بتطهير ألمانيا عِرْقيًا لما وقعت إبادة جماعية، وعلى نحو مماثل لما كان لمثل ذلك المشروع أن يوجد لولا العلم والتقنية اللذين جعلا منه مشروعًا قابلًا للتصور ويحظى بالاحترام، إن جاز قول ذلك".[157]

تعرضّ في الاتحاد السوفيتي –أيضًا- من لم يتوافقوا مع نظام الحكام البلشفيين، إلى الرفض الاجتماعي الشديد وللإبادة، حيث اعتبر لينين الاشتراكية مشروعًا لتأسيس نظامٍ يتعيّن عليه أن يجلب أوربا إلى روسيا، كان ينبغي -طبقًا للنظام الاشتراكي- محو كل أثر لأرض الفلاحين والأيقونات وإذابة كل الفوارق بين الطبقات والشعوب ومحوها، فلا يمكن أن يتاح مكان لذلك كله في النظام الجديد، طالب لينين في صيف عام1917 بتنظيم اقتصاد روسيا وفقًا لنموذج البريد

وبتحويل روسيا بأكملها إلى مكتب تابع لبروسيا، ولم تشهد أي بقعة في العالم تناقضًا بين التطلعات الناتجة عن إغواء النظام الشمولي وإمكانياته أكبر من التناقض، الذي شهده الاتحاد السوفيتي، فقد بدأ جنرالات القيصر الروسي إبّان الحرب العالمية الأولى بالفعل في محاربة أعدائهم في داخل روسيا، مستخدمين في ذلك الإرهاب المُنّظّم، بيد أن البلشفيين كانوا يمتلكون الوسائل والرغبة، لفرض منهاجهم في النظام، في مواجهة كل سُبُل المقاومة، استخدم البلشفيون –أيضًا- لغة الطب الحديث، كي يوضحوا تصورهم عن حل المشكلات الاجتماعية، حيث توجّب إخراج الجرذان والأفاعي والآفات من مخابئهم وإبادتهم، وتخليص المجتمع من الفيروسات والجراثيم عن طريق اللجوء إلى الوقاية منها وإلى الإرهاب،[158] ولذلك تفاخر المُحَدِثّون بأنفسهم بوصفهم يقومون بأعمال تدميرية، فخرّبوا بلدهم وقتلوا الملايين، كي يكسروا المقاومة ويحلّوا الجديد محل القديم، وصف جيرد كونين الطريق الذي سلكه السوفيت لتحقيق الوقاية الاجتماعية بـ"يوتوبيا التطهير"، وتوجّب دفع ثمن باهظ في مقابل محاولة تحقيق تلك اليوتوبيا: فقدّم الحكام ملايين البشر قرابين على مذبح التقنية الاجتماعية، بدون أن يعوا أن عدد أعدائهم يتنامى طرديًا مع مهام النظام، والتي اعتزموا إنجازها.[159]

لم تتمخّض الحداثة فقط عن فكرة الإنسان عديم النفع، بل كانت أيضًا ساعة ميلاد الجناة متجمدي المشاعر، والذين مارسوا القتل دون شعور بالذنب؛ لأنهم استطاعوا تبرير إبادة عديمي النفع، أمام من لم يمارسوا العنف، بوصفه أمرًا حتميًا، لم يود أولئك أن يكونوا منتقمين ومحاربين، بل ودّوا أن يكونوا مهندسي النظام، والذين يحيطون علمًا بالمخاطر ويدرؤونها، طلبت طبيبة لم تعد تطيق ما كان يحدث في معسكر أوشفيتس النازي، من أحد زملائها الأطباء -كان ينتقي السجناء المرضى في أوشفيتس ويرسلهم إلى غرف الإعدام بالغاز- أن يدلي بشهادته بهذا الصدد، فقد أرادت تلك الطبيبة أن تعرف من زميلها الطبيب، كيف استطاع أن يُحدِث توافقًا بين تلك الممارسات اللاإنسانية وبين قسم أبوقراط الأخلاقي، الذي أقسمه قبل ممارسة مهنة الطب، وأجابها الطبيب بقوله إن اليهود "يعدون الزائدة الدودية الملتهبة في جسد أوربا، وأنه يستأصل تلك الزائدة الدودية "احترامًا للجسد البشري"[160]، كان آنذاك بإمكان كل طبيب، يمارس القتل -بدلًا من علاج المرضى- أن يريح ضميره؛ لأنه كان يرى نفسه متوافقًا مع النسق الأخلاقي لنظام الحكم، وما عليه سوى نسيان أن القتلى كانوا بشرًا.

وفي سبيل تهيئة الأجواء للقتلة كان الضحايا يتعرضون للإهانة لتجريدهم من إنسانيتهم، فمن الضحايا من كان مضطرًا إلى قضاء حاجته على الملأ؛ حيث كان ممنوعًا من الحقوق، التي يتمتع بها المدنيون، ومن الضحايا من كانوا يقتاتون على بقايا الطعام، شأنهم في ذلك شأن الحيوانات، فيفقدون حياءهم وإنسانيتهم، يتذكر بريمو ليفي Primo Levi، الذي نجا من الموت في معسكر الإبادة أوشفيتس، كيف كان النازيون يُخرجون السجناء من القطار عند وقوفه في محطة محورية أثناء نقلهم إلى أوشفيتس، كي يقضوا حاجتهم على مرأى من الجميع، ويضيف ليفي أن رجال وحدات الحماية النازية S.S، وكذلك –أيضًا- المدنيين الذين كانوا يقفون على أرصفة المحطة، أخذوا ينظرون إليه وإلى أمثاله من السجناء آنذاك بازدراء واشمئزاز.

يستحق مثل هؤلاء الناس مصيرهم، الذي لاقوه، ما علينا سوى مشاهدة ما يجري لهم، إنهم ليسوا ببشر، بل حيوانات، إنهم خنازير قذرة، إنه لأمر واضح -وضوح الشمس-[161] مَنْ يتحول إلى حشرة ضارة، تُسَلب كرامته، وتنحط قيمته ليتحول إلى شيء، وينتقل على هذا النحو إلى مسافة، يتوقف فيها أي شعور بمشاركة الآخرين مشاعرهم، فلم يعد قتل الضحية يستلزم أي تبرير، حيث أعلن الجناة أن ضحاياهم في مكانة دون البشر، فاستطاعوا أن ينظروا إلى أنفسهم باعتبارهم أناسًا يتمتعون بصفات أخلاقية، وباعتبارهم جرّاحين، يستأصلون القُرَح من المجتمعات المريضة، أي أنهم ينجزون عملًا دمويًا، لكنه عمل مفيد، فاستطاع الجناة أن يعتبروا أنفسهم فاعلي خير، يُسْدون خدمة لعملية التقدم، ومنذ ذلك الحين نشأت في العالم فكرة، أنه يمكن للإنسان أن يرتب حياة البشر ويُعِدّها ويدمّرها وفق رغباته، وصاحبها –أيضًا- ظهور الإغراء، باستخدام العنف لفرض ما لا يحدث من تلقاء نفسه، [162] فلن يُوفّى الوضوح الجلّي حقه، إلا بدفع ثمن يتمثّل في الإبادة الجسدية؛ لأن التناقض لا يختفي، إلا بوفاة الناس الذين يعبّرون عنه، فصحيح أن سعي الناس في عصر الحداثة وراء بلوغ الوضوح الجليّ -أي الهاجس الذي راودهم- لخلق نظام، لم ينص على تنفيذ القتل الجماعي المنظم، إلا أنه اعتبره إمكانية قائمة بصفة عامة.[163]

الذات والآخر.. يوتوبيا التطهير

لماذا لم يحق للآخرين أن يواصلوا حياتهم؟ لماذا توجّب أن يتعرض مَن لم يتوافقوا مع الآخرين، للإبادة الجسدية؟ لطالما أعرب المؤرخون عن دهشتهم من أن تقتل أنظمة الحكم الشمولية أناسًا، لم

يستطيعوا أو يريدوا إبداء ثمة مقاومة لها، كتب بومان قائلًا: "إن المدافعين عن الوضوح الجليّ، لا يعبؤون بهذا الأمر مطلقًا، لم يمثّل الأشخاص الغرباء المعارضة، فالمعارضة يمكن أن يدركها الناس وأن يضعوا تعريفًا لها ويتنبؤوا بتأثيراتها، كما يمكن أن تكون المعارضة جزءًا من نظام يشمل الأصدقاء والأعداء، كان الغرباء على الأرجح أولئك، الذين لم يعرف الناس عنهم شيئًا، فلا يعرفون من كانوا؟ وماذا أرادوا؟ ولمن انتسبوا؟ كان الغرباء يقطنون في مكان خارج النظام المكتمل، الذي عكف المهندسون المعماريون -للوضوح الجلّيّ- على تشييده، ولذلك كان تواجد الغرباء يمثل استفزازًا، كان يلزم التخلص منه نهائيًا، إنهم يجلبون ما هو خارج النظام إلى داخله ويسمّمون الجوانب المريحة في النظام عن طريق إثارة الشبهة ضد الفوضى، هذا بالضبط، ما يفعله الغرباء".[164]

دائمًا ما كان التأكيد بأن ما تريده الأغلبية، لا بدَّ وأن يكون أمرًا صحيحًا، مبررًا لممارسة التدمير في عصر الحداثة، تحدث عالم الاجتماع الأمريكي مايكل مان Michael Mann عن "الجوانب المظلمة للديمقراطية"، ففي كل مكان تحوّلت فيه سيادة الشعب إلى مقياس أداء الفعل السياسي، كان من الممكن فرض رأي الأغلبية في مواجهة كل صور المقاومة له، وأضاف مايكل مان أن هناك من تعرّضوا في الأنظمة الديمقراطية –أيضًا- للرفض الاجتماعي الشديد، وللإقصاء والترحيل القسري، فلم يكن ينبغي أن يشكلوا جزءًا من الأمة، فما علينا سوى أن نفكر في ما تعرض له المكسيكيون والسكان الأصليون من الهنود والعبيد سابقًا في الولايات المتحدة الأمريكية من تفرقة عنصرية، وكذلك في المواجهات الدموية، التي وقعت في سبيل ترسيم حدود الدول القومية في أوربا في القرن المنصرم وفي سبيل تحديد إمكاناتها، وأن نفكر كذلك في الحروب الاستعمارية التي شنَّتها القوى الديمقراطية العظمى، واستندت الأنظمة الديكتاتورية الحديثة –أيضًا- إلى فكرة سيادة الشعب وإلى أغلبية أولئك، الذين تظاهرت بأنها تتحدث باسمهم، فلم يكن ترحيل أعداء الطبقة العاملة والأقليات العِرْقية في الاتحاد السوفيتي قسريًا، وقتل اليهود في أوربا النازية ممكنًا، إلا لأنها اشترطت تصور وجود جسد شعبي، لا ينبغي أن يكون فيه ثمة مكان للأقليات.[165]

طالب القوميون -في كل مكان تطابق فيه مفهوم الشعب ومفهوم العِرْق- بضرورة أن تكون الأمة متجانسة عِرْقيًا، فلم يستطع القوميون في وسط أوربا وشرقها تصور الأمم سوى بوصفها مشاريع

إقصائية، كما كوّن الحكام في الاتحاد السوفيتي –أيضًا- تصورًا عن من يحق له تمثيل الشعب ومن لا يحق له ذلك، لكن ما مصير كل أولئك، الذين لم يستطيعوا أن يكونوا جزءًا من شعب الدولة؛ لأنهم كانوا ينتسبون إما لأمة أو لطبقة على عداء مع ذلك الشعب؟ لم يشهد النظام الطبقي في عصر ما قبل الحداثة يوتوبيا التطهير، حيث كان كل فرد يتبوأ مكانته الخاصة في ذلك النظام، ولم يرد السؤال عن ماهية الشعب وأين تكمن إرادته وكيف يتكوّن سوى من خلال طرح فكرة سيادة الشعب،[166] ويبدو أنه لا يمكن تجنّب الطريق المؤدي إلى العنف، إذا كان من الضروري أن تثبت تلك الفكرة، التي تنص على حقيقة التغاير العِرْقي صحتها، فعندما يُبقِي ممثلو الأغلبية على جميع وسائل القوة في أيديهم، يتزايد الخطر، بأنهم سوف يستخدمونها ضد الأقلية.

لم يمثل احتضار الإمبراطوريات متعددة القوميات والأعراق بداية عهد طيب جديد، وإنما كان مستهلًا للتطهير العِرْقي؛ لأنه تمخّض عن تلك الفوضى، التي كان القوميون يخشون وقوعها، وفقدت الأقليات أوطانها بنهاية عصر الإمبراطوريات، فأصبحوا غرباء في بلادهم وأصبحوا يمثّلون تهديدًا للدولة القومية المتجانسة عِرْقيًا، كتب المؤرخ البريطاني توني جدت Tony Judt: "إن كانت الديمقراطية قد مثّلت كارثة لليهود، فهو ما يبدو اليوم أمرًا ذا وقع غريب للغاية"، حيث اضطر اليهود للتخلي عن التمتع بحماية الحكام التنويريين وأصبحوا ضحايا للقومية الديمقراطية، [167] وغدا التنوع سببًا داعيًا لممارسة الإبادة؛ لأنه يمثل خطرًا، لا بدَّ من القضاء عليه، ويمكن القضاء عليه!، إن التصورات السائدة عن عالم مُنقّى عِرْقيًا واجتماعيًا، جعلت العنف يبدو بوصفه خيارًا مغريًا لأداء الأفعال، فباستخدام العنف يمكن -على الفور- بلوغ ما لا ينجح الإنسان في بلوغه أبدًا بالتوافق، وهنا يكمن سبب نجاح الأيديولوجيات الشمولية؛ حيث تستند تلك الأيديولوجيات إلى رغبة الأغلبية وتقدم الوعود بحل كل المشكلات على الفور وللأبد، يقول مان: "إن القضاء على شعوب بأكملها عن طريق إبادتها كان أمرًا نادر الحدوث في القرون السالفة"، ويضيف قائلًا: "إن الوضع أصبح أكثر خطرًا بارتقاء قيمة الأديان السماوية وسُمو مكانة حكم الشعب".[168]

يزعم القوميون العرقيون والعنصريون أن مفاهيم العِرْق والسلالة والأمة تعد مفاهيم متطابقة، ويقدم الشيوعيون وعودًا بوضع نهاية للاستغلال عن طريق التخلص من المُستَغِلّين، عندما تتداعى

الدول والإمبراطوريات متعددة القوميات والأعراق، قد تكتسب مثل أيديولوجيات التنقية تلك جاذبيةً بوصفها موارد للقوة ومصادر للشرعية، فعلى الرغم من أن التعاليم الدينية، التي تسعى لأن تكون مقنعة للبشر، يجب أن تكون مقبولة من الناحية المنطقية، إلا أن وعود الوعاظ والمُخَلّصين تتمتع في موطن وقوع العنف بالمصداقية، دون وجود ما يثبت صدقها،[169] وكلما زاد لدى الناس الشعور بالقلق والتشكك، زاد شعورهم بالحاجة إلى الوضوح والجلاء، ولذلك فإن عملية التحول الديمقراطي للأوضاع المضطربة تهيئ للأيديولوجيين وللمبشّرين السياسيين فرصًا لوسم الأعداء ولجعل العنف يقول كلمته، وربما يمكن القول أيضًا، إن الإجراءات الديمقراطية تصبح في ظل مثل تلك الظروف أدوات تصعيدية، لكن تحين بعد ذلك ساعة المنفذّين، الذين يُحدِثون التنقية العرقية، حيث يبيدون الأغراب عنهم أو يطردونهم، ولقد استطاعت أيديولوجية وضع النظم النهائية أن تحتفظ بحقها، في مقابل دفع ثمن القوة التدميرية الوحشية، وبذلك سلكت الكارثة مسارها.[170]

القوى التدميرية

لم يضع منهاج التنوير ارتكاب جرائم القتل الجماعي في حسبانه، فكيف أمكن أن تتعرض كل الضمانات الراسخة في دولة سيادة القانون والضمانات الأخلاقية -التي تأسست عبر قرون- إلى الدمار في عِقْد واحد فقط؟! إجابة هذا السؤال بسيطة: لأنه كان من الممكن فعلُ ما تَناسب فكريًا مع هذا الوقت، لا يسلك أي قاتل سلوكًا مُستنكرًا، إذا كان بإمكانه زحزحة الإطار الأخلاقي وفقًا لاعتبارات المنفعة، وعلى النحو الذي يرغب فيه، يستطيع الجناة أن يشرعوا في ارتكاب جرائمهم بغير تردد، إذا أدركوا- ذات مرة- أين تكمن سعادة البشر، وكيف يمكن بلوغها، يعتقد الجناة أنه من الممكن حل المشاكل للأبد وأن خطتهم ستتحقق، بمجرد أن يستأصلوا "النُخَامة" من المجتمع، فمن يمتلك الحقيقة النهائية ويزيل النفايات البشرية، لا يعد مضطرًا إلى تبرير أعمال العنف، التي تؤدي إلى وقوع أمور حتمية،[171] ولا يعتبر الجناة أنفسهم قتلة منعدمي الضمير، وإنما يعتبرون أنفسهم ينفذون رسالة مقدسة؛ فيمكنهم علاج أي مرض ويمكنهم التخلص من أي مشكلة نهائيًا بإجراء تدخل جراحي في المجتمع، دون أن يضطر القتلة إلى أن يُثقِلوا على أنفسهم بالشعور بالذنب، لقد قال ستالين: "إن الموت يُعدُّ حلًا لجميع المشكلات، وجود إنسان يعني وجود مشكلة

وبانعدام وجوده ينعدم وجود المشكلة"، وكان يعني بذلك، أنه لا يحق للإنسان أن يجعل الشك وتأنيب الضمير يشعرانه بالانزعاج.[172]

يقول بعض المؤرخين: إن عصر الحداثة تمخّض عن جناة، يرتكبون جرائمهم دون شعور بالذنب، جناة يستغرقون في نوم هادئ وعميق؛ لأنهم يستطيعون نسيان ما اقترفوه، فعلينا أن ننتبه في بادئ الأمر إلى الألم، الذي يعتري أناسًا آخرين، لكي نستطيع أن نشعر به،[173] فأصبح من الممكن أن يتحول كل شخص إلى قاتل، فالبراءة التامة من الذنوب تغفر جميع الجرائم المُرتَكَبة في سبيل بلوغ أهداف أكثر سموًا.

يزعم مان أن مرتكبي عمليات القتل الجماعي غير مضطرين إلى التحرر من "الأنا العليا" لكي يمارسوا القتل، حيث يرى مان، أن أصل الجرائم المرتكبة بحق الإنسانية في القرن العشرين يرجع إلى العقلانية وليس إلى الشر،[174] وأضاف مان أن إبادة اليهود الأوربيين مثّلت "تصعيدًا منطقيًا ناتجًا عن أيديولوجية ما، أكثر من كونها مجرد حادث"، فتلك الأيديولوجية "أزالت -بلا هوادة- كل العوائق التي اعترضت سبيلها"،[175] فقد توافقت كل فِعّلة مفزعة، تم ارتكابها، مع نسق أخلاقي ما، مجّد القتل بوصفه إنجازًا حضاريًا.

تقول هانا أرندت في محاضراتها، التي ألقتها عن الشر: "إن أعتى المجرمين هم أولئك الذين لا يتذكّرون شيئًا؛ لأنهم لا يبددون تفكيرهم قط في ما اقترفوه، وبنسيان جرائمهم لا يمكن لثمة شيء أن يحول بينهم وبين ارتكابها"، ولذلك فإن "الشر الأعظم لا يتسم بالتطرف، فلا جذور له، ولأنه بلا جذور، فلا حدود له، حيث يمكن أن يتطور ليبلغ أقصى تطرف، يمكن تخيّله، ويمتد ليتفشى في العالم بأكمله".[176]

كيف تأتّى أن توضع في ألمانيا -على وجه الخصوص- خطة للقتل، تجاوزت كل حدود ما يمكن تصوره؟ يعتقد بومان، أن هذا الأمر لا يجب أن يثير الدهشة، "فقد كان الهولوكست بمثابة أداة عنف تضخّمت على نحو مفرط، واتبَّعت عناصرها المنفردة هدفًا واحدًا، وخُصِّصت وفقًا له وأصبحت أكثر إتقانًا من الناحية التقنية، فكانت فعالية آلة الدمار المروعة المستندة إلى التوجيه التقني البيروقراطي أكثر حسمًا من حجم تلك الآلية، أي أنه عندما يتحوّل العنف إلى خبرة روتينية

بيروقراطية، يمكن أن يتم ويكتمل على نحو عقلاني وخالٍ من العاطفة، شأنه في ذلك شأن كل الإجراءات البيروقراطية"، فالحضارة تستطيع أن تنتج الوسائل التي تدمّر كل ما أنجزته هذه الحضارة.

يرى فولفجانج سوفسكيWolfgang Sofsky أنه "طالما تقاوم الدولة الحاجة المجتمعية لبناء جماعة، فإن الإرهاب يبقى مُنحصرًا في أفعال اجتماعية منفردة، غير أنه بمجرد أن تشرع جهات الدولة في فرض تجانس الثقافة على نحو فعّال وفي تفسير أوهام الجماعة الاجتماعية على أنها مبادئ السياسة، ينكسر السور المنيع الذي يَحول دون ارتكاب جرائم الاضطهاد المنظم"،[177] إن الحداثة لا تقتصر فقط على التصور بأنه يحق للإنسان أن يفعل كل ما يفيد الارتقاء بسعادة البشر، ولكنها تجهز –أيضًا- الأدوات التي تسمح بفعل ما يريده الإنسان، ولذلك فإن قدرتها الهدّامة لا تتنامى على الإطلاق، إلا انطلاقًا من القدرة التقنية على تنفيذ ما يمكن تصوره أو إدراكه، ولا يمكن ترجمة الأفكار إلى أفعال إلا عندما تتحول الفرص إلى إمكانيات، وعندما تتوافر الوسائل التي تسمح لتِقَنيّي الدولة ذات نظام الحكم المطلق، أن يحققوا خيالاتهم، فالأفكار لا تموت، بل يموت البشر، وعندما لا يتم تنفيذ "القرارت المنبثقة عن الخطة "فإنها تكون بلا تأثير.[178]

التبرير الذي يصدر عن أولئك الذين أدركوا أن الحداثة تعتبر أصل نشأة العنف التدميري الشمولي، يفيد بأن من يريد أن يسجّل الناس ويسيطر عليهم ويضعهم في نطاق الرفض الاجتماعي الشديد ويرحّلهم قسريًا ويقتلهم، يحتاج الأدوات المناسبة لذلك، فبدون السيطرة على احتكار الدولة لممارسة العنف وعلى الجهاز البيروقراطي بها، لم يكن لأعمال القتل الوحشية أن تصبح ممكنة الحدوث على الإطلاق، فموظفو الدولة لا يزالون غير خاضعين سوى لقواعد تُكسِب البيروقراطية أهدافها ومهامها، إن موظفي الدولة يخدمون القوانين، وليس الأشخاص، وينفذون كل أمر، كما لو أن ما يفعلونه نابع من قناعتهم الشخصية، ويعتبر النظام وإنكار الذات من الفضائل التي يتحّلى بها الموظفون في عصر الحداثة، فطالما يؤدي موظفو الدولة ما يُطلَب منهم- وفقًا لوجهات نظر مهنية- فإنهم يتصرفون في سياق شرفهم الوظيفي،[179] يمكن للإنسان أن يسمح بقتل البشر وأن يسلك -مع ذلك- سلوكًا صحيحًا من الناحية الشكلية، وقد استند أغلب المجرمين النازيين إلى هذه

الحقيقة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، في سبيل تخفيف العبء عن أنفسهم، كتب بومان قائلًا: "باسم الشرف يحل الانضباط محل المسؤولية الأخلاقية".[180]

يمنح احتكار الدولة لممارسة العنف الناس الحماية، التي لا يستطيعون بدونها أن يعيشوا بصورة مستمرة في سلام وأمان، فنحن نثق بعضنا في بعض؛ لأننا نعرف أن هناك عقوبات تفرض عند استخدام الأسلحة على نحو غير قانوني، لا يحق لأحدٍ -سوى ذوي المناصب السيادية في الدولة- أن يحمل سلاحًا على الملأ، لقد أصبح العنف غير مرئي، دون أن يختفي أبدًا؛ حيث يبدو أنه تم درؤه، ولا يبقى العنف حاضرًا في وعينا سوى بوصفه يمثل إمكانية وتهديدًا، إلا أن المواطنين يدفعون ثمنًا في مقابل ضمان السلام، حيث يتركون لذوي المناصب السيادية في الدولة حق التحكم في الأسلحة ويتنازلون عن مراقبة استخدامها بأنفسهم، كتب بومان: "عندما تتمركز وسائل العنف وتخرج عن نطاق أي سيطرة، يمكن بلوغ أهداف لم تكن متوقعة الحدوث بدون اكتمال الوسائل التقنية"،[181] يمكن في أي وقت أن يتحّول السلام والأمان إلى موت وخراب، إذا قرر المدافعون عن احتكار ممارسة العنف أن يشنّوا حربًا أو يضطهدوا الناس، فيُعد النظام شرطًا لتحجيم العنف، ولكنه يعد -في الوقت ذاته- شرطًا لتنظيمه، ولا مجال للفرار من تلك الحلقة المُفرَغة.

لذا فإن الطاقة التدميرية التي تمتلكها الدولة في عصر الحداثة كبيرة جدًا؛ لأن تلك الدولة تزوّد أشخاصًا -لا يملكون سلطة- بأسلحة مُميتة، وتخضعهم لقوى غير معروفة وتضعهم في مواقف لا يملكون فيها خيارًا آخر، سوى الطاعة، وتعد الأجهزة البيروقراطية ووحدات الشرطة والجيش مؤسسات تحوّل القوة إلى سلطة متحكمة؛ لأنها تُلزِم الناس بالبقاء في أحد الأماكن وتجعلهم يعتمدون بعضهم على بعض ويخضعون لإجراءات ترغمهم على الطاعة، ينجز الموظفون في ظل البيروقراطية التكليفات دون أن يعترضوا، ويتمرَّن الناس في وحدات الشرطة والجيش على السيطرة على خوفهم، حيثما لا يتعلق الأمر بما يريده الإنسان وما وما يتمكن منه، فيمكن أن يرغم القليلون الكثيرين على الامتثال لأوامرهم، ويعرف كل جندي، أنه لا يستطيع أن يتملّص من المجموعة، التي يقاتل في صفوفها، حيث إنه لن يظفر بشيء إن هجر تلك المجموعة، فحينئذ قد يخسر حياته؛ لأنه سيصبح تحت رحمة العدو، بلا ثمة حماية، ولذلك يفعل الجندي ما يُطلَب منه،

يؤدي الجنود خدمةً، لا يحتاجون لها بمحض إرادتهم الحرة، ويمارسون القتل عن وعي بأنهم يفعلون شيئًا ليس بإمكانهم تغييره على كل حال.[182]

يعتاد البعض ممارسة القتل، وعندما يحققون نجاحًا في المعركة لا يعود بإمكانهم على الإطلاق التوقف عن الخروج لتعقّب الأعداء.

أعلن ملازم أول في سلاح الجو الألماني في يوليو عام 1940، أنه يصبح يشعر بالحاجة إلى إلقاء القنابل، حيث قال: "كان لزامًا عليَّ في اليوم الثاني من الحرب على بولندا أن ألقي قنابل على محطة قطار بوزنان، سقطت ثماني قنابل، من بين الست عشرة قنبلة الملقاة على المدينة في وسط المنازل، لم أشعر حينها بالسعادة من ذلك، وفي اليوم الثالث أصبحت لا مبالِ بذلك، وفي اليوم الرابع وجدت سعادتي في إلقاء القنابل، كان من دواعي سرورنا في الفترة، التي تسبق تناولنا لوجبة الإفطار، أن نتعقّب الجنود فرادى بالأسلحة الآلية عبر الحقول وجعلهم يستلقون هناك بإطلاق بضع رصاصات عليهم في الظهر".[183]

تُحدِث حالة التجهيل -والتي تكتسبها عملية القتل- مسافة بين القاتل والضحايا وتسهّل اقتراف أعمال العنف الوحشية، فالموظفون يرتّبون لقتل الآلاف أثناء جلوسهم على مكاتبهم، دون أن يضطروا إلى التعرّض لعواقب الأوامر التي أصدروها، كما أن قادة مواقع الصواريخ لا يستخدمون الأسلحة بأنفسهم، وإنما يستخدمون أجهزة الكمبيوتر ويلقي الطيّارون القنابل على الناس، دون أن يرونهم يموتون جرّاء ذلك وتصيب مدافع الدبابات والسفن أهدافًا، دون أن يضطر المسلّحون إلى رؤية بعضهم بعضًا وجهًا لوجه،[184] كتب بوبيتس قائلًا: "يتناسب المجد الذي تتمتع به التكنولوجيا -على نحو بارز- مع مجد العنف، يتناسب الكمال التقني مع عدم تورط الجاني"، وكلما زادت المسافة، التي تخلقها تقنية الأسلحة الحديثة بين الجناة والضحايا، كان من الأسهل أن يمدح الناس العنف ويستخدمونه".

"لقد أصبحت الصلة بين الفعل الشخصي وعواقبه أقل وضوحًا ورصانة، ومن الضروري أن نركز على تلك الصلة تركيزًا موضوعيًا، فالانفعالات لا يمكنها أن تسبب سوى الإزعاج".[185]

يقول بومان -وآخرون كثيرون- إنه ينبغي علينا أن نتصوّر الحداثة بوصفها حيزًا تتاح فيه ممارسة العنف التدميري، يمتزج في الحداثة السعي وراء بلوغ الوضوح الجلي بالقدرة على تحويل ما يمكن تصوره أو إدراكه إلى ما يمكن تنفيذه، إن المواطنين مرتبطون بالرباط الحديدي للنظام، أما الأجهزة البيروقراطية والثكنات العسكرية والسجون والمدارس والجامعات والمصانع فتعد الأماكن الحقيقية للحداثة، وفي مصانع النظام يتعرض الناس للترويض والإخضاع ويصبحون مذعنين، وتتم تهيئتهم لأن يتصرفوا بحزم وأن يضفوا على حياتهم ما يكفل تحقق التوقعات، لقد زعم بومان في حوار له مع هارالد فيلتسر Harald Welzer أن التحضر في عصر الحداثة حوّل الكون بأسره إلى معمل كبير، وأردف بومان قائلًا: "لقد حوّلت الحداثة الكون إلى نوع من أنواع الساحات، التي تلعب فيها الإرادة الإنسانية وكذلك تدور فيها فكرة أنه بإمكانك أن تخلق كل شيء، وبإمكانك أن تعيد خلق كل شيء مجددًا"[186]، وأضاف بومان: "إن الهولوكست كان النهاية المنطقية لاتباع تلك الاستراتيجية، التي تنص على جعل العالم مكانًا آخر، لقد كان الهولوكست بمثابة الشكل المجرد للحداثة»[187].

لم نعرف "لماذا انتهت أيديولوجية الحداثة»، إلا عندما انكشف القناع عنها بوصفها أيديولوجية متعجرفة، فقد رأى الناس ماهية النتيجة التي يصلون إليها عندما لا يضعون حدودًا لوهم السلطة، وتحتفي الحداثة بنفسها بوصفها عصر التحرر والحرية، غير أنها في حقيقة الأمر تعد عهد التعصّب والدمار، وفي المقابل يرى بومان أن مرحلة ما بعد الحداثة تعد بمثابة نهاية لكل صور التعصّب، حيث إن مرحلة ما بعد الحداثة تجعلنا ندرك، أن الغرابة تسود كل مكان وأنه لا يمكننا أن ننشئ الوضوح الجليّ، أو أن نرغب في بلوغه، لقد أصبحت ثقافتنا تنعكس ذاتيًا، وتتقبّل التباين والغموض، "إن مرحلة ما بعد الحداثة لا تعد كونها الحداثة، التي تصالحت مع ما يشوبها من استحالة وحسمت أمرها بأن تتعايش معها مهما كان الثمن"، بل تعد مرحلة ما بعد الحداثة عهدًا، خلّف وراءه كل الأوهام والخيالات السلبية والفاشية والشيوعية، "كانت الحرية والمساواة والإخاء بمثابة هتاف حرب في عصر الحداثة، في حين تعد الحرية والتباين والتسامح صيغة لإعلان الهدنة في مرحلة ما بعد الحداثة، ويمكن أن تتحوّل الهدنة إلى سلام، عندما يتبّدل التسامح إلى تضامن"، [188] إنه لحلم جميل، يُدحض كل يوم؛ لأن قليلين جدًا من البشر هم من يعتبرون أن وجود أمور متباينة بعضها إلى جوار بعض أمر مُحبَّذ.

الحفاظ

يعد نموذج بومان بمثابة صورة كاريكاتورية للحداثة، وما حدث في عصر الحداثة ينبغي ألا يبقى في ذاكرتنا سوى بوصفه عصرًا للعنف الشامل ولإزالة كل الحدود بلا قيود أو موانع، غير أن العشوائية لا تعد ضامنًا لتحقيق السلام، مثلما لا يعد الوضوح الجليّ سببًا لوقوع العنف، ففي كل مكان، يضطر فيه الناس إلى أن يتعاملوا بعضهم مع بعض، فإنهم يشكّلون بيئتهم المحيطة بهم ويصنّفون ما تنامى إلى مداركهم ويحددون تصورات للعالم، ولولا النظام لبقيت حياتنا متوالية من المصادفات، ولأصبحنا شخصيات واهية ومعقودي اللسان، ولما تبقى للأجيال اللاحقة بنا إرث فكري، تستطيع أن تترعرع في ظله، إن كل حضارة تحتاج إلى تحديد ما ينتسب إليها وما لا ينتسب إليها، فالإنسان لا يستطيع أن يطوّر ذاته إلا بتحديد ذوات الآخرين، ولذلك فإن النظام لا يعد عملًا من أعمال العنف الذي يُقتَرف بحق العالم، وإنما يعد صيغة معبّرة عن وجودنا، ولو كان الأمر خلافًا لذلك، لما كان بإمكاننا أن نميّز بين النظام والعنف، ولما كنا نستطيع أن نخبر بعضنا بعضًا، من أين نأتي؟ ومن نكون؟ [189] فعلى الرغم من أن العالم، الذي عاش فيه الإنسان في عصر ما قبل الحداثة، لم يكن بأقل وضوحًا من البنية، التي يتحّرك الفرد في عصر الحداثة في نطاقها، إلا أن الإنسان -في عصر الحداثة- يمكنه أن يتوّجه إلى أماكن، تتاح له فيها حرية الاختيار، ويمكنه فيها ألا يصبح أحدًا سوى نفسه، إن حرية الاختيار تلك لا تتاح لمن يضطرون إلى الحياة في ظل ظروف غير آمنة، ولا يجهدون أنفسهم في التفكير في المستقبل؛ لأنهم لا يستطيعون التنبؤ بما سوف يحدث، اتسم النظام -في مرحلة ما قبل الحداثة- بالتحفظ وانحصار النطاق، ويزداد النظام تحفظًا وانحصارًا كلما أصبحت الظروف أقل أمنًا، فيعتبر النظام آلة اجتماعية، تجعل من التناقض أمرًا يمكن تحمّله.[190]

بيد أن النظام القانوني في عصر الحداثة يعد ضمانًا يكفل الحرية الداخلية والخارجية، فقد كتب الفقيه القانوني الروسي بوجدان كيستياكوفسكي Bogdan Kistjakowski في عام 1909 قائلًا: "إن المضمون الرئيس والجوهري للقانون يتمّثل في الحرية"، واستطرد قائلًا: "إلا أن تلك الحرية تعد حريَّة خارجية ونسبية مشروطة بالمحيط المجتمعي، غير أن الحرية الداخلية والمطلقة والفكرية، لا تصبح ممكنة الحدوث، إلا بوجود حرية خارجية، وتعد الحرية الخارجية أفضل

مدرسة لتعلم الحرية الداخلية"[191]، إن كيستياكوفسكي، الذي مرّ بنفسه أثناء الثورة الروسية الأولى المندلعة عام1905 بتجربة معرفة إلى أين يقودنا التعسف والعنف، إذا لم يوقفهما أي شخص أو أي شيء عند حدهما، قد أدرك أن النظام القانوني لا يعد أداة للاستعباد، بل يصون حريتنا، وعندما تعرّض معاقون ذهنيًا في عام 1940 في كل أرجاء ألمانيا للقتل، توجّه أسقف الكنيسة الكاثوليكية في مونستر كليمنس أوجست Clemens Augustدوق جالن، في عظاته إلى عموم الشعب؛ لكي يندد بما اعتبره خرقًا للمنظومة الأخلاقية المسيحية وللنظام القانوني، ولم يمتهن النازيون التعاليم الدينية المسيحية فقط، بل امتهنوا –أيضًا- القوانين، التي وضعت عقوبات لجريمة القتل، ولم يخالج أسقف الكنيسة الكاثوليكية في مونستر ثمة شك بأنه لا يجوز أن يتعرض أناس أبرياء للقتل، وأن القتل الرحيم يعد عملًا من أعمال الشيطان، وأن أيديولوجية النازيين تعتبر "عقيدة مريعة، تسعى لتبرير قتل الأبرياء".[192]

كما شهد القضاء مقاومة لانعدام سلطة القانون وللتعسف، فقد اعترى الغضب النائب العام لمدينة جراتس بسبب قتل المرضى عقليًا، بما يخالف القانون، ووجّه نداءً في نوفمبر عام 1940 لوزير العدل جورتنر Gürtner بأن يسترد "شرف القضاء"، وعندما تنامى ما حدث في مصحات الأمراض العقلية إلى علم النيابة العامة في شتوتجارت، توجّه النائب العام بخطاب إلى وزير العدل، لقد أراد المُدعّون العموميون معرفة، هل ينبغي عليهم التحري ضد مجهولين بسبب جرائم القتل؟ وهل يمكن تكليف البوليس السرّي الألماني (الجستابو) بالتحقيق؟ فلم يكن المدعّون العموميون يعرفون أن هتلر قد أصدر أوامر القتل بنفسه، إلا أن الشك لم يساورهم بأن التعليمات، التي تنتهك القانون المعمول به، تعد تعليمات غير قانونية، ولذلك فقد فعلوا، ما كان منصوصًا على فعله في مثل تلك الحالات، حيث طلبوا من رؤسائهم في العمل، أن يفتحوا تحقيقًا في الأمر، فقد كان بعض موظفي الدولة في عام 1940 لا يزالون يعتبرون أنفسهم رعاة القوانين والإجراءات القانونية، وعندما ضربوا بالقانون المعمول به عرض الحائط، كانوا مدركين بأنهم يقترفون أمرًا محظورًا.[193]

تتسم روح البيروقراطية بالتَّبلُّد، كما تتَّسم إجراءاتها بسهولة حسابها وتوقعها ويتَّصِف موظفوها بأنهم ذوو خبرة روتينية، ومَن يريد أن يحولّهم إلى قتلة، يجب عليه أن يحملهم على نسيان

التزاماتهم، فالإرهاب والإبادة والاضطهاد وحملات المداهمات يستندون إلى مبدأ التعسف وعدم إمكانية التكهُّن بالأفعال؛ لأنهم يقعون على النقيض مما تفعله الأجهزة البيروقراطية، وقد أدرك هتلر، أنه لن يستطع يتغلّب على القانون والنظام، إلا عندما يصبح للتعسف والإرهاب الكلمة العليا في الحياة اليومية الإدارية، ولذلك لم يعد يصدر ثانيةً أي أمر كتابي بالقتل، بل كان يحبّذ أن يقتصر على إعطاء إشارات شفهية، بشأن تصوراته عن خطة الإبادة، ولم تمثّل البيروقراطية في بروسيا النموذج، الذي اتبّعه الحكم النازي، فلم يكن هتلر والنازيون المتطرّفون يخشون شيئًا أكثر من اندماج مشروعهم في التقاليد المحدّدة لوضع الموّظفين في بروسيا، حيث كانت تصورات النازيين تتناقض مع كل ما أراده حُمَاة النظام المحافظون، لم يعنِهم الاستقرار والخبرة الروتينية، بل التغيير والثورة، فقد انتخب الألمان هتلر؛ لأنهم كانوا يمنّون أنفسهم بأن يخلق لهم نظامًا، إلا أن هتلر كان يخشى الخمود والجمود، وأتاحت له الحرب إمكانية أن يفعل ما كان يعتبره جوهر المشروع النازي ومعه استطاع الآلاف من المسئولين التابعين له أن يضربوا بالحقوق والقوانين عرض الحائط دونما تردد،[194] ولم يكن قادة معسكرات الإبادة أو قادة قوات المهمات النازية، الذين مارسوا أعمال قتل بحق الملايين، بموظفين، ولم يكونوا يدينون بالولاء للقوانين والإجراءات القانونية، بل للأفراد الذين طالبوهم بممارسة القتل بمبادرة ذاتية، حيث كان أوشفيتس وكوليما مكانين لممارسة التعسُّف والعنف بلا حدود، فكان الأشخاص المعاصرون لهما يعتبرونهما جحيمًا حالكًا، وليسا تحقيقًا لحلم بيروقراطي.

يخضع الناس في عصر الحداثة حقًّا للتصنيف والتسجيل والرقابة، كما يستسلمون لقوى وبُنى غير مرئية، لا سلطة لهم عليها، ويتعرّضون في المؤسسات الحديثة للتأهيل والانضباط، إلا أنه لا ينبغي الخلط بين شروط العنف المدّمر وأسبابه، فتلك الشروط توضح لنا فقط ما كان ممكنًا، لكنها لا توضح لنا أسباب حدوثه، [195] فهل ينبغي علينا حقًا الاعتقاد بأن الأجهزة البيروقراطية تولّد فقدان الحس الأخلاقي؟ وبعد كل ما عرفناه عن ممارسة الإبادة، لم يكن البيروقراطيون، بل الجلّادون، من تحّصنوا أخلاقيًا ضد العنف، على الرغم من أنه في ظل المجهولية، التي تتسم بها البيروقراطية الحديثة، لا يتحمّل شخص المسئولية؛ لأن الإجراءات البيروقراطية تربط الناس بعضهم ببعض بما يشبه السلسلة على نحو يجعل الأمور، التي ينبغي حدوثها، تحدث من تلقاء نفسها، إلا أن الروتين الخالي من العاطفة يضع حدودًا للإرهابيين والمرضى نفسيًا؛ لأنه يُعد عدوًا

لكافة صور الاندفاع، كان هتلر يشعر بالاشمئزاز من القانون والقضاء، وكان لديه ما يُبرر ذلك الاحتقار لهما، فحيثما تصبح الإجراءات والقوانين لها كلمة فاصلة في إمكانيات الإدارة، ينتهي عهد الإرهاب.[196]

إذا انفجر العنف ذات مرة، فإنه يجعل نظام البيروقراطية يتحّلل، ويأتي الإرهاب بغتة، حيث يتسم بالفوضوية والتعّسف، وينتهك كل ما يريده البيروقراطيون، لم يعتبر أفراد قوات المهمات النازية أو بلطجية المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية التابعة لوزارة الداخلية في الاتحاد السوفيتي أنفسهم أدوات، أو بالأحرى ألعابًا في يد القانون والنظام، كما أن المشرفين في المعسكرات لم يمارسوا الضرب المبرح أو القتل؛ لأنهم مضطرون إلى فعل ذلك، بل لأنه كان يجوز لهم فعل ذلك، فلم تكن فِرق قوات المهمات النازية والمعسكرات مؤسسات تسودها الثقافة البيروقراطية، بل سادتها روح المبادرة الذاتية والتعسف،[197] إن الإجراءات البيروقراطية تضع حدودًا للإمكانات المتاحة للفرد، بيد أن السجناء المحتجزين في المعسكرات كانوا مستسلمين للسلطة المطلقة لمن يعذّبونهم، فكان بإمكان كل مشرف أن يقتل أحد السجناء؛ لأن هذا الأمر يروق له، كما كان بإمكانه أن يتركه على قيد الحياة، عن هذا يقول بريمو ليفي Primo Levi متذكرًا: «إن العالم، الذي نندفع داخله، لم يكن عالمًا مرعبًا فقط، بل كان -علاوة على ذلك- عالمًا مُبهمًا، فلم يكن يتطابق مع أي من النماذج المعروفة، حيث كان العدو يوجد بالخارج، ويقبع في الوقت ذاته بالداخل، في ذلك العالم فقدت كلمة [نحن] حدودها".

لم يكن في المعسكر ثمة منطق، أو ثمة تآزر، "فبدلًا من ذلك كانت هناك الآلاف في الوحدات المُغلَقة بإحكام، يدور بينها قتال بائس خفي ومستمر"، لم يكن على السجناء في تلك المعسكرات سوى انتظار الموت، فكانوا يعيشون اللحظة الراهنة؛ لأنهم لم يعرفوا، هل سيبقون على قيد الحياة في اليوم المقبل؟ أم لا؟ وحتى لو شعر الجناة بالتعب، لم يكن لهم أن يتوقفوا عن القتل، بعد أن خلّفوا وراءهم كل الجسور مُحَطَّمة، وهكذا توّرط الجناة والضحايا في لعبة بلا طائل مع الموت.

يغير العنف الذي تخطّى جميع الحدود كل الأمور، فيدمّر الثقة وإمكانية التكهُّن بالأفعال ويُعد عدوًا لكل نظام، ويمكن في الحرب –أيضًا- أن يقع أي حدث في أي وقت، يستلزم شن الدولة للحروب تخطيطًا ووضع استراتيجية وتوفر المهارة الإدارية، وعلى كل حال فإنه يحتاج استعدادًا أكثر من

الاستعداد للحملات الحربية، التي كان يشنها جنود المرتزقة والفرسان، بيد أن الجانب اللوجيستي في الحرب يختلف عن القتال، فالقتال لا يتبع خطة ويجعل المقاتلين يعتمدون على أجسادهم فقط ويجعلهم مخلوقات مسلوبة الإرادة، لا يخضعون سوى لمنطق القتال، وتسري تلك الحقيقة على الحرب في عصر الحداثة وكذلك في مرحلة ما قبل الحداثة، [198] لكننا لا نعرف، أن الأمر يسير على هذا النحو؛ لأننا لا نرى صَوْب أعيننا سوى الاستعراضات العسكرية وقوافل المارشات والثكنات العسكرية، لكننا لا نرى الدماء التي تسيل وأجساد من اضطروا لفقدان حياتهم في الحرب، والتي تمزّقت لتصبح أشلاءً.

لم تمثل البيروقراطية -وسعيها وراء تحقيق الوضوح الجليّ- أصل ارتكاب جرائم القتل الجماعي، كما أن الجيش في عصر الحداثة ليس أصل نشوب حروب الإبادة، فإن شروط الفعل لا تمثل أسبابًا، فلو كانت الشروط تمثل الأسباب، فلمَ تَحوّل ما يمكن تصوره وإدراكه في ألمانيا إلى ما يمكن فعله؟ ولمَ يحدث الأمر ذاته في فرنسا؟ لماذا تعرّض العبيد سابقًا في الولايات المتحدة الأمريكية للتفرقة العنصرية ولسوء المعاملة، لكنهم لم يتعرّضوا للقتل على نحو ممنهج؟ لماذا أدّى تَشَكُّل الدولة في الاتحاد السوفيتي لارتكاب جرائم قتل جماعي منظم ولم يؤدِ إلى الأمر ذاته في تركيا؟ لأن الإنسان يستطيع أن يمارس القتل لبلوغ ما عقد العزم على فعله، لكنه غير مضطر إلى ذلك، فلا توجد علاقة سببية بين الأفكار والأفعال، ولا يوجد ارتباط قهري بين النظريات المتعلقة بالسلالات البشرية، وبين المؤسسات الحديثة وأعمال العنف الوحشية، فالمواقف وإمكانيات وقوعها وحدها، وليست الأيديولوجيات وأدواتها الجبرية، تُحَدّد، ما إذا كانت التصورات ستصبح حقيقة أم لا. [199]

العُنف في مواطِنَ بعيدة عن نطاق الدولة

لقد تغيّرت في عصر الحداثة إمكانيات التدمير، غير أن المشاعر الإنسانية الجيّاشة لم تتغير، لم تُمثّل الحداثة وإمكانياتها التقنية شرطًا ضروريًا لارتكاب القتل الجماعي المُنَظّم على الإطلاق، فلقد تعرّضت الشعوب في روما القديمة -في العصر الكلاسيكي القديم- للاستعباد أو للترحيل القسري، كما تعرّض أسرى الحرب للقتل، وتعرّضت النساء للاغتصاب الممنهج، وكانت الحروب التي شنّها يوليوس قيصر حروب إبادة، خلّفت وراءها أرضًا محروقة، كما مارس الفرسان الصليبيون

-في أوج العصور الوسطى- أعمال السلب والتعذيب والاغتصاب؛ لأنه لم يكن ممكنًا إخضاع الآخرين سوى بارتكاب العنف الوحشي، [200] إن أصل ارتكاب العنف المدمّر لا يرجع إلى النظام والوضوح الجليّ، بل إلى انعدام الأمان والسلطة، فليس بإمكان أحد، سوى من يستطيع أن يضمن حدوث توقعاته، أن يفرض سلطته دون ممارسة العنف، وكان لزامًا في العصور السالفة أن تتعرض ركائز حياة الخاسرين للتدمير وأن تُنتزع منهم القدرة على إبداء المقاومة؛ فباستمرار كانت المدن تتعرّض للتخريب وكان الناس يتعرّضون للقتل أو للإرهاب، من أجل رفع كفاءة شن الحرب، ولا يعد الغضب التدميري أحد امتيازات عصر الحداثة،[201] فلم تكن الفظائع، التي ارتكبها قادة الجيوش في روما القديمة وأمراء العصور الوسطى، بأقل حُسبانًا من أعمال العنف الوحشية التي اقترفتها قوات المهمات النازية إبّان الحرب العالمية الثانية أو التي اقترفتها فرق الموت إبّان الحروب الأهلية في أمريكا اللاتينية في القرن العشرين.

لا تغري الرغبة في ممارسة العنف وحدها بارتكاب الفظائع، بل تغري بها –أيضًا- الحسابات العقلانية، التي يجريها من لا يستطيعون أن يتأكدوا من السلطة، التي يتمتعون بها.

إن الأشخاص الذين يلقون حتفهم ضربًا، والأرض المحترقة والأجساد المتشوهة، تعد بمثابة رسالة موجهة لأولئك، الذين لا يزالون يضعون في حسبانهم أن يبدوا مقاومة مُنظّمة، ومفاد تلك الرسالة: انظروا فقط، إلى أين ستذهبون، عندما تخرجون عن الطاعة! ولذلك تعتبر الوحشية إحدى أدوات السلطة، عن هذا كتبت تروتس فون تروتا قائلة: "إن الاقتصاد متعدد الأوجه للعنف يزداد جذبًا للمستعمر، كلما قَلّت وسائل الحكم المتوافرة لديه".[202]

لكن عندما يمثل العنف مصدر السلطة الوحيد، الذي يمتلكه المحاربون والطغاة والديكتاتوريون، لكي يفرضوا على الآخرين طاعتهم، فإنهم يضطرون إلى استخدامه، فقد تعرّض ملايين البشر -في الاتحاد السوفيتي في ظل حكم ستالين، وفي الصين، وفي كمبوديا في القرن العشرين- للقتل، ليس بسبب أن جهاز الدولة كان يتمتع بنفوذ وسلطان غير محدودين، بل بسبب أنه كان ضعيفًا، لقد أدرك ستالين وماو أن بدائيّة المؤسسات تفرض حدودًا ضيّقة على سلطتهم، وأنه ليس بإمكانهم أن يبسطوا سيادتهم في الأقاليم، وعلى الرغم من أنهم استطاعوا نشر الخوف والفزع وأجبروا المسؤولين على تمجيد سلطتهم، إلا أنهم لم يكونوا ينتظرون الطاعة إلا بين الحين والآخر، فكان

الإرهاب يمثّل الدولة الضعيفة، وكانت الوحشية تمثل إحدى وسائل السلطة، ونظرًا لأن الشخص الموصوم يعد رمزًا حيًا للقوة التدميرية للسلطة، فإن الناس يطيعون أصحاب السلطة في المواطِن التي لا تظهر فيها أي مظاهر للدولة الحديثة.[203]

لا تصبح السلطة ذات حضور طاغٍ، سوى عندما تنجح في فرض تنفيذ سلوكيات مماثلة في مواقف مماثلة، دون اللجوء إلى العنف،[204] بيد أن الاتحاد السوفيتي في ظل حكم ستالين -وكذلك الصين أو كمبوديا- لم يشهد مثل ذلك النمط من الحكم، فقد ظل خوف الرعية في تلك البلاد من الحكام أقوى سلاح في يد السلطة، ولذلك استطاع الطغاة أن يطلقوا العنان لرغبتهم في القتل، كان كل شيء متاحًا في موطن ممارسة العنف؛ لأن العنف كان وسيلة معروفة ومعتادة لفرض السلطة، ولأنه لم تكن هناك مؤسسات، استطاعت أن تدافع عن نفسها وأن تتصّدى للاعتداءات الوحشية، في ظل مثل تلك الظروف أتاح مرتكبو أعمال العنف -والذين أرادوا بلوغ هدف عظيم- لأنفسهم إمكانيات غير متوقعة، حيث استطاعوا أن يسمحوا بقتل البشر، بدون أن يضطروا إلى انتهاك القوانين أو تعطيل الإجراءات القانونية، كان ستالين وماو وبول بوت وعيدي أمين وصدام حسين، طغاة لم يضطروا إلى أن ينظروا إلى الموظفين والمواطنين أو إلى القانون والنظام بعين الاعتبار، واستطاعوا فعل ما تهفو أنفسهم إليه، كما استطاعوا على الفور بلوغ ما كانوا قد عقدوا العزم على فعله، وكان أتباعهم ينفذون كل أمر يصدر إليهم، فحتى هم كانوا مُسَخّرين في ظل نظام السيطرة بدافع الخوف.[205]

وكانوا يفعلون، ما يُطلب منهم، ليس عن اقتناع به أو بدافع الخبرة الروتينية البيروقراطية، بل بدافع الخوف.

استعانت حركة الخمير الحمر في كمبوديا بتصورات تقليدية عن الشرف، من أجل أن يحولوا الرجال المسالمين إلى قتلة، فلا مجال للخروج عن الطاعة في نظام اجتماعي مُنَظّم بصورة رأسية، فمن كان يبدي اعتراضًا أو يرفض ممارسة القتل الاستهلالي، الذي كان الخمير الحمر يطالبون كل فلاح به، كان يعد شخصًا جبانًا، وكان يفقد ماء وجهه، وكان كل الرجال يعيشون في ظل خوف مستمر من أن يخيبوا آمال رؤوسائهم، فكانوا يُفَضّلون ممارسة القتل، على أن يعرضوا أنفسهم للإقصاء من جماعة الشرفاء، لم تشهد كمبوديا نظام دولة البُستاني أو نظامًا بيروقراطيًا، ولم يكن

بها أي احتكار من الدولة لممارسة العنف على الإطلاق، ومع ذلك فقد قتل بلطجية الخمير الحمر في فترة زمنية قصيرة ما يربو على مليوني نسمة،[206] أيّ دولة بستاني كان لها أن ترتكب مثل تلك الفِعْلة؟

يمكن أن يتحوّل الضعف إلى قوة، عندما تقع الفِعلات، التي يحلم بها الديكتاتوريون، لم يستطع هتلر فعل ما كان في رأي ستالين وماو وبول بوت أمرًا بديهيًا، حيث كان "قتل اليهود" بمثابة "زلته الجغرافية"؛ لأنه لم يتمكن من إنجازه في إفريقيا أي في مستعمرات ذلك العالم وصحرواته، ويزعم الكاتب المسرحي هاينر موللر، أن السبب في نشأة معسكر أوشفيتس لا يرجع، سوى إلى افتقار ألمانيا لحقول تجارب استعمارية، كان هتلر "فاتحًا قبل خوض معركة ستالينجراد"، وكان اليهود بمثابة شعب إمبراطورية الآزتيك بالنسبة له، [207] لم يُكمِل هتلر برنامجه في الإبادة، إلا عندما لم يعد مضطرًا لتغليب إرادته على النظام البيروقراطي والكنيسة والقانون والنظام، وعندما اندلعت حرب ألمانيا ضد الاتحاد السوفيتي، خلّف النازيون وراءهم كل الجسور مُحَطّمة، وحوّلوا مواطن العنف في شرق أوربا إلى مناطق موت، خوّلوا لأنفسهم فيها أن يفعلوا، ما لم يكن ليتاح فعله في ألمانيا، لم يقتصر الجناة النازيون على القيام بعمليات عسكرية في أرض غريبة، وإنما تحرّروا – أيضًا- من كل الالتزامات القانونية والأخلاقية لمجتمع المواطنة، فلو كان هاينريش هيملر وراينهارد هيدريش رجلين لا يشعران بتأنيب الضمير، لما نقلا جرائم القتل الجماعي إلى شرق أوربا، ولاستطاعا تنفيذها على مرأى من الجميع، فقد كانا يدركان حق الإدراك أن قتل الملايين كان انتهاكًا لكافة الأعراف الأخلاقية لمجتمع المواطنة، يتذّكر القائد الأعلى لمجموعات وحدات إس إس النازية إيريش فون ديم باخ-تسيلفسكي Bach-Zelewskiما جرى، عندما توّجه هيملر -ذات مرة- في أغسطس من عام 1941 إلى أحد مواقع تنفيذ أحكام الإعدام رميًا بالرصاص على يد جنود قوة المهمات (ب) في مينسك، فقد ثارت أعصاب هيملر آنذاك وكان يسقط على الأرض، بعد كل مرة يتم فيها إطلاق الرصاص دفعة واحدة، وأضاف تسيلفسكي أن هيملر كان متأثرًا بعد معايشته لذلك الفعل العسكري، وأنه أعلن، كم يرى القتل أمرًا "بغيضًا"، وأنه يضطر إلى مطالبة رجاله بفعل أمور لا محالة من وقوعها، تنفيذًا لواجبه ولأنه كان مكلفًا بأداء مهمة تاريخية،[208] كان هيملر مدركًا لما قد يحدث إذا خسرت ألمانيا الحرب، فبعد كل ما اقترفه أتباع هتلر، لم يتبقَ لهم سوى الاختيار بين الانتصار والهلاك، وكتب جوبلز في دفتر يومياته في الأول من أغسطس

عام 1941 عن القتال ضد البلشفيين قائلًا: "سوف نتغلّب عليهم؛ فواجب علينا التغلب عليهم". [209]

كبّلت جرائم القتل الجماعي منفذي الأوامر بعضهم ببعض، وسدّت عليهم طريق العودة إلى التحضّر، برّر أحد أفراد الحراسة في معسكر سوبيبور ذلك بقوله: "لا أستطيع استثناء أي عضو من العاملين بمعسكر سوبيبور من المشاركة في عمليات الإبادة، لقد كنا نرتبط معًا في بلد غريب بـ"رباط أشبه بأخوة الدم"، [210] " لقد استطاعوا حينها أن يفعلوا، ما كانوا ليمنعوا أنفسهم من فعله في بلادهم، فلا أحد يراقبهم ولا أحد يعاقبهم، على ما ارتكبوه، يتذكّر بريمو ليفي، أن السجناء –أيضًا- كانوا يعرفون، أنه في ظل العزلة التي عانوا منها في معسكر أوشفيتس ليس بإمكانهم أن يتوقعوا مؤازرة أولئك الذين لم يفقدوا بعد شعورهم بالتعاطف الإنساني، فلم ترد في الصحافة أي تقارير عن الانتهاكات المرتكبة في أوشفيتس ولم يتقدم أي قس بالشفاعة للبائسين هناك، كان أوشفيتس بمثابة "قاع العالم"، فلا أحد خارجها كان يعرف، ما كان يقع هناك حقًّا،[211] كانت كل الأمور في موطن العنف ذلك قابلة للتصور وكل الأمور قابلة للتنفيذ، فعندما تُفتَح ذات مرة الهواويس، التي قد يتدفق منها العنف، وتُسحَب كل صمامات الأمان، يمكن أن يتحوّل الناس إلى قتلة، بما فيهم أولئك، الذين لم يكونوا ليرتكبوا جريمة القتل أبدًا في ظل الظروف العادية، فالأمر لم يعد متعلقًا بمذاهب دينية أو دوافع أيديولوجيّة، فقد كتب جوناثان ليتل Jonathan Littell على لسان ماكس أويه بطل روايته: "نظامنا ودولتنا، لم يفعلا أقل، ما تصوّره خدمهم، فلم يعْنِهما، هل قتل النازيون اليهود، لأنهم يكرهونهم أم لأنهم أرادوا بذلك أن يحققوا نجاحًا مهنيًا؟ أم لأن قتل اليهود كان يسبّب السرور للبعض إلى حد ما؟».[212]

العُنف ومواقِفُهُ

إن الحداثة -كما تصورّها بومان- تعد مملكة الأفكار والتصورات المبدئية، لكنها ليست مكانًا لوقوع العنف الدموي، فلا يقع فيها سوى ما يحب المثقّفون تصوّره، حيث تتحول الأفكار إلى أفعال، وعندما يمتلك الجناة أدوات تنفيذ جرائمهم، سيفعلون –أيضًا- ما عقدوا العزم على فعله، بيد أن العلم لا يمكنه التصرف، والأسلحة لا يمكنها التحدث، إلا عندما تُتاح مواطن لاستخدامهما، فمن يمارس القتل، يجب عليه أن يتخطّى العراقيل وأن يتجاوز كون القتل أمرًا محظورًا، وأن يتعّلم

التعرّض للعنف، دون أن تُصاب نفسه بأذى، كما يجب على الضباط والجنود أن يتحكموا في صناعة القتل وأن يضعوا في حسبانهم أن الضحايا والأعداء يدافعون عن أنفسهم وأنهم يعرفون، أنهم يخضعون ويمكنهم تحمل مسئولية ذلك، لقد وقعوا أسرى لسلاسل من الأوامر والتدرجات الهرميّة ولثقافة الطاعة العسكرية، التي تُملِي عليهم ما يُنتظَر منهم فعله وتُحِد من الإمكانات المتاحة لتصرفاتهم،[213] لا يشترك التابعون في صفقة القتل، إلا إذا كانت أفعالهم متوافقة مع التصورات الأخلاقية السائدة وإذا كان ما يفعلونه أمرًا مقبولًا وإذا كانوا في غِنى عن الشعور بالخوف من التعرض للانتقام والمقاومة، ويتحوّل بعض الناس إلى مجرمين؛ لأنهم لا يريدون أن يصبحوا ضحايا؛ فيقتلون، دون أن يُمعِنوا التفكير في ماهية الضحايا، ولماذا ينبغي التخلص منهم نهائيًا، لقد أخذ بول بوت عائلات المنوط بهم أن ينفذوا أوامره رهائن، لكي يفرض عليهم أن يدينوا بالولاء له، كما أمر ستالين باغتيال من يعصى أوامره من الجلّادين وكان يؤلّب القتلة بعضهم ضد بعض، "لم أكن لأقدم عونًا لأحد، لو كنت لذت بالفرار أو أعلنت التمرد"، هكذا قال كانج خيك إيو Kang Khek Ieu الرئيس الأسبق لأمن الدولة في نظام حكم بول بوت Pol Pots متذكّرًا.[214]

تتعاظم مكانة الجناة فيصبحوا أصحاب الحل والربط في حياة البشر وموتهم، حيثما يمارس العنف على نحو تعسفي، فيزداد شعورهم بالنشوة ويشعرون بعجز الضحايا ويستمتعون بأن تصبح حياة الآلاف رهن تصرفهم، إن ممارسة العنف تصيب بالعدوى حيث يتحوّل العنف إلى فتنة تغري أولئك الذين لا قيمة لهم، فلا يتمتّعوا بلذة السلطة المطلقة، إلا بوصفهم قتلة ومنفذي أوامر الحاكم، لا يحمل بُعد المسافة بين الجناة والضحايا والتنظيم العقلاني، الجناة على تخطِّي عراقيلهم، وإنما يحملهم على ذلك الاعتياد وانعدام الحس، حيث كان القتل في معسكرات الإبادة النازية وفي مواضع إطلاق الرصاص على الضحايا من الخلف في المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية التابعة لوزارة الداخلية في الاتحاد السوفيتي بمثابة "عمل يدوي"، كان الجناة آنذاك ينظرون إلى وجوه الضحايا وكانوا يقتلونهم وجهًا لوجه، ولم يكن هناك ما يثنيهم عن أداء حرفتهم الدموية، [215] لم تكن في رواندا أيضًا، حيثما سقط في غضون أسابيع قليلة من عام1994 مئات الآلاف ضحايا لعمليات الاضطهاد وللمذابح، ثمّة مسافة تفصل بين القاتل وضحيته، فحتى أن بعض الضحايا كانوا يعرفون قاتليهم.[216]

ما إن تتحول البيئة المحيطة بالإنسان إلى موطن للعنف، يرسم فيه قانون الأقوى شكل الحياة، يعتاد الناس على إصابة الآخرين بجروح وعلى قتلهم، فمن يضطر لفترة طويلة إلى التعايش مع العنف، ولا يتبقى له سوى الاختيار بين الحياة والموت، فإنه ينسى كيف كان حاله في ما مضى، يقول السيراليوني إسماعيل بياه Ishmael Bea، الذي سبق تجنيده عندما كان طفلًا، متذكّرًا أنه كان يمارس القتل بسهولة، كأنه يتجرّع الماء، حيث قال: "كانت وحدتي العسكرية عائلتي، وسلاحي مصدر إعاشتي وحمايتي، وكان قدَرَي إما أن أقتِل أو أُقتَل"،[217] في ظل حياة يسودها السلام لم تعد هناك حاجة لجندي متوحّش، عن هذا كتب فيللي بيتر ريزه، الذي شارك بوصفه جنديًا في القتال في صفوف القوات المسلحة الألمانية بالجبهة الشرقية أثناء الحرب العالمية الثانية، قائلًا: إن أجساد الجنود كان بها قُمّل وأن "حالتهم النفسية كانت متدهورة" وأنهم أثناء قضائهم لإجازاتهم في منازلهم لم يكن بإمكانهم أن يتحملوا الابتعاد عن الحرب لفترة طويلة، فانسحبوا عائدين إلى الحرب، التي أصبحت تمثل واقعهم الحقيقيّ، وأضاف ريزه، أنه كان بإمكانهم أن يقترفوا أي جريمة، وأنهم ما كان عليهم سوى أن يسوقوا كونهم جنودًا مبررًا لاقتراف تلك الجرائم، إن تلك الحقيقة لا تمُتّ للحداثة بصلة، فقد اعتاد الجنود المرتزقة في القرن السابع عشر على ممارسة العنف، فأصبح بمثابة طبيعتهم المُكتَسبَة، ولم يكونوا يشعرون بأنهم لا يزالون على قيد الحياة وأنهم المسيطرون على أمور أنفسهم، سوى في ميدان القتال وأثناء خوض المعركة، يعرف الجميع، أنهم يخترقون القواعد، التي لا يجوز تخطيها في حالة السلم، ومع ذلك يشعرون أن العنف أمر طبيعي"، [218] لم يكن الناس بحاجة إلى قيام الثورة الصناعية، لكي يختلقوا خُططًا للخلاص، كما أنهم لم يكونوا يحتاجون الماكينات، لكي يبتكروا مؤسسات مجتمعية، يتبلور فيها القهر والإرهاب»[219]، هذا ما كتبه عالم الاجتماع الأمريكي بارنجتون مور قبل خمسين عامًا.

هل كان رودولف هوس Rudolf Höss ونيكولاي يجوف Nikolaj Jeschow جلّادا ستالين يمثلان دولة البُستاني الحديثة وفكرها البيروقراطي؟ من الصعوبة بمكان أن نصدّق ذلك، فقد كانا على الأرجح رجلين، اتخذا من القتل صفقة فمارساه لأنهما لم يتعرضا للعقاب على ما اقترفاه من جرائم، التقى إرنست يونجر Ernst Jünger في باريس في ديسمبر من عام 1941 مع الكاتب الفرنسي الفاشي لويس-فرديناند سيلين Louis-Ferdinand Céline، حيث أعرب سيلين عن أسفه من السلوك المتحفظ للقوات المسلحة الألمانية، فتساءل: لماذا لم يعصفوا باليهود ويقتلونهم؟

فأدرك يونجر على الفور، أن سيلين ينتسب لتلك الفئة من البشر، التي كانت على استعداد لفعل أي شيء، "لا يستمع مثل هؤلاء البشر سوى إلى لحنٍ واحد، لكنه لحن مُلِّح على نحو بالغ، إنهم يشبهون الماكينات الحديدية، التي تسير في طريقها، حتى تتحطم، إنه لأمر غريب، أن تتحدث مثل تلك العقليات عن العلم، كأن تتحدث عن علم الأحياء مثلًا، فهم يستخدمون العلم، كأنهم أناس من العصر الحجري، ما أسفر لهم عن وسيلة خالصة لقتل أناس آخرين"،[220] كما أتاحت لهم الحرب والديكتاتورية إمكانية أن يبلغوا، ما لم يتمكنوا من بلوغه في حالة السلم.

إن دولة البُستاني الحديثة ونظامها البيروقراطي تعد أدوات تستخدم ضد تفشي العنف الوحشي، إن التعريف الدقيق للحقوق والواجبات وتسجيل سكان الدولة وتصنيفهم لا يحددان فقط من يجب أن يظل مستبعدًا من النظام، وإنما يسفران عن إجراءات يمكن التكهن بها، كما ينتجان الثقة، فالناس يعرفون التطلعات، التي يمكنهم بها تحقيق النجاح والتطلعات التي يخفقون بها، لا يجازف أحد بالاستهتار بذلك الأمان المنبثق عن تحقيق النظام، إذا لم يكن يتوقع ما الذي سيحل محله، إن دولة إنفاذ القانون تعد أحد إنجازات الحداثة، غير أن القتل الجماعي ينقض تلك الدولة، فيحتفل بأعظم انتصاراته، حيثما تختفي كل مكاسب الحداثة، ولا جدال في أن الحداثة كانت عصرًا للتحول التِّقَني والاجتماعي الجذري، ففيها تضاعفت الوسائل التدميرية، بيد أن الإعداد الأخلاقي الأساسي للإنسان ظل غير متأثر بذلك، ولقد تغيرت بعض أخلاقيات الناس مع مرور الزمن، لكنه لم يكن تغييرًا كليًا على الإطلاق.[221]

لا يتعلّق الأمر دائمًا سوى بما يمكن للإنسان فعله وما يجوز له فعله، وعندما تتاح الفرص لفعل ما يمكن للإنسان فعله وما يجوز له فعله، فإن كل الأمور تصبح متاحة، هناك مَواطن لا يمكن فيها تجنب وقوع العنف؛ ففي غرفة تنفيذ أحكام الإعدام المُلحقة بالسجن وفي حلبة الملاكمة وفي ميدان القتال يقع العنف، مع أنه لا يجوز ممارسته في كل أشكاله، لا يوجد رادع داخلي يعرقل الناس، عن قتل أناس آخرين، وإنما هناك ما يعوقهم فقط عن قتل آخرين "في مكان غير مُعدّ لذلك"، ما علينا سوى أن نُبَيّن لهم، إن كانوا يتواجدون في منطقة يحق فيها ممارسة العنف أو يُحظَر فيها ممارسته، وسيكونون حينئذ متأهبين لأنْ يضربوا بأعراف السلام عرض الحائط.[222]

كتب سيجموند فرويدSigmund Freud عن الأهوال المرتكبة في القرن العشرين، قائلًا: "إن البشر لم ينحّطوا في حقيقة الأمر على هذا النحو مُطلقًا؛ لأنهم لم يرتقوا مُطلقًا على النحو، الذي يظنه البعض".[223]

في الخفاء.. العُنف الهيكلي

إن العنف يؤلم، وحيثما لا يشعر أحد بألم أو خوف، لا يسود عنف، فمن يعيشون في أوضاع قمعية يشعرون بالآلام رغم أن أحدًا لا يرى جراحهم، وهم مستسلمون لمصيرهم ومذعنون رغم أنهم لا يعلمون حتى من الذي يجب أن يُحملوه مسئولية معاناتهم؟ أو كيف يمكنهم الدفاع عن أنفسهم؟ من لا يلحظ الآثار التي يخلفها العنف في نفوس الأفراد لن يعلم شيئًا عنه، لكن هل تحتاج الضحية الجاني لكي تستشعر ألمها عنفًا؟ هل يوجد عنف دونَ جانٍ؟ ووجه دون صوت ورائحة؟ دون جراح مفتوحة؟

هياكل

قبل أربعين عامًا حاول النرويجي يوهان جالتونج JohanGaltung الباحث في مجال السلام الإجابة عن هذا السؤال، حيث صدر كتابه "العنف الهيكلي"لأول مرة بالألمانية عام1975 وتألّف من عددٍ من المقالات الصادرة في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، حيث صاغ جالتونج في كلمات روح ذلك العصر، ليعبر عما هفت إليه الملايين:القضاء على العنف والجوع والشقاء للأبد وإرساء السلام الأبدي في العالم، فقد اعتقد جالتونج وأتباعه أن من يدرك الأسس التي تستند إليها الأوضاع القمعية المقيدة لحرية الأشخاص، يمكنه أيضًا تغييرها والتغلب عليها، واقتصر تفكير الباحث في علوم السلام على العنف الجسدي فقط؛ لأنه لم يكن للأشخاص الذين أرادوا التحرر من قوقعة التبعية اختيار آخر سوى الضرب وإطلاق الرصاص، ويعتقد جالتونج أن انتهاء الحرب وإحلال السلام بين الناس غير مُجدٍ؛ لأن السبب الحقيقي للصراعات يكمن في الأوضاع التي تخلق العنف، لذلك يجب -من وجهة نظره-القضاء على هذه الأوضاع؛ لأن السلام لا يمكن أن يتحقق دون مساواة وحرية ورخاء، وبهذا سيكون التغلب على العنف الهيكلي بداية النهاية لكل أنواع العنف.

يرى جالتونج أنه يجب تعريف العنف تعريفًا شاملًا قدر المستطاع، إذ يقول: «ينشأ العنف عندما يكون مستوى حالة الأفراد العضوية والفكرية الواقعية أقل من المستوى الممكن الوصول إليه»[224]، ويضيف أن العنف هو "الاختلاف بين الممكن والواقع، بين ما كان يمكن تحقيقه وبين ما تحقق"، ما المقصود بذلك على وجه التحديد؟ يتحدث جالتونج عن عنف دون أطراف فاعلة، ينشأ عندما تتسع الهوة بين ما هو كائن وما وجب أن يكون، عندما لا يكون العالم كما يمكن أن يكون، وإذا اختفى العنف الجسدي فقط من العالم، لن يجدي ذلك نفعًا؛ لأن كل أنظمة المجتمع" القمعية» والتي لا يمكن تقبلها، ستظل باقية.

لا شيء «كما يمكن أن يكون»، فهناك دائمًا فجوة بين الحياة التي نحياها وبين فرصها المحتملة، لذا يجب على الفرد أن يستغل كل الفرص التي تتيحها الحياة حتى يقلل المعاناة، لكن لماذا يعد الفارق بين الكائن وما ينبغي أن يكون عنفًا؟ أجاب جالتونج على هذا السؤال إجابة واضحة: عندما توفي إنسان القرن الثامن عشر بسبب مرض السُّل، لم يرَ أحد في ذلك شكلًا من أشكال العنف؛ لأنه لم تتوافر إمكانات لمنع وفاته، لكن إذا قضى إنسان نحبه على الرغم من أن علاجه كان ممكنًا، يمكن أن يرى الجميع في ذلك عنفًا، كذلك لا يمكن لأحد منع حدوث زلزال، لكن عندما يمكن في وقت ما منعه ورغم ذلك يلقى أناس حتفهم داخل منازلهم المنهارة، لا يمكن أن يُرجع أحد ذلك إلى القدر أوالمصادفة، ينطبق ذلك –أيضًا- على "ارتفاع متوسط عمر الطبقة العليا المتوقع بنسبة الضِّعف عن متوسط عمر الطبقة الدنيا» في مجتمع ما، ويؤكد جالتونج أنه حيثما يعاني بشر بسبب امتناع من يعيشوا في رخاء عن مساعدتهم، يُرتَكب عنف، حيث تتوافر في العصر الحالي كل الإمكانات التي من شأنها زيادة متوسط العمر المتوقع ومحو الجوع من العالم، ورغم ذلك يعاني أناس ويلقون حتفهم، ولذلك يجب أن يُعتبر الإهمال عنفًا.

لكن كيف يمكن تخيل عنف دون جانٍ؟ يتحدث جالتونج عن عنف في النظام، حيث يُكافأ أشخاص ويُتلاعب بهم وتتم رشوتهم من خلال الاستهلاك، وبذلك يسلبون أنفسهم مساحات للتصرف كانت ستتاح لهم لو لم يكونوا مرتشين، يفعل الأشخاص في ظل عبوديتهم لهياكل خفية وتقاليد مجتمعية ما لم يكونوا ليفعلوه في ظروف "حرة"، فيرغب الإنسان في فعل الخير، لكنه يُمنع ما كان يمكن أن يفعله لو لم يكن ضحية لظروفه، يضيف جالتونج أن "الكذب» يجب "أن يتساوى مع العنف"،

بالطبع ينتج عن هذا العنف ضحايا يمكن معرفتهم، لكنه لا يولد عن قصد ولا يقوم به جناة تمكن معرفتهم، فهو «تلاعب خفي داخل النظام ويظهر في صورة توزيع غير عادل للسلطة وبالتالي في صورة فرص حياة غير متكافئة"[225]، وأردف أن الموارد والقدرة على الالتحاق بالتعليم والحصول على الرعاية الطبية في كل مكان في العالم الحديث غير موزعة بعدالة، وأن فئة قليلة تقرر من يحق له الحصول عليها، وأنه لا يلزم معرفة الجناة أو الضحايا لإدراك أن التوزيع غير العادل للفرص يتسبب في الجوع والشقاء، فالعنف ليس فصلًا في مسرحية إنسانية وإنما قوة تولدها الهياكل، "إذا ضرب زوج زوجته فإن هذه حالة واضحة من حالات العنف الشخصي، لكن إذا أبقى مليون زوج مليون زوجة في جهل فإن هذا عنف هيكلي[226] سببه «الظلم الاجتماعي».

يمكن أن يسبب العنف الخفي –أيضًا- ألمًا، يطلق عليه جالتونج "العنف المستتر"، وعلى عكس "العنف الواضح» -الذي يمكن رؤيته والإحساس به- لا يترك العنف المستتر آثارًا على الجسد، لكنه يسبب ألمًا، هل يجب أن نعتقد أن الهياكل تمارس عنفًا مستترًا؟ من الواضح أن جالتونج لم يشك في ذلك مطلقًا، فهو يرى أننا يجب أن نتخيل فقط نظامًا مجتمعيًا ثوريًا يرمي إلى تحقيق المساواة، لا يزال غير مستقر وغير محصن تحصينًا كافيًا ضد الارتداد إلى نظام هرمي، فالنظام الجديد قائم بالفعل لكن النظام القديم لم ينته تمامًا بعد، فلا تزال بالإمكان رؤية رموزه في كل مكان والإحساس بروحه، لذلك يمكن أن يهدد الحكام الجدد بعودة النظام القديم ويستغلون الهياكل لصالح سلطتهم، "إذا لم تكن مهذبًا، سنعيد كل الهياكل القبيحة التي كانت لدينا في الماضي مرة أخرى"[227]حيث ينطبع-وفقًا لجالتونج- الخوف من الارتداد إلى الأنظمة السابقة في الأذهان والأنفس، ويسبب توترًا شديدًا للمجتمعات لدرجة تتحول بها الهياكل إلى عنف مستتر.

إن العنف الهيكلي خفيٌّ؛ لأنه لا يجرح الأجساد وليس له جانٍ، فهو-طبقًا لجالتونج- «صامت"، وساكن مثل "المياه الراكدة"، مضيفًا أن العنف الشخصي في مجتمع ساكن يعتبر اختراقًا لروتين الحياة اليومية، بينما لا يُلاحظ العنف الهيكلي على الإطلاق ويعتبر "طبيعيًا" كالهواء المحيط بنا، من جهة أخرى تستشعر المجتمعات الديناميكية في أوربا العنف الهيكلي تعكيرًا لصفو السلام؛ لأنه "يعيق مجرى المياه الحر ويسبب كل الدوامات المحتملة والثورات"[228]، أينما يَسُد السكون، يصبح العنف جزءًا من النظام، حيث يعمل على استقراره في الخفاء، في المجتمعات الديناميكية

فقط -حيث لا تعتبر التغيرات أزمات وإنما فرصًا- يلفت الانتباه أن الهياكل تسبب عنفًا، حيث يرغب الفرد في تغييرات لكن الهياكل تعيقه عن الوصول لما يرغب فيه.

إن توزيع السلطة في كل المجتمعات الحديثة غير عادل، فالبعض أقوى من الآخرين، لكن عدم المساواة-حسب ما يزعمه جالتونج- يولد عنفًا هيكليًا لا يمكن للتابعين الإفلات من مخالبه، وعادةً لا يدركون حتى أن الهياكل سبب معاناتهم في العالم؛ لأنهم لا يشككون في النظم الهرمية وأنظمة السلطة وإنما يعتبرونها من البديهيات، يعاني الجوعى والمرضى والفقراء-بالرغم من إمكانية مساعدتهم- عنفًا لا يعلمون مصدره ولا يدركون آليته، لكنه يسبب لهم آلامًا عضوية ونفسية، حيث يرون الآخرين يحيون حياة أفضل من حياتهم ويعلمون أنه لا يمكنهم الحصول على ما يمتلكه الآخرون، فيولد الحزن يأسًا وعدم المساواة غضبًا، ولذلك فإن استخدام العنف الجسدي -وفقًا لجالتونج- مصرح به عندما يُوَجه ضد هياكل قمعية تقيد الأفراد بقيود عدم المساواة والتبعية.

كان تحليل جالتونج للعنف الهيكلي محاولةً لإضفاء شرعية على ثورات الساخطين ومسلوبي الحقوق؛ لأنه يرى أنه عندما يسبب التمييز والظلم الاجتماعي عنفًا، فلا يمكن أن تدحض حجة ثورة المقمعين، ويرى أنه يجب دائمًا التفكير جيدًا في ما إذا كان استخدام العنف الشخصي مبررًا، لكن عندما يكون عدد الضحايا الناتج عن استخدام العنف أقل من عدد الضحايا التي تخلفها الهياكل، لا تكون الثورة المسلحة حينئذ -وفقًا لجالتونج- مسموحًا بها فقط وإنما ضرورية، مضيفًا أنهم في كوبا نجحوا في الحد من العنف الهيكلي؛ لأن المقموعين توقفوا عن طاعة النظام القمعي، لكن ماذا كان إذن نظام فيدل كاسترو الديكتاتوري؟ لم يرَ جالتونج ضرورة في الإجابة على هذا السؤال؛ لأنه اعتقد أنه قد اتضح-بالبرهان- أن الثورات تمحي العنف الهيكلي من العالم.[229]

عبر مفهوم جالتونج -بشأن العنف الهيكلي- عن روح عصر سبعينيات القرن الماضي، وما يلزم توضيحه اليوم كان في ذاك الوقت (عصر الهياكل والأنظمة) أمرًا بديهيًا: أن الأفراد أحرار بطبيعتهم، لكن النظم الهرمية والأنظمة تعيقهم عن أن يصبحوا ما كان يمكن أن يكونوه، وأن العالم سيتحول لمكان دون نظم هرمية وقيود ما أن تُدرك طبيعة العنف، حيث كان مفهوم العنف الهيكلي من أساسيات الفكر التنويري حول تعريف الإنسان، فاعتقد جان جاك روسو أن الإنسان حر بطبيعته، لكنه مقيد بسلاسل دائمًا؛ لأنه أصبح عبدًا للظروف.[230]

لم يعبر أحد عن هذه الرؤية للعالم تعبيرًا أوضح من تعبير كارل ماركس–في عام 1852- الذي استنكر تاريخ الإنسانية واصفًا إياه بتاريخ القيود، وقال: «يصنع الأفراد تاريخهم الخاص، لكنهم لا يصنعونه بمحض إراداتهم ولا في ظل ظروف اختاروها بأنفسهم، وإنما ظروف موجودة مسبقًا ومتوارثة»،[231]وأضاف أن الإنسان كان في البداية مستقلًا بذاته وحرًا وسيّد مصيره، لكنه عندما بدأ توزيع العمل والملكية تحول لعبدٍ لظروف اختارها بنفسه، وأن الملكية وتوزيع العمل تسبَّبا في عدم المساواة الذي أفرز بدوره هياكل قمعية؛ لأنه وجبت حماية الذين يحظون بالسلطة والممتلكات من الذين لا يمتلكون شيئًا، يقبل الأفراد في عالم توزيع العمل أوضاعًا لا يمكن تجنبها ويعلقون بذلك في هياكل لن يمكنهم الإفلات منها مرة أخرى، ويبحث الأقوياء عن تبريرات للأوضاع ويجد المقموعون في هذه التبريرات عزاءً لهم، كان الدين بالنسبة لماركس أيدولوجية الإنسان المغترب؛ لأنه نقل السعادة من الأرض إلى السماء، وتستر على الظلم السائد على الأرض، كما شارك الخاضعون في القمع الممارس عليهم؛ لأنهم اعتقدوا في ما كان مهمًّا للأقوياء، طالب ماركس بضرورة إيقاظ العالم من الحلم لإعادة الفرد لنفسه مرة أخرى، "إن نقد الدين هو في جوهره نقد للحياة الدنيوية التي يعد الدين الهالة المقدسة المحيطة بها».[232]

الحُرُّ هو من يغادر مملكة الضرورة ويتحرر من عنف "القوى الموضوعية"، "إن الجماعة الظاهرية التي وحّدت الأفراد استقلت عنهم وكانت-باعتبارها اتحادًا لطبقة مقابل طبقة أخرى- بالنسبة للطبقة المحكومة ليس فقط مجتمعًا وهميًا فقط، وإنما أيضًا قيدًا جديدًا، بينما يحقق الأفراد في الجماعات الحقيقية حريتهم من خلال اتحادهم»[233]،يستعيد الأفراد في النهاية وعيهم ويتخلصوا من الهياكل التي استعبدتهم، ويعم السلام عندما تُدرَك الممارسات غير المرئية للسلطة والقمع ويُقضى عليها، كان على ماركس وجالتونج أن يقولا إن نهاية العنف الهيكلي هي نهاية العنف الشخصي؛ لأن الأفراد الذين وجدوا الحرية والهوية لن يعود لديهم أسباب لممارسة العنف، تدوم بعض المفاهيم أطول عندما تُغير تسميتها من آن لآخر وتعطي انطباعًا ظاهريًا بأن لديها جديدًا لتضيفه، فقد اخترع جالتونج نفسه مصطلح "العنف الثقافي»، ولم يستطع أن يشرحه سوى بقوله إنه أداة لتشريع العنف الهيكلي، لكنه ظل مدينًا لقرائه بالإجابة الحقيقية عن السؤال حول ماهية العنف الثقافي،[234]قبل عدة سنوات طرحت غاياتري سبيفاك GayatriSpivak الباحثة في مجال الأدب على الساحة مصطلح "العنف المعرفي»، الذي وصفته بأنه "مشروع كبير ومتباين

يُدار عن بعد لتشكيل القوة الاستعمارية بشكل مختلف»،[235]لم يستطع جالتونج ولا سبيفاك شرح الفارق بين العنف الثقافي والعنف المعرفي من جهة والعنف الهيكلي من جهة أخرى، ولا شرح الفائدة التي تُجنى عندما يصبح التشريع والتشكيل أفعالًا عنيفة، بدلًا من ذلك لم يطلقا تعبيرًا عن الأهمية سوى ما هو موجود بالفعل في مصطلح العنف الهيكلي، واستعباد هيكل خفي وغير واعٍ لأفراد لا يعلمون ما يحدث لهم، وقد قال فوكو-بالفعل- كل شيء عن هذه التقنيات الخاصة بتربية الذات والآخر، كما كانت مؤسسات الحداثة الشمولية (المدرسة، أو العيادة، أو السجن) بالنسبة له أماكن لسلطة خفية تسيطر على الفرد بالقوة عن طريق تقنيات التأديب، وتحدث فوكو عن السلطة التي تتخلل الجسد وتقيد الأفراد في نسيج خفي من التبعية، كان يمكن أن يسمي ما وصفه عنفًا هيكليًا أيضًا، فقد رأى فوكو-مثل جالتونج وأنصاره- في شمولية السلطة وفي التحكم الدائم وإخضاع الفرد شكلًا من أشكال العنف، لكنه ترك لأسباب حكيمة السؤال حول ما الواجب فعله لمواجهة ذلك بلا إجابة.[236]

عنف بلا جانٍ

لا شك أن ما يعتبره البعض تحسينًا لجودة حياتهم لا يراه الكل مكسبًا، حيث ينتج عن الهياكل فائزون وخاسرون؛ لأنها تتيح فرصًا للبعض وتجعل البعض الآخر خفيًا، فتسمح للبعض بالمقاومة وتحكم على البعض بالانقياد، إن الأفراد الذين يتحتم عليهم تحمل الأوبئة والكوارث الطبيعية دون مساعدة من أحد، والذين لا يستطيعون التمرد على عاداتهم وطبيعتهم؛ لأن ثقافتهم تمنعهم من فعل ما يحين أوانه يشعرون بآلام حتى عندما لا يوجد جانٍتمكن معرفته، فيعاني المنبوذون من عزلتهم التي تنشأ نتيجة لقواعد غير مكتوبة تقصيهم إلى الهامش، وقد يقنع بعضهم نفسه بأنه بلا قيمة وأن وجوده بلا فائدة، وينهون حياتهم لأنهم يشعرون أن وجودهم عبء لا يحتمل، يتحدث عالم الاجتماع ماركوس شرور MarkusSchroerعن عنف بلا وجه لن يستطيع الخاسرون حتى الدفاع عن أنفسهم ضده، مضيفًا أن هؤلاء الذين يمكنهم العزف على أوتار المجتمع القائم على مبدأ الجدارة هم الوحيدون الذين يستغلون الفرص في القرية الكونية في العصر الحالي، فمن لا يستطيع المواكبة ولا يعرف كيف يستفيد من الحرية غير المحدودة، يصبح خاسرًا لا يعود بإمكانه الاعتماد على تأمين الحياة الذي تتيحه المؤسسات التقليدية مثل العائلة، إذا كان واحدًا ضمن كثيرين، يمكنه-

وفقًا لشرور- تحمل كونه ليس فائزًا، فدائمًا كان هناك خاسرون، لكنهم في الوقت الحالي سيواجَهون بكونهم خاسرين يوميًا، وأردف قائلًا إنه لن يمر يوم لن يشهد فيه الجميع من الفائز ومن الخاسر، لم يعد أحد في عالم العولمة وحيدًا مع مصيره، لا يوجد جناة ولا خصوم، ورغم ذلك يعاني الأفراد من العرض العلني لانعدام أهميتهم وانعدام سلطتهم.[237]

يعاني العديد من الأفراد فقط لأن الجميع نبذهم، مثلطفل لا يخاطبه أحد لأنه يرتدي ملابس الخاسرين أو يتحدث لغتهم، مستهلكون دون نقود، عاطلون عن العمل دون فرص في المستقبل، ومهاجرون لا يتحدثون لغة البلد التي هاجروا إليها ويواجَهون يوميًا بعدم الحاجة إليهم، فيقنعون بأنهم لن يكونوا يومًا أغنياء وذوي سلطة، لا يوجد مخرج؛ لأن المتسبب في الآلام غير معروف؛ فإذا عرف الخاسرون ما يحدث لهم، لأمكنهم تغيير مجريات الأمور، ولم يعد البعض مندمجين في أي مكان، فسكان العشوائيات الذين لم يعد بإمكانهم الإفلات من وضعهم الحرج، والعاطلون عن العمل الذين لا طلب على مهاراتهم، ومَنْ لا يمتلك ورقًا، لا يمكنه الذهاب للمدرسة، ومَنْ لا يمتلك مسكنًا، لا يمكنه العمل ولا فتح حساب بنكي، ومَنْ لا يعمل، لا يجد مسكنًا، كما أن مَنْ لا يستطيع القراءة ولا الكتابة، لا يصل لوسائل الاتصال، فلا مفر من هذه الحلقة المفرغة، فمَنْ يخرج من نظام، لا يدخل في نظام آخر، حيث يسرق العنف الهيكلي الذي تمارسه الأنظمة الوظيفية شخصية الأفراد، ويعاملهم فقط كونهم أجسامًا تسعى لكسب قوتها اليومي.[238]

يزعم شرور أن العنف الهيكلي لا يلزم أن يكون قمعيًا ليسبب آلامًا، حيث يكمن تأثيره وفقًا لشرور في تجاهل الأفراد غير المندمجين في أي نظام؛ فالأسوأ من استغلال الفرد هو ألا يعد فردًا؛ لذلك يجب أن نفرق ليس فقط بين الفائزين والخاسرين وإنما بين الفائزين والخاسرين والمستبعدين، فالزائدين عن الحاجة ليسوا بلا فائدة؛ لأن وظيفتهم تكمن في كونهم مستبعدين، حيث يرى النافعون تفوقهم في مرآة عديمي الفائدة ويتركون المستبعدين ليشعروا بمعنى ألا يكونوا منتمين لذلك، لكن الزائدين عن الحاجة مصدر خوف –أيضًا- لكل خاسر لا يريد أن يُستبعد ويبذل لذلك كل ما بوسعه ليبقى في النظام، يؤثر العنف الهيكلي تأثيراته الحقيقية عند الذين لا يزالون جزءًا من النظام، ويخشون الخروج منه، يقول لومان: «إن العواقب الظاهرة لإقصاء ما هي في الوقت ذاته حافز لمشاركة آخرين".[239]

يعتقد بعض علماء الاجتماع أنه كلما كانت الهياكل التي نتحرك فيها أكثر تعقيدًا، كان شعورنا بالانقياد أكبر، فنحن نسبح في تيار الأحداث ولا نستطيع تغيير ما لا نتحمله، يسمح الفرد للأمور التي لا يستطيع التأثير عليها بالحدوث ويرتضي بالحدود المفروضة عليه، فماذا يمكن أن يفعله إنسان ليس إلا ترس في صندوق تروس لا يديره أحد؟ لا يعد الاحتجاج على الهياكل نهاية الانقياد، يولد التعقيد عدم الوضوح، والنظام تبعية، يدفع الفقراء وغير المتعلمين في كل مكان ثمنًا لذلك أغلى مما يدفعه الأغنياء والمتعلمون؛ لأنهم لا يقدرون على التحرر من التبعية، ما يراه البعض فرصة، يستشعره آخرون يأسًا!.

لكن هل يعد استبعاد الأفراد من علاقات اجتماعية عنفًا بلا وجه؟ هل المعاناة التي بلا مصدر في العالم عنف؟ هل يوجد عنف دون جانٍ على الإطلاق؟ للإجابة على هذه الأسئلة يجب أن نعلم ما إذا كان المستبعدون يشعرون بآلام؟ لأنه إذا لم يشعر أحد بآلام، فإنه لا يوجد عنف، ألا يستبعد الأفراد دومًا شيئًا ما؟ يُستبعد الطلاب من لجان الامتحانات، يُحرم الأساتذة من الضحك، لا يبدأ الطلاب في الصراخ إلا عندما يكونون وحدهم، يُقصى الأطفال من القرارات التي يتخذها الآباء لهم، ما يعتبر عنفًا يتغير مع الوقت والظروف والوسط الاجتماعي، يقول لومان:»إن التصرفات التي نعتبرها عنفًا تتوقف على "الحساسية المُكتسبة"، قبل أربعين عامًا اعتبر أغلب الناس في ألمانيا الصفعة أسلوبًا تربويًا أو وسيلة تسلية، كان المعلمون يضربون التلاميذ والآباء يضربون الأبناء ورغم ذلك لم يشعر سوى عدد قليل ممن عاشوا في ذلك الوقت أن العقاب الجسدي اعتداء على كرامة الإنسان، بينما يعتبره العديد اليوم فعلًا عنيفًا مهينًا».[240]

يتألم البعض عندما تُجرح كرامتهم أو يُشكَك في رجولتهم، لكنهم لا يشعرون بشيء عندما تُساء معاملة النساء أو الأطفال، تزداد مثل هذه الحساسية بنفس مقدار اختفاء العنف من واقع الحياة، فمَنْ يتحتَّم عليه العيش في ظل عنف لا يقدر على الاتسام بالحساسية؛ فالقسوة في الأوضاع الحرجة وسيلة لتأمين الحياة، ما يعد قمعًا ويُستنكر في بلدنا، يبدو في مناطق أخرى من العالم تصرفًا طبيعيًا لتأديب الأفراد وتربيتهم، لا يكاد يتعجب أحد هناك -حيث النظام متداعٍ- من العقوبات القاسية والعنف، حتى في المجتمعات الأوربية لا يشعر الجميع بالاشمئزاز عندما يصبحون شهودًا على عنف، إن المجرمين الذين يقتلون شريكًا رميًا بالرصاص، والآباء الذين يقتلون بناتهم لأنهن خرقن

ميثاق شرف العائلة، يفعلون المُتوقع منهم في وسطهم الاجتماعي، لكنهم يفعلون ذلك غير واعين بأنهم ضحايا لظروفهم، عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم، وإنما يتصرفون كأنهم سادة قراراتهم، فالعنف والقمع بالنسبة لهم جزآن من الحياة، لماذا يُفترض أن يشعر هؤلاء تحديدًا بأن العنف الهيكلي غير المرئي مؤلم؟

إن العنف الجسدي يمكن الإحساس به ورؤيته، فالإصابات التي تنتج عن اللكمات والأسلحة تترك أثرًا على الجسد، ويمكن رؤية بل وإدراك من يسدد الضربات ومن يتلقاها، كذلك يمكن معرفة الفاعل الذي أطلق تهديدات، لكن ماذا نعرف عن عواقب العنف؟ ماذا يحدث للشخص الذي ضُرب؟ وما التأثيرات التي يسببها التهديد؟ لا نعرف في العديد من الحالات حتى ما إذا كان الضحية المحتمل قد غضب من الاستهزاء أو السبّ، لا يتألم الأشخاص في كل الحالات عندما يُهانون أو يُضربون، فالألعاب السادية المازوخية والاشتباكات بين الهوليجانز التي أصبحت طقوسًا تتم برضا جميع الأطراف، ما يمكن أن يراه المراقبون عنفًا، يمتع من يضرب ومن يتلقى الضربات، حتى وإن كان يؤلمهم، ولا يمكن أن نتحدث عن عنف، عندما لا يعتبر أحد نفسه ضحية ولا يوجد ضرر.[241]

يُساق الأفراد في الأوضاع المعقدة وغير الواضحة ويُجمعون معًا كما لو كانت يد خفية تقوم بذلك، فيكون البعض بالأعلى والآخرون بالأسفل.

إن توزيع السلطة دائمًا ما يكون غير متماثل؛ لأن صاحب السلطة يصدر أوامر ويتوقع طاعة الخاضعين له، فلا يوجد نظام لا يقوم على عدم المساواة، لكن عدم المساواة وعدم العدالة ليسا عنفًا؛ لأنهما إذا كانا كذلك، يجب حينئذ وصف كل نظام هرمي بأنه عنيف، إن الأنظمة المجتمعية المعقدة والمجردة هي في الحقيقة تأمين ضد التسلط والعنف،[242]حتى وإن افترضنا أن عدم المساواة الاجتماعية شرط فقط للعنف الهيكلي، يظل غير واضح مَن الجاني ومَن الضحية، فالتوزيع غير المتماثل للسلطة ليس اعتداءً على جسد أو نفس إنسان، فهو يخلق مجالًا من الفرص، ودائرة من الأفعال وردود الأفعال.[243]

لا يعتبر الجميع الالتحاق بالمدرسة تحررًا، والانتماء للطبقة الدنيا وصمة عار، والحياة في الجهل عارًا، فغنى الأغنياء بالنسبة للفقراء ليس انعكاسًا لفقرهم فقط، وإنما يمكن أن يكون –أيضًا- مصدرًا للخيال، عندما يكون الوصول لما يمتلكه الأغنياء ممكنًا عن طريق العمل والإنجاز، هل يعاني فعلًا كل الأفراد الذين تعرض وسائل الإعلام انعدام أهميتهم على العلن؟ يمكن أن يغلق الفرد التلفاز أو يلغي اشتراك المجلة المصورة التي تكتب عن نجاح الأغنياء وغباء الفقراء، يمكن أن يتخيل أنه يحيا في عالم آخر ويكون سعيدًا -للحظة على الأقل- في خياله، يتغلب كل فرد على تحديات الحياة بطريقته، ولا يشعر الجميع أن الفقر والجهل عنف يُمارس ضد من لا يستطيعون المقاومة.

يفترض من يتحدث عن العنف الهيكلي أن المستبعدين يرغبون في الاندماج بأي ثمن، لكن هل يشعر فعلًا كل من استُبعد من نظام بالعزلة والألم؟ يمكن لمن ليس عضوًا في المجتمع الراقي، ولمن لا يعمل أن يرفض ما لا ينتمي إليه، أن يكون التعليم والسلوك الراقي في بعض الأوساط الاجتماعية أسبابًا للاستبعاد، فقد حدث لبعض الأكاديميين الذين رفضوا التصديق بأن قواعد الشارع مختلفة عن الجامعة ما هو أسوأ من ذلك، لقد اعتدنا اعتبار الفقراء مستبعدين وضحايا هياكل قمعية، لكن هل سألنا أنفسنا من قبل ما إذا كان من افترضنا أنهم زائدين على الحاجة يعتبرون أنفسهم مستبعدين أيضًا؟ أليس ممكنًا أن يعتبر المستبعدون المزعومون نظام حياتهم مميزًا، ويحتقرون من لا يستطيع تحقيق مسعاه على طريقتهم؟ ليس كل شجار وكل إضراب وكل اضطهاد صرخات لمخلوقات مقهورة ضد ظلم العالم، وإنما عرضًا للفارق الاجتماعي والقوة التي كانت ستوجَه إلى الآخرين العُزَل لو لم تحمهم الدولة من عنف الشارع.

لا تؤدي القوة الجسدية والاستعداد لاستخدام العنف الجسدي عادةً إلى الحصول على امتيازات في مجتمع ما،[244]لكن إذا أُبطل العمل بقواعد السلام في منطقة عنف، سيصبح المهم قوة العضلات والعزم، وليس التعليم والسلوك الراقي، وسيشعر مرهفو الحس والمثقفون بالخجل من مجتمعهم إذا سُلبت منهم سلطتهم، وسينقلب في لحظة العنف غير المرئي على أصحابه.[245]

«يقف أمام نافذتنا متشرد، يحمل سلاحًا معلقًا بحبل على كتفه (جندي تابع للميليشيات الحمراء)، يخاف الشارع بأكمله منه خوفًا لم يكونوا ليشعروا به في الماضي عند رؤية الآلاف من أفراد

الشرطة العابسين"،[246]هذا ما كتبه الأديب إيوان بونين Iwan Bunin في أبريل 1919 عن معايشته للحرب الأهلية الروسية، من يوم لآخر تحول شخص من لا شيء إلى شخص عنيف مرهوب الجانب.

تقوم السلطة على أساس عدم المساواة، لكن لا يعتبر الضعفاء كل علاقة سلطة قمعًا، كما يمكن أن تستند عدم المساواة إلى الموافقة غير الشفهية على أن من يستطيعون ما لا يستطيعه الفرد نفسه، ينبغي أن يحصلوا على سلطة أكبر من الفرد نفسه، لا يعاني الطلاب لأن أساتذتهم -وليس هم- يحددون أسئلة امتحاناتهم ودرجاتهم، ويعلم الجميع أن الامتحانات تعكس موازين قوى غير متكافئة، ورغم ذلك لا يقترح أحد أن يُكأفأ الجهل مثل العلم لصالح تحقيق المساواة، كذلك لا يرى سوى القليلين صورة من صور العنف في أن الأساتذة يتقاضون أموالًا أكثر ويحظون بمكانة اجتماعية أعلى من معظم الطلاب؛ لأن الجميع يعلم أن الأساتذة لم يولدوا علماء، وإنما أصبحوا كذلك عن طريق العمل، في الشركات –أيضًا- يطيع المرؤوسون رؤساءهم؛ لأنهم ينتظرون مقابل ذلك كسب معيشتهم والترقّي في عملهم، أو لأنهم يحلمون أن يحق لهم يومًا ما إصدار أوامر بدورهم، لا يمكن تخيل نظام لا يقوم على الأنظمة الهرمية وعدم المساواة الاجتماعية؛ لأن فرص الحياة والقدرات موزعة توزيعًا متفاوتًا، ليست السلطة والتدرج والاختلاف الاجتماعي مرادفات للعنف؛ لأنه حيثما يحيا الأفراد معًا ويتوجب عليهم حماية أنفسهم من الآخرين، يوجَهون إلى منح السلطة، إن التوزيع غير المتساوي لموارد السلطة نمط من أنماط التنظيم الاجتماعي وليس القمع؛ لأن منح السلطة هو إعفاء من أعباء اتخاذ القرار، ولا يمكن تجنبه.[247]

يحتاج العنف إلى جانٍ -ليكون عنفًا- وإلى ضحايا يعلمون من تسبب في إيلامهم، ولا يستطيع أحد أن يتعرف على جانٍ في صورة هيكل، ولا يمكن لهيكل أن يكون فاعلًا، بالطبع يمكن لتقلبات العملة أو الكوارث البيئية التسبب في الجوع والشقاء، لكن لا تقلبات العملة ولا الكوارث البيئية فاعلة، من يقع رغمًا عنه في أزمة ولا يعلم كيف حدثت هذه الأزمة، يمكن أن يُحَمِّل الإله أو الطقس السيء مسئولية شقائه، إلا أن التعساء لن يعتبروا أنفسهم ضحايا عنف، لكن ما أن تمتنع حكومتهم عن مساعدتهم، ويجول الناهبون والعصابات قراهم بحثًا عن أعضاء جدد وغنائم، حتى يروا ظروف شقائهم رؤية مختلفة، يمارس العنفَ أشخاص ويعاني منه أشخاص ويحلله أشخاص،

إن الطفل الذي لا يتحدث معه أحد لا يصبح ضحية عنف بسبب وجود هياكل خفية جعلت حياته لا تطاق، وإنما لأنه يمكنه تحديد أسماء الأطفال الآخرين الذين لا يرغبون في التحدث معه ويتجاهلونه، وربما يؤلمه التجاهل بالفعل، يعتبر الأفراد عدم أهميتهم وكونهم لا حاجة لهم عنفًا؛ لأن الآخرين يحتقرونهم، أينما يكون الجميع فقراء وعاطلين عن العمل، لا يوجد سبب للشكوى من الاحتقار والسخرية، ويكون وضع أحد المشردين حرجًا؛ لأن الظروف لم تترك له اختيارًا، ولو لم يشعره الآخرون بالاحتقار، لما كان ضحية للعنف، ولكان ضحية لظروفه.

يعاني الأفراد -بلا شك- من أساليب الرقابة والتأديب التي ترغمهم على فعل ما لا يرغبون في فعله، لكن هذا الإجبار لم يكن ليكون ممكنًا دون السلطات التي تعاقب من يخرق القواعد، لو كان الإنسان وحيدًا، لتحرر من معظم القيود في الحال ودون عواقب، لكن هل يعد الخضوع لظروف خلقها الفرد بنفسه عنفًا أيضاً؟ ربما يلاحظ معظم مواطني المجتمعات الديمقراطية في أوربا -بالكاد- أن عاداتهم تستند إلى التربية والانضباط الداخلي، وأن الحياة الاجتماعية متوازنة طالما يتصرف كل فرد كما ينتظر من الآخرين أن يتصرفوا، لا يشعر أحد بالخوف من العقوبات والنبذ، ولا يستشعر أحد اتباع القواعد ضغطًا وإجبارًا، عندما يكافأ انضباط النفس بالأمان القانوني والنظامي، تتيح القواعد حريات لم يكن الفرد ليحظى بها لو فعل كل فرد ما يحلو له، فالنظام مصدر الحرية، ولا يحسه المرء قمعًا إلا هناك حيث يرتبط بالخوف والإرهاب.

العنف النفسي

ليس للعنف الهيكلي جناة معلومين، ليس له سوى ضحايا، ولا يوضح العنف الهيكلي شيئًا؛ لأنه يخلط بين علاقات التبعية الاجتماعية والعنف، إن التهديد المستمر بالإصابة أو القتل هو بلا شك أسلوب استخدام قوة مختلف عن القمع الذي تسببه القيود الهيكلية، ويرتبط العنف النفسي بالتجربة التي عايشتها الضحية،[248]فالجاني والضحية معلومان، حتى وإن كانت الجروح التي نتجت عن العنف خفية، ولا شك أن الاحتقار والتمييز ونشر الإرهاب يتسببون في آلام نفسية وجسدية، ويجرحون الجسد والنفس، ويمكن أن تترسب عواقب إذلال مستمر في نفس الإنسان لعقود حتى تصبح الضحية مقيدة في شباك الخوف وانعدام الثقة، لكن هذا النوع من العنف له متسبب فيه،

حيث يربط الضحايا بين آلامهم ووجوه الأفراد وحركات أجسادهم، حتى وإن انتهى العنف من تنفيذ أغراضه منذ مدة طويلة وبقي حاضرًا كذكرى في الذاكرة فقط.

لكن يمكن اعتبار العنف النفسي –أيضًا- أسلوبًا سلطويًا يجبر الأفراد على اتباع نظام من التبعية المؤلمة ويدمجهم في هيكل، والأمثلة على ذلك عديدة: السجن بوصفه مكانًا لأساليب التأديب التي يحددها الآخرون، والاستعداد المستتر للنظم الديكتاتورية لاستخدام العنف، والفترة الزمنية بين الهجمات الإرهابية عندما يتملك الخوف الأجسام؛ لأن لا أحد يعرف من سيكون الضحية التالية، والتهديد المستمر للأفراد بالقتل، ذلك التهديد الذي يسبب آلامًا جسدية لكل من يُوَجه له، ومناخ الشك الذي يسيطر على قصور الحكام المستبدين، والعنف الرمزي الذي يستخدمه أفراد المافيا والعصابات، وأتباع أمراء الحرب، أو الحكام المتسلطون ليس فقط ليرهبوا ضحاياهم المحتملين، وإنما –أيضًا- ليكونوا في حالة من الإثارة والخوف الدائمين، وتوجيه الاتهام الذي يلزم المشتبه فيه بالدفاع عن نفسه، وكلما دافع عن نفسه، ازداد الشك به، والإذلال العلني، وإهانة وقتل أحد الأتباع غير المخلصين، والمحاكمات العلنية، وجلسات النقد الذاتي، وحبس أفراد العائلة، وعرض أدوات التعذيب، يمكن أن يكون كل ذلك أسوأ من اندلاع العنف نفسه؛ لأن التهديدات التي لا نهاية لها تغير السلوك وتزيد انعدام الثقة وتجعل الخوف حاضرًا يوميًا، ليس فقط بالنسبة للضحايا وإنما أيضاَ بالنسبة للجناة، ويستهدف التعذيب الناجح النفس وليس الجسد، فالعنف النفسي قوة تُستخدم في الإصابة المتعمدة لأشخاص آخرين، يمكنها تغيير حياة الأفراد بشدة لدرجة أن تصبح فقط ردًّا على العنف.[249]

إن خوف المواطنين في الأنظمة الديكتاتورية المستبدَّة والشمولية هو سلاح السلطة، حيث يُجبر المواطنون على الغناء للزعيم ومدحه وتعظيم صورته وتماثيله والمشاركة في الانتخابات التي لا تخدم هدفًا آخر سوى عرض سلطة النظام المطلقة أمام كل الأعين، فيصبحون شهودًا على وحشية مدمرة لا يمكنهم نسيانها، ويمرضون مع مرور الوقت من الخزي والغضب؛ لأنهم لا يمكنهم نسيان ما أصاب غيرهم، فيصبحون ضحايا العنف دون أن يتعرضوا هم لتعذيب، تتذكر الكاتبة هيرتا موللر Herta Müller أن والديها "دُرِّبوا» خوفًا، وجعلهم الخوف من العقاب خاضعين وجبناء، لم تجد المخابرات الرومانية صعوبة في التعامل مع مثل هؤلاء الأشخاص،[250] كان

الإرهاب في كمبوديا في عهد الخمير الحمر في المقام الأول رسالة للناجين: «انظروا ماذا يحدث عندما لا تطيعونا!».

تذكر أحد الناجين من النظام الإرهابي قائلاً: «أمرنا جنود الخمير الحمر ألا نحب والدينا بعد الآن أو نعتمد عليهم؛ لأنهم ليسوا الداعمين لنا، بعد أن قبض الخمير الحمر على كل الأطفال، أسكنونا في أكواخ طويلة من الخيزران، أسقفها من سَعف النخيل، وكان هناك في المنتصف مكان خالٍ تقام فيه كل الأنشطة، جلسنا جميعًا فيه وسمعنا مكبرات الصوت، أمرونا أن نحب قادتنا الجدد، ونعمل بجد من أجل رخاء بلادنا، عندما كنا نمتنع عن فعل ما يأمروننا به كانوا يضربونا بعنف عقابًا لنا، كانوا يجبروننا بعد التجمع على التهليل وترديد الهتاف بأننا نحب حكومتنا الجديدة، ونحترمها ونعمل بجد من أجلها».[251]

من يستطيع إجبار أفراد على إنكار ما هو واضح، يمتلك سلطة مطلقة، فمن تقنيات سلطة الأنظمة المستبدة أن تطلب من مواطنيها التّغنّي بانعدام حريتهم، "لقد تحسنت الحياة أيها الرفاق، لقد أصبحت الحياة أكثر بهجة»، أعلنها ستالين في نوفمبر 1935، كان الملايين جوعى أو مُهجرين أو قتلى، بينما يتحدث الديكتاتور عن الحياة المبهجة، وقد تحتم على التلاميذ والعمال والمزارعين والشيوعين أن يؤكدوا يوميًا أن حياتهم البائسة لا يمكن أن تكون أكثر سعادة،[252]بينما الإرهاب والعنف حولهم، جلس الناس ليلًا متصلبين في شققهم عندما بدأ الصيد الكبير عام 1937، وكان أفراد الشرطة السرية يلقون القبض -كل ليلة- على أشخاص في بيوتهم ويرسلونهم إلى السجن، كما أُطلق الرصاص على أناس يوميًا وأُلقوا في حفر أو أُرسلوا في عربات قطار إلى سيبريا، لم يمر يوم دون محاكمات علنية وجلسات النقد الذاتي، حرّض النظام الناس بعضهم على بعض وعيّن جواسيس ومخبرين وقلب العالم رأسًا على عقب، ما كان أخلاقيًا، لم يعد كذلك، لم يكن لأحد خيار سوى التأقلم على الحياة في العالم الجديد، يتذكر الباحث في مجال الأدب ديمتري ليخاتشوفDmitri Lichatschow ذلك الوقت كما لو أنه استيقظ من كابوس سيء، قائلًا إنه كان يُلقَى القبض على أفراد يوميًا، لكن لم يجرؤ أحد على الحديث عن ذلك، قالت عاملة في دار نشره: لو اختفت غدًا كاتدرائية القديس إسحاق من مكانها، سيتصرف الجميع كما لو لم يحدث شيئًا».[253]

لم يستطع الطاغية ومعاونوه حتى العيش في سلام؛ لأنهم أصبحوا ضحايا لحالة البارانويا التي كانوا قد سببوها، فقد كانت كلمة الديكتاتور -في قصره- قانونًا، وكان باستطاعته -بغمزة عين- أن يُرقي أتباعه المحيطين به أو يحكم عليهم بالموت، لذلك عمل معاونوه –أيضًا- على نجاتهم، الترقية أو الموت، فمَن كان في عالم البارانويا، لزم عليه أن يختار بين هذين الخيارين وأن يتعلم قراءة الإشارات التي يرسلها الطاغية إلى أتباعه، عندما يبوح لأحدهم بسر ويراقب ما إذا كان سيحتفظ به لنفسه، عندما يمدح أو يوبخ أحدهم أو يطلب أن يحضِر أحدهم له ضحايا جددًا وغنيمة وفيرة، كان من المحتمل أن تكون أي كلمة تقال على طاولة الحاكم خاطئة وأن يُساء فهم أي حركة صغيرة، كان من الممكن أن يستغل الرفاق أي خطأ لتوجيه اتهام من أجل إظهار تميزهم، من وقع تحت اتهام أو سخط وجب عليه أن يخشى على حياته، فَقَدَ البعض السيطرة على نفسه، بينما كان بعضهم مميزين واجتازوا كل الاختبارات وكان باستطاعة الطاغية أن يطلب منهم كل شيء، كره أتباع ستالين بعضهم بعضًا ولم يعد بإمكانهم حتى رؤية بعضهم لبعض بعد وفاة الديكتاتور، فقد كانوا قد أذلّوا أنفسهم أمام بعضهم وخجلوا من كونهم ضعفاء وقتلة، وظل الخوف والبارانويا رفيقيهم الدائمين حتى موتهم.[254]

ينشأ العنف النفسي -الذي يُخلّف آثارًا مستمرة- في مواقف توتر شديد، لا سيما عندما يتوقع الأفراد هجومًا ويشعرون بالخوف من الموت، ويسود الشعور بعدم الأمان، فمن يتحتم عليه العيش في خوف، يُصبح شخصًا آخر، فيتأقلم على الإحساس بعدم الأمان ولا يتحدث في العلن إلا بصوت خفيض، ويأخذ في اعتباره مع من يتكلم، وماذا يقول، يسمع الخائف الإشارات أكثر وضوحًا ممن ليس لديه سبب للخوف، يشعر الجاسوس باليأس؛ لأنه أصبح خائنًا رغم إرادته، ويخجل من جُبنه الذي جعله جاسوسًا، ويكره نفسه لأنه لم يستطع تحمل الضغط، كتب ستيبان بودلوبنيStepan Podlubnyj ، ابن أحد المزارعين، في الأول من أكتوبر1932 في دفتر يومياته: "اللعنة، أنا ساخط للغاية لأنني اشتركت مع جهاز الأمن (GPU)، إنهم يعكرون صفو مزاجي ويسلبونني جزءًا كبيرًا من حياتي، عندما أخرج من هناك أكون كالمخمور، مُنهكًا للغاية لدرجة أنني قد أنام على الفور، أخرج من هناك مريضًا وذلك بعد خمس وعشرين دقيقة فقط، ماذا لو احتجزوني يومًا بأكمله؟ سأُجنّ عندئذ بالطبع، شيء مخيف ومؤلم، يسبب انقباضات في القلب، وتجتاح العقل أفكار مشوشة، لقد كنت يائسًا جدًا في أول يوم هناك»، تحول بودلوبني إلى جانٍ؛ لأنه لم يرد أن يكون

ضحية، لكنه أصبح أيضًا واحدًا من المميزين الذين عانوا من خيانة الآخرين للنجاة بأنفسهم فقط. [255]

يتذكر رجل كمبودي قضى طفولته قسرًا في معسكر عمل تابع للخمير الحمر، قائلاً: «كنا نعمل سبعة أيام في الأسبوع دون راحة، لم نكن نتوقف عن العمل إلا لنشهد قتل أحدهم، لنَعْتَبِرَ من ذلك، مرَّت ثمانية عشر عامًا وما زال بإمكاني تذكر أحد مشاهد القتل تلك بقوة، وتصيبني الكوابيس أحيانًا، أتذكر يومًا كنا ننزع الحشائش في حديقة الخضروات، دوَّى الصفير في وسط العمل وأمرنا الجنود بالتوقف عن العمل، وأخبرونا بضرورة الذهاب إلى مقر التجمع لرؤية عقاب أحد الخونة، عندما وصلنا إلى هناك أجبرونا على الجلوس في الأمام بالقرب من الضحية لكي نتمكن من رؤية ما سيحدث، كان هناك في وسط التجمع امرأة قُيدت يداها خلف ظهرها وكانت حاملًا؛ إذ برز بطنُها أمامها، ووقف أمامها طفل صغير يبلغ من العمر ستة أعوام، وقد حمل في يده فأسًا، صرخ فينا بصوته الحاد أن نشاهد ما سيفعل وإلا سنكون القتلى القادمون، كان الصبي شيطانًا من الجحيم، عيناه حمراوان ولم تعد له هيئة إنسان، أخذ يضرب جسد المرأة المسكينة بعنف باستخدام الجهة الخلفية للفأس حتى سقطت على الأرض، وظل يضربها حتى خارت قواه».[256]

يعلم من ينفذون أحكام الإعدام -تمامًا- ما الذي تثيره عروض الرعب، ويستخدمون الخوف سلاحًا، وهم يعلمون أن ساعتهم تحين عندما يعجز الخائفون عن التفكير في شيء آخر سوى العنف، تستند سلطتهم إلى إلحاق الأذى النفسي بالعديدين ممن فقدوا القدرة على الدفاع عن أنفسهم بمواجهتهم، يُعد العنف النفسي والتهديد والإرهاب أدوات لإجبار الناجين على الطاعة في كل الأنظمة المستبدة، حيث اعتمد كل الحكام المستبدين على السلطة الناتجة عن خوف المواطنين، عندما وصل موبوتو إلى الحكم في الكونغو عن طريق انقلاب عام 1966، جعل أعوانه يذيعون في الراديو أن أربعة وزراء خططوا للانقلاب عليه، وبعد ذلك بقليل حُكم على الوزراء بالإعدام ونُفذ الحكم علنًا، وأُعدموا شنقًا في قلب مدينة كينشاسا في ميدان كبير بحضور عشرات الآلاف من المواطنين الذين أُجبِروا على حضور تلك المسرحية المرعبة، صُعق المشاهدون وساد الفزع، هكذا أوضح موبوتو للجميع ما هو قادر عليه.

تتذكر شاهدة عيان الواقعة، قائلة: «منذ ذلك الوقت شعر الجميع بالخوف، واكتسبت قوات الأمن سلطة كبيرة، لم يعد أحد يجرؤ على تناول الطعام في مطعم حديقة الحيوان (ملتقى السياسيين والدبلوماسيين) خوفًا من تنصت النُدُل عليهم، حتى في الجنازات كنا نخشى من الصبية الصغار باعة المكسرات خوفًا من أن يكونوا جواسيس».[257]

يتحتم على الناجين العيش مع صور الوحشية، ويكون تعاملهم مع كوابيسهم أسهل عندما يغادرون مسرح الأحداث الوحشية ويستقرون حيثما لا يكون العنف جزءًا من الحياة اليومية، بينما يشعر من يبقى هناك بانعدام الأمان، يتزعزع شعورهم بالاطمئنان ويفقدون قدرتهم على الحياة مع آخرين في مجتمع بلا خوف، من يشهد عنفًا مفرطًا، تشوهه رؤية الأهوال، ويتحول العنف الجسدي إلى عنف نفسي مما يُصعّب العودة إلى الحياة الطبيعية ويُسهّل على الحكام المستبدين التلاعب بخوف المواطنين وإقناعهم أن عدم حريتهم مصدر النظام، من يُشتبه به أو تلاحقه الشرطة السرية يصبح وحيدًا، يبتعد عنه الأصدقاء والمقربون، فلا أحد يرغب في أن يُرى مع المجذوم، إن تجربة الخوف والوحدة هي التي تفرق الجماعات وتدفع بالموصومين إلى الجنون،[258] كتبت عالمة الأنثروبولوجيا لينا جرين Lina Green عن الحياة في مرتفعات جواتيمالا: "يُقسّم الخوف الجماعات عبر انعدام الثقة والتوتر، ليس فقط من الغرباء ولكن –أيضًا- من المقربين، يزدهر الخوف في المواقف الغامضة، وتخلق الادعاءات والنميمة والتلميحات والشائعات حول قوائم الموت مُناخًا من الشك، لا أحد يعلم تحديدًا مَن يُكوّن مَن»، وتشير إلى أن الخوف يكون قد انطبع في أجساد وتخيلات الأفراد، "تحول الخوف في المرتفعات إلى أسلوب حياة، فهو وسيط للسلطة خفي وغير محدد وكامن».[259]

يتحتم على الأفراد أن يعيشوا للأبد مع الذنب الذي حملوه على عاتقهم عندما تؤدي خيانتهم إلى إصابة آخرين أو وفاتهم، ما الذي يشعر به المخبر الذي أُجبر على الإبلاغ عن زملاء أو أصدقاء بوصفهم أعداءً للشعب؟ كيف يمكنه مواصلة العيش مع فكرة كونه المسئول عن معاناة أبرياء؟ سيفكر حتمًا دائمًا أن من أبلغ عنه قد يعود وينتقم، يسمع القتلة -رغمًا عنهم- صرخات ضحاياهم ليلًا، وينظر المخبرون في أعين من يبلغون عنهم، يعلم الجميع ماذا حدث، لكن لا يُسمح لأحد بالحديث عما حدث، يعلم الجميع ما يمكن حدوثه، ولذلك يعتقد كل فرد أنه التالي، يصبح الأشخاص

-في ظل الخوف- فقراء ووحيدين؛ لأنهم لا يستطيعون مشاركة معاناتهم مع أحد، وينقلون خوفهم وشكوكهم إلى أطفالهم، لا يستطيع الضحايا التخلص من انعدام الثقة والخوف ببساطة مثل تغيير الجلود والعودة إلى الحياة الطبيعية، حيث يظلون أسرى للسلطة طالما ظل الخوف مشاركًا في اللعبة.[260]

بهذا تستمر عواقب العنف النفسي وتستمر إمكانية الشعور بها حتى عندما ينتهي عصر البارانويا؛ لأن الخائفين لا يعتقدون في وجود نهاية للعنف؛ لأنهم اختبروا بأنفسهم كم هو سهل أن تصبح ضحية لظروف مفروضة، وكم هو سهل عبور العتبة المؤدية إلى مملكة العنف، هل يمكنهم الوثوق في السلام؟ ربما لا يكون سوى خدعة من أصحاب السلطة بينما يعملون في الخفاء على إصدار طبعة جديدة من الترهيب؟ يبقى التوتر ويستمر غالبًا لما يزيد على جيلين أو ثلاثة أجيال، لكن حتى في ذكريات الأفراد عن أهوال الماضي، فهم لا يتذكرون العنف غير المرئي دون جانٍ، حيث يربطون الذكريات بوجوه أفراد الشرطة السرية وبالمصطلحات التي استخدموها وبمرتدي الزي الرسمي الموحد، والذين أصدروا أوامر، وبالموظفين الذين اختالوا بأنفسهم في دور الأسياد ذوي السلطة المتحكمين في الحياة والموت، حكت أنَا Anna المهندسة المعمارية من موسكو للكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش Swetlana Alexijewitsch أنها سرعان ما تُغير الرصيف الذي تمشي عليه بمجرد أن ترى شخصًا في زي رسمي؛ فبعد كل ما عانته في ظل نظام الحكم الديكتاتوري أصبح انعدام الثقة والخوف طبيعتها الثانية التي لا تستطيع تغييرها بسهولة،[261] إن العنف النفسي خفي، لكنه ليس مجردًا، حيث يرتبط بالأفراد الذين يُحمِلهم الشخص مسؤوليته، يؤثر العنف النفسي سواء كان تهديدًا بالقتل أو الإصابة في حياة الأفراد للأبد ويجبرهم على تغيير سلوكهم بحيث لا يكون سوى رد فعل على الأخطار المهددة، وتتراكم آثار العنف في اللاوعي، وتسيطر على الجسد وتشكل هيكلًا مستقلًا بذاته، وبالرغم من أنه لم يعد هناك وجود لجانٍ، وبالرغم من انتهاء الإذلال، إلا أن الضحايا يظلون أسرى لعنف خفي لا ينتهي أبدًا.

القدر.. أنثروبولوجيا العُنف

"قبل يومين ازداد تعداد وحدة التأديب ببضع عشرات من الوافدين الجدد، الذين سيقوا من سلوفاكيا"، قالها السجين البولنديّ فيسلاف كيلارWieslaw Kielar وهو يسترجع ذكرياته عن يوم في معسكر الاعتقال أوشفيتس: "كانوا يهودًا فقط، وبناءً على أمرٍ خاص من قائد المعسكر وجب قتلهم جميعًا هنا، ولقد قبل ذلك رجالُ وحدة الحمايةSS والمساجين الذين يعملون لصالح السجانين من وحدة التأديب المعروفين بمسمى الكابو، بأريحيةٍ تامة، وبعد يومين لم يبقَ منهم إلا قليل، واحدٌ من اليهود، ذو جسمٍ قويّ وسمينٌ بشكلٍ مفزع، ظل صامدًا، رغم أنه كان مقصد إهانات الكابو ورجال وحدة الحماية، كان يعمل بمثابرة ويبذل قصارى جهده كي لا يكون هناك سببٌ للشكوى منه، وكأنه ما زال يعتقد بصدق اللافتة المُعلَّقة فوق باب المعسكر على بُعد خطواتٍ من محل عمله: "العمل يمنحُك الحرية"، ظل يدفع عرباتٍ ثقيلة تُجّر باليد، كانت دائمًا محمَّلة عن آخرها، وهو ما كان كابو المساجين يهتمون به بالفعل، كان يدفعها بخطواتٍ متسارعة مجتازًا عنبر عصاباتٍ من قطّاع الطرق، الذين كانوا يضربونه بهراواتٍ في أيديهم حيثما اتفق، وكان هو يُلقي الحصى في الموضع المُحدد ويعود أدراجه من الطريق نفسه بالعربة الخاوية، وهكذا دواليك، ضربٌ ودفعٌ وركل بالأقدام، كان يحاول ما وسعه من جهد أن يجتاز المصيدة المنصوبة له بأقصى سرعةٍ ممكنة، كان هناك لوح مُلقى فوق حفرةٍ عميقةٍ جدًا، كان يعرف أن أغلب بني وطنه قُضّوا في هذا الموضع، ومن لم يستطع أن يحفظ توازنه على اللوح، كان يسقط مع العربة في تلك الحفرة التي لم تكن منها عودة، هناك كان أقسى الحراس المساجين أو الكابو ينهالون على ضحاياهم بالضرب المبرّح بالهراوات حتى الموت، لكن عندما يتواجد في الأسفل واحدٌ يمتلك من القوة ما يكفي لتسلق المنحدر المنزلق أسفل الأقدام، ويبدو كما لو كان قادرًا على تحرير نفسه من المصيدة، كان يعيده عريف الحماية الواقف بالأعلى إلى الحفرة مجددًا بركلةٍ قويةٍ مُحكمة، تشبّث اليهوديّ ذو البنية القوية، لكنه بدأ يضعف وتخور قواه بشكلٍ ملحوظ، كان يعلم بكل تأكيد أنه مُحاطٌ من جميع الجهات وأنه لن يستطيع النجاة، لكنه قاتَل حتى النهاية كي ينجو بحياته، حاول أن يعمل، لكن

حركاته ازداد تباطؤها وعدم تناسقها، مثل رجلٍ ضرير ظل يتلمس بيديه في الجوار باحثًا عن العربة، التي كانت منكفئةً تمامًا أمام قدميه، ربما لم يعد يرى الكثير في واقع الأمر، ولأنه أخذ يدور حائرًا داخل الدائرة، ظل معلَّقًا بأقدامه في المواضع غير المستوية من الأرض، وما إن أفلتها ووقع، حتى قفز كابو السجن عليه وارتموا بأجسادهم كما تنقضّ الذئاب الجائعة على ضحيتها، وفي الموضع، الذي كان يقف فيه من قبل عريفٌ واحدٌ فقط من وحدة الحماية، كان هناك الكثير بالفعل، وحتى الضباط الأعلى مرتبةً كانوا هنالك، كان ذلك بمثابة متعة حقيقية لهم، عكفوا على ضرب واحدٍ من المساجين لثلاثة أيام حتى أردوه قتيلًا، إما أنه كان عجزًا من الجلاّدين، أو أن ذلك اليهوديّ كان رجلًا خارقًا، على أي حال كانت واقعةً تستحق المشاهدة، ظل اليهوديّ لأمدٍ طويل ملقىً في الحفرة، مُغطى بالتراب عن آخره، ويسيل العرقُ على كل جسده، وتسيلُ منه الدماء.

(...) ظل اليهوديّ المغدور يصارعُ الموت بجهدٍ يفوق طاقة البشر، حاول الآن التسلّق خارجًا من الحفرة، شرع يتسلق خطوةً بعد أخرى إلى الأعلى، لكن الرمال تحركت من تحت قدميه، وسقط مجددًا على أرضية الحفرة، ليعاود محاولة الصعود مرةً أخرى بالعزيمة والمثابرة نفسهما، لكن عبثًا كان ذلك؛ لأنه انزلق إلى الموضع نفسه الذي حاول الصعود منه مسبقًا، لا شيء من شأننا! هذا ربما يستمر لفترةٍ طويلة، استمتع رجالُ وحدة الحماية بعرضٍ رائع! أردنا أن نعود أدراجنا، لكن مدير المعسكر فريتزشFritzsch نهرنا بصوتٍ جعلنا نتسمَّر في أماكننا دون حراك، طبيبُ المعسكر، الذي كان حاضرًا أيضًا، كان ينظّف عدسات نظارته المغطاة بالضباب بمنديلٍ في يده، ولّى فريتزش وجهه صوب مجموعةٍ صغيرة من المتفرجين، وقال شيئًا بصوتٍ فيه استعلاء، كان ذلك الصوتُ موجَّهًا على ما يبدو إلى الضباط، إذ -دون أن ينتظروا حتى انتهاء كلماته- قفز اثنان منهم إلى الحفرة، سُمِع دوّى الهراوات القوية وصوتُ أنين الشخص المُعذَّب تنخلعُ له القلوب، خرَّ اليهوديُّ على ركبتيه وبلا إرادةٍ منه أسلم ظهره، الذي تركَّز كلُ شيء عليه، ليتلقى الضربات المتوالية، كان الضباط يعرفون إلى أين يوجهون ضرباتهم، انهالوا بالضرب على الكليتين، كان ذلك عملًا احترافيًا، رفع المُعذَّب جسده مرةً أخرى، وصرخ في لوعةٍ وأسى، لدرجة جعلت الضباط يقفون بلا حراك، ثم أُغشي عليه، انتهى، فجأةً انحنى فوقه واحدٌ من الضباط، قال مؤكِّدًا: "ما زال حيًا"، وتوجَّه إلى المتفرجين بدهشةٍ ظاهرة على مُحيَّاه، صرخ قائدُ المعسكر ووجهه يكاد ينفجر من فرط الحنق والغضب: "ماذا؟"، كان هذا كافيًا، وضع الضابط عصاةً فوق الرقبة القوية

للسجين المُشرف على الموت، ضغط عليها لبرهة، إلى أن تحطم شيءٌ ما، هذه المرة لم يعد هناك مجال للشك، أن تلك كانت النهاية.

(...) في الحفرة الرملية شرعت الآن وحدة التأديب في العمل بإيقاعٍ بطيء، على ما يبدو أُرهق الضباط من أثر المعركة التي استمرت ثلاثة أيام، ولم يكن لديهم –أيضًا- شخصٌ، يستطيعون التباهي أمامه، كان المتفرجون قد رحلوا وهم شِباع من الانطباعات، لقد نقلوا اليهوديّ الأخير من وحدة التأديب إلى حجر إبراهيم، حيث نفّذوا المهمة الموكلة إليهم من قائد المعسكر، لقد مُزق [الخنزير السمين] إربًا في هذه الأثناء على طاولة التشريح الخاصة بالمحرقة".[262]

يستطيع الإنسان أن يقتل دائمًا، لكن كيف يمكن لأشخاصٍ كانوا -قبل سنواتٍ قلائل- أرباب أسر شجعانًا، أن يرتكبوا مثل هذه الفظائع؟ لا قائد المعسكر كارل فريتزش Karl Fritzsch ولا رجال وحدة الحماية، الذين أحاطوا به، كانوا في شبابهم ذوي ميولٍ ظاهرة إلى العنف، لماذا قتلوا دون داعٍ أو مناسبة؟ لماذا أذاقوا الضحايا أشد العذاب، بدلًا من أن يردوهم قتلى؟ لم يُكلفهم أحدٌ بتعذيب اليهود حتى الموت، هل قرأوا كتاب "كفاحي" لهتلر؟ هل كانوا معادين للسامية عن قناعةٍ واعتقاد؟ هل أمكن لهم أن يستندوا إلى الأوامر العليا، التي وجهتهم إلى تعذيب الناس حتى الموت؟ وفقًا لكل ما نعرفه عن القتلة، هم لم يكونوا ساديين ولا أيديولوجيين، كان بمقدورهم الامتناع عن تنفيذ الأوامر والتخلّي عن مناصبهم داخل المعسكر، لو لم يكن أحدٌ ليعدمهم رميًا بالرصاص جراء ذلك، لكنهم بقوا؛ لأنهم فضَّلوا الخدمة في القتل على الخدمة في الجبهة، وواصلوا الجعجعة الوحشية، حتى عندما أصبحت نهاية الرايخ الثالث أمرًا حتميًا، فلماذا؟ ولماذا لم يقتلوا بأنفسهم، وإنما تركوا الضرب والتعذيب للمعتقلين؟ وكيف حدث أن قاتَل المعتقلون بعضهم بعضًا، يومًا بعد آخر، دون أن يجرؤ واحدٌ منهم على أن يناهض الأسياد داخل المعسكر؟ الإجابة بسيطة ومُحبطة: يستطيع الناس أن يقتلوا دومًا، عندما يعلمون بأن ما يفعلونه سوف يبقى دون عقاب، وحالما يتحول القتلُ إلى أمر، لا يعودُ أحدٌ بحاجةٍ إلى رخصةٍ أو شرعنة، وكان أوشفيتس مكانًا للإفساد، ساحةً لارتكاب العنف، لم يستطع أن يبقى فيها على قيد الحياة إلا من خاطر باللعب مع الموت دون شروط، لقد حوَّل المعسكر الجناة إلى جلادين غير مبالين وجعل من الضحايا متواطئين مجبرين على العنف، يَقتُلون حتى لا يُقتَلون.

لن يصبح الشخصُ ما هو عليه؛ لأنه لم يكن أي شخصٍ آخر من قبل مطلقًا، لطالما كان العنف إمكانيةً لجذب الاهتمام وإنفاذ السلطة، صحيحٌ أن الإنسان بصفته كائنًا مثقفًا قادرٌ على تصميم عالمٍ يستطيع فيه أشخاصٌ آخرون –أيضًا- الحصول على مكانٍ لهم؛ لأنه عندما لا نستطيع أن نفهم، ما يرمي إليه الآخرون، يجب علينا أن نبقى ما نحن عليه، الفهم هو الطريقة الوجودية للكينونة، [263] لكن يندرج ضمن الوجود –أيضًا- الانفتاح على الجروح والمعرفة بالموت، الذي يمكن أن يعاجلنا في أي وقت، هذه المعرفة تشكِّل سلوكنا الاجتماعيّ، والعنف هو خيارٌ جذابٌ للتعامل، عندما تنفتح مَواطن يمكن له أن يتمدد بداخلها.

العنفُ هو من مكوّنات قدرنا، في كل الأماكن وفي كل العصور جُرح الناس وقتلوا بعضهم بعضًا، لذلك من العبث -حسبما كتب تروتس فون تروتا- استهلاك خواطر كثيرة حول نهاية العنف، بل يجب النظر إليه باعتباره إمكانيةً كي تصبح إنسانًا، لكن لطالما كان علم اجتماع العنف -حسبما يشكو هو- مجرد بحث في تجنب العنف، ينشغل بالتنقيب عن الأسباب، بدلًا من الانخراط في الموضوع ذاته، وينطلق العنف بدافع مرضِي، أو بوصفه سلوكًا عقلانيًا فعَّالًا، في الحقيقة لم يتحدث المؤرخون وعلماء الاجتماع عن العنف نفسه، وإنما تطرَّقوا إلى ظروفه فقط، إن "علم اجتماع الأسباب" هو "علم اجتماع المشكلات الاجتماعية"[264]، لكن مثل هذا البحث حول الأسباب لم يخبر بشيء عن الحدث نفسه أو عن توابعه، وبدلًا من ذلك أخذ يعدد أوجه القصور الاجتماعية، والتي يجب فقط أن تُواجَه، حتى يُدحَر العنفُ نهائيًا: الظروف المعيشية البائسة والفقر والتجاهل والقمع، يجب على المرء فقط أن يُغيّر الظروف، التي تحوّل الأخيار إلى أشرار -هكذا يقولون- وبهذا يعود مرتكب العنف إلى حظيرة السلام.

ألم يندهش أحد أنه يُدَّعى منذ عقود أن الظروف هي التي أفرزت مرتكبي أعمال العنف، وأنه ليس هناك إصلاحٌ واحد قضى على العنف من العالم؟ يقول فون تروتا: "إن علم اجتماع أسباب العنف هو علم اجتماع يتناول جناةً دون مسؤولية"،[265] تحوَّل الجناة إلى متلقين للأوامر في هياكل خفية، تُملي عليهم ما يفعلون وما يتركون، وما أن يقع أشخاصٌ ضحيةً لأعمال عنف، حتى يظهر خبراء يتحدثون عن تبريراتٍ غير مسؤولة، ويقولون إنه لا بدَّ من تحسين الظروف المعيشية للجناة، حتى يتوقفوا عن إنزال الوبال بالآخرين، لكن ما الذي يمكن أن ينكشف أثناء ذلك؟ لقد

انشغلوا طويلًا بظروفٍ لا يمكن تحملها في الظاهر، دون محاولةٍ لرفعها، وجعلوا الجناة ضحايا لظروفهم، لكن البحث، الذي يصف الأسباب الاجتماعية، لم يذكر شيئًا عن الأجساد والاعتداءات وتوسعاتها.

من يسرق أو يضرب أو يغتصب، ربما تكون لديه أسبابٌ لفعل ذلك، لكن دوافع الجناة ليست متطابقةً مع مبرراتهم، هم يعرفون ماهية الدوافع التي عليهم أن يسوقوها، حتى يُفهم أنهم لم يستطيعوا فعل شيءٍ خلاف ذلك، لا أحد يجب أن يعرف ماذا كان ضروريًا بالنسبة لهم حقًا، عندما اجتازوا حدود المسموح به، لكن الآن يعرف كل شخص، ما هو المسموح به في كل سياق وما هو الممنوع، وأيضًا الأشخاص الذين يمارسون العنف، بدلًا من ذلك يغذّي الفاعلون الرأي العام بدوافع يمكن أن تقف أمام أعين أولئك الذين يعتبرون نهاية العنف أمرًا ممكنًا، هم يقولون إنهم لم يتعرضوا في الحياة إلا للظلم والإقصاء وأُسيئت معاملتهم في طفولتهم، لكن في ظروفٍ مغايرة، ربما يتفاخرون بأفعالهم، الدوافع تُحقق التوقعات، المرء يروي ما يبدو مناسبًا ومفهومًا في سياق التواصل.[266]

لا أحد يعرف -على وجه الدقة- ما هي الدوافع التي تُحرك الجاني حقًا، عندما يروّع أشخاصًا آخرين، هو يتمتع بلا شك بإرادةٍ حرة ويستطيع أن يغلب ميوله في كل وقت، إذا ما تعقَّل واحتكم إلى رشده، لو كان ضعيفًا أو ذا إعاقةٍ جسدية، ربما ما أقدم على نزاعٍ عنيف، ولتوقع دفاعًا أو انتقامًا، ولكان أكثر حذرًا ولفكَّر جيدًا، إن كان استخدام العنف يستحق فعلًا، إن مَن ليس عليه أن يخشى عقوبةً أو إقصاءً ولديه فريسةٌ وافرة أمام ناظريه، يرى العنف وسيلةً واعدة كي يحوز ما ظل مستعصيًا عليه، حتى تحت الإكراه يُمعن الأشخاصُ النظر في المخاطر، التي يمكن أن تنبثق عن استخدام العنف؛ إذ لا أحد يريد أن يصبح ضحيةً للمشاعر الخاصة، كل واحد ينظر فقط إلى أمانه الخاص.

يسأل فولفجانج سوفسكي Wolfgang Sofsky: "كم عدد الأشخاص الذين لديهم سيرةٌ ذاتية مشابهة، أو يجاهدون للحفاظ على كينونتهم في الخراب نفسه، دون أن يفكّروا في أحلامهم حتى بأن يرفعوا يدهم فقط؟"، ويواصل بأن لا أحد يُكره على تحطيم جمجمة شخصٍ آخر، ولا يكون السياق الاجتماعيّ، فلا سبب ولا شرط كافٍ أو ضروريّ للعنف، ولم يحدث حتى في البيئات التي

أصبح فيها العنف أمرًا بديهيًا، أن استغل كل واحدٍ الفرص التي توفَّرت له، وليست هناك حتمية يمكن بواسطتها تفسير طبيعة السياقات الاجتماعية، الأشخاصُ مختلفون، بعضهم يترك العنان لقبضة يده في أقل مناسبة، والبعضُ الآخر يتراجع أمام فكرة العنف، بعضهم يراه مثيرًا للاشمئزاز، بينما يُمثل شغفًا لآخرين، البعض ينتابه شعورٌ بالمواساة، وقليلون مرضى نفسيون، لا تقع منهم آلامُ الآخرين أي موقعٍ، والبعضُ يعذّبون نتيجةً للملل، أو لأن عليهم أن يثبتوا أنفسهم في مجموعتهم، يكتب سوفسكي: "ليس هناك مجتمعٌ يقوى على كبح العنف وإحلال السلام على الدوام، على العكس لا ينبع الهجوم –أيضًا- من ضرورةٍ اجتماعية".[267]

العنف يغيّر من الوضع، وفي النهاية لا يعود من الأهمية بمكان، ماذا كان الدافع وراء الهجوم، لكن علم البحث في الأسباب ليس لديه ما يقوله عن المواطن والديناميكية و"عدم وجود الدافع"، لبعض الاعتداءات،[268] إنه يريد أن يعرف لماذا اندلع العنف؟ وليس ما الذي سبّبه هذا العنف؟ وكيف تتم ممارسته؟ مثل هذا البحث لا يُفضي إلى شيء؛ لأنه ليست هناك أسبابٌ للعنف قابلةً للتعريف بوضوح، ولأن كل شيءٍ حول أوجه القصور الاجتماعيّ قد قيل بالفعل.

لكن ما الذي يجب فعله؟ يجيب "علماء أنثروبولوجيا العنف" على ذلك بإجابةٍ واضحة: الأمر لا يتعلق بالأسباب، وإنما بما حدث فعلًا، عندما يُراد فهم ما يعنيه العنف وما يُحدثه من تأثير، ذلك أن مواقف العنف مفتوحة والحدث ديناميكيٌّ متغير وغير متوقع، ومن يلقي نفسه داخل موقف عنف، لا يستطيع التنبؤ بما يحدث، بغض النظر عما اعتمد عليه العدوان الذي أشعل حالة الاضطراب والفوضى، فقط عندما يتأقلم المرء مع الموقف، يتحول حيز العنف إلى مكان، تسود فيه مصداقية التوقعات، الكل يعرف، ماذا يحدث وما الذي عليه أن يتوقعه، وما هي الإمكانات التي لا تزال متاحةً أمام الفاعلين، العنف يغيّر نطاقات الأحداث والأشخاص في وقتٍ قصيرٍ فقط،[269] ويتحول إلى سبب لذاته، ومن ثم يجب وصف ما يحدث على وجه الدقة، يجب أن يُرصَد الموقف، الذي يتواجد فيه الفاعل والضحية والمشاهدون، بدقة وتُوصف العلاقات الاجتماعية، التي تنشأ عندما تكون للعنف الكلمةُ الأخيرة،[270] اللكمةُ الأولى، التي ترتطم بالوجه، والرصاصة الأولى، التي تُردي شخصًا ما قتيلًا، تغيّر كل شيء، تتوتر الأعصاب إلى درجة التمزق، ويعتصر الألمُ خلايا الجسد، ولا يفكر الإنسان في لحظة المواجهة في أي شيءٍ غير بقائه هو نفسه على قيد

الحياة، لا تتركز كل القوى إلا على لحظة الحدث، الآن يتعلق كلُ شيءٍ بالموقف، وكيف سيتطور، الجنود، الذين يقفزون من الخندق وينطلقون إلى خطوط العدو، يطلقون الرصاص حولهم في فزع، لا يريدون إلا البقاء على قيد الحياة، ولا يضعون أحدًا أو شيئًا في حسبانهم؛ والمتعرضون للهجوم يعملون بنادقهم الآلية ويقتلون كل من يأتي صوبهم، كل الأفكار تعطَّلت، فقط رغبةُ البقاء على قيد الحياة هي ما تَجسَّد من خلال أفعالهم، بعد ذلك ترتعد أجسادُ الأشخاص الناجين، ويتصببون عرقًا من كل أطرافهم، ويخضعون ويتحولون إلى "مجرد أجسام".[271]

لا يحدث أن يشعر قاتلٌ مأجور بالارتياح، عندما يتعلق الأمر بالتخلص من شخصٍ ما، ينظر حوله، ويبحث عن طرق الهرب، لا يريد أن ينظر في عينيّ الضحية أو أن يسمع صوت صراخها، يريد فقط أن يتجاوز خصمه سريعًا، وعندما يخفق في ما هو بصدد فعله، تنتابه هو أيضًا حالةٌ من الذعر، ويتصاعد الموقف عندما يظهر شهودٌ ما كان عليهم أن يروا ما يفعل، الآن لا يستطيع المواصلة في تنفيذ مخطَّطه، ولا يجب عليه أن يواجه الضحية فقط، وإنما –أيضًا- الشهود، الذين ربما يشون به، الهرب ليس مخرجًا؛ فالقاتل مكشوف الوجه ليس بذي قيمةٍ لمن كلَّفه بالعملية.

ينصاع العنف في المجموعات لقواعد مغايرة عن استفزاز الفرد الواحد، ما يجابه مجموعةً من مرتكبي أعمال العنف، والتي تهاجم المارة في الشارع أو في محطات المترو، يخاطر بجسده وحياته، ذلك أن أحدًا لا يعرف مسبقًا، ما الذي سيفعله المعتدون عندما تصادفهم مقاومة، كثيرًا ما يتعلق تصرف الأفراد المجرمين بقائدهم، هل سيهاجمون؟ أم سيطورون الأمر إلى مواجهة؟ أم سينسحبون؟ عندما يؤشر القائد إلى أن الانسحاب ليس مطروحًا، يزهو شركاءُ الجريمة بأنفسهم ويختالون فرحًا ويُظهرون العزيمة والإصرار، فينقضّون على الشخص المشاغب، ويطرحونه أرضًا، ويوسعونه ضربًا بأقدامهم، وعندما يشعر المجرمون بأن الخوف ساد من حولهم، يرفعون وتيرة العنف إلى أقصى درجة؛ لأنه يروق لهم امتلاك السلطة على الحياة والموت، ولا يعودون إلى رشدهم مرةً أخرى، إلا عندما تُطرح الضحيةُ أرضًا ويُهرع المارةُ هربًا، ذلك أن الموت والهرب هما حدود سلطتهم، وكلما اتسعت المجموعة، التي تقف في وجه أشخاصٍ آخرين، تعاظم خطر خروج العنف عن السيطرة وسيادة الجموع على الأفراد؛ لأن الحِمل الأخلاقيّ يخفُ عن كاهل الفرد بفعل غياب هُوية الفرد وسط الجموع.

إن من يزال يتحدث الآن عن أسبابٍ اجتماعية أو عن البطالة أو الفقر، يُخطئ في تقدير مَواطن العنف ومواقفه، والتي يمكن أن ينشأ فيها، صحيحٌ أن أغلب المعتدين يتبعون نوايا معينة، لديهم دوافع وأغراض، يرغبون في تلبيتها، ولتكن مجرد الرغبة في إلحاق الأضرار والتلذذ بمعاناة الآخرين، فقط أشخاصٌ قليلون يستعدون للانخراط في نزاع لن يمكنهم الفوز به تحت أي ظرفٍ من الظروف، إلا لو لم يكونوا متعقلين أو تُسيطر عليهم مشاعرهم، ما إن يخرج العنف عن السيطرة ولا يمكن التنبؤ بمن سيخرج منتصرًا من نزاعٍ ما، فلن يُجدي التخطيط والحيطة بعد ذلك، الآن ينتهي عصر الاستراتيجيات، ويبدأ عصر الجسد، يجب الانتصار على جسد الشخص الآخر وانتهاكه وكسره، وحماية الجسد الخاص من الإصابة والدفاع عنه، المرء يحتاج إلى القوة، لكي ينفذ ما تحضَّر بالفعل في الأفكار.

فقط عندما يُوصف الموقف، الذي يتمدد فيه العنف وينتشر، يفهم المرء ما الذي يحدث، لا يمكن لأي تحليل للأسباب الاجتماعية أن يعوض ما يقدر على فعله الوصف المكثَّف لملابسات العنف، يُجبر العنفُ الأشخاص على تغيير سلوكهم؛ لأن أولئك الذين يتعاملون بالعنف، يُحدِّدون كيف يجب على الآخرين أن يتصرفوا،[272] المرء لا يستطيع تجاهل أعمال العنف؛ لأن بقاء الإنسان على قيد الحياة يتوقف على التصرف الصحيح، يتحول الأشخاص إلى آخرين، يفقدون الإحساس بالزمن، ويعيشون فقط من أجل اللحظة، كل ما يحدث الآن يُرى ويُفهم في ضوء خبرات العنف، ملابسات العنف تهز الثقة بالنفس وتدمر الروابط الاجتماعية وتغيّر من النظرة إلى العالم، زمن العنف هو زمن اللحظة، زمن التوتر في أقصى مستوياته، زمن عدم الأمان، لا أحد يعرف إلى ماذا ستؤول الأمور؟ وما إذا كان اليوم التالي هو اليوم الأخير؟ يستقبل الأشخاص الذين يعيشون في زمن العنف ما يحدث معهم بكل ذرةٍ في أجسادهم.

العنف، مثل الجنس، يتميز بواقعية الملموس، إنه يوقظ الأحاسيس، ويولد الحنق والكراهية، ويخلِّف آثارًا في الجسد والروح، كتب فون تروتا: "إنه حدث، يمكن أن يمتلئ صخبًا وصراخًا، يتحرك فيه الأشخاص والأشياء بسرعة، حتى أن عدم الحركة لا يعني شيئًا آخر سوى [هدوء ما قبل العاصفة] أو اليقظة التي تتوتر فيها الأعصاب إلى درجة التمزق، ويمكن أن يكون الصمت فيها مخيفًا، عندما يتحول إلى صوت التعذيب والموت العنيف"،[273] الأشخاص يضربون ويركلون ويطعنون

ويطلقون النار، والعنف هو إنجازُ الجسد وإمكاناته، ولذلك تضل أبحاثُ العنف، والتي ليس لديها ما تقوله عن الجسد –هدفها- ذلك أن الجسد ليس مجرد وسيط وحيز استجابة، إنه –أيضًا- مُنتجٌ للألم والعنف، يقول كانيتي: "كل مقاصد الإنسان نحو الخلود تحوي شيئًا من الرغبة في البقاء على قيد الحياة، إن أدنى أشكال البقاء على قيد الحياة هو شكل القتل، وكما قتل المرء الحيوان، الذي اقترب منه، يريد –أيضًا- أن يقتل الإنسان الذي يقف في طريقه".[274]

يقبض المرء ويخدش ويعُضّ، ويؤدِّي الجسد تلقائيًا ما يستطيع فعله، وعندما يكون في أقصى حالات الانفعال، عندما يتحكم الحنق والكراهية في السلوك، يمكن أن يتصاعد العنف إلى حد السُّعار، الذي لا يوقفه سوى الشعور بالإرهاق، يفقد المرءُ السيطرة ويُملي الجسد ما الذي يتعين فعله.

لذلك يجب على تاريخ العنف أن يتحدث عن الجسد وآلامه، عند الألم يعرف المرءُ سلطان جسده، من خلال التعذيب والعنف المفرط ينحَل هو كشخص، ولا يشعر إلا بكونه كتلةً من اللحم، الألم هو خبرة الارتباك، يُسلَّم الشخص المُعذَّب، فيجد نفسه كائنًا لا إرادة له، وفاقد السيطرة على كل شيء، العنف يخترق الجسد، ويجرح الروح، ويرسم معالم الضحية، القائم بالتعذيب يعرف تشريح الجسد، ويعرف ما الذي يجب عليه فعله مع الضحية، حتى يحصل على ما يريد، إنه يجعل من جسد الشخص المُعذَّب سلاحًا، تكون سلطته هي ألم الضحية، التي تتوقف عن أن تكون إنسانًا، تعلم الضحية أن بداية الألم ونهايته ليست في يديها، إذ يتحول كل إنسانٍ إلى كائنٍ حيّ لا حيلة له، ولا يقوى على مواجهة العالم الخارجيّ في شيء، نحن نفقد السيطرة على الجسد، الذي يستقل ويفعل ما يريد، في وقتٍ ما ينهار جسد الشخص المُعذَّب، ويكون سيان بالنسبة إليه، ما يحدث معه،[275] يعلم الجاني ذلك، ولهذا ينتبه إلى عدم مجاوزة ذلك الحد الذي يفصل الألم عن اللامبالاة؛ لأنه ما إن يشعر المُعذَّب بأنه مجرد جسد فقط، ولا يعود يستطيع البكاء، ويدخل مملكة اللامبالاة، تكون سلطة القائم على التعذيب قد ولت وانتهت.

يتذكر جين أميريJean Améry تجاربه الخاصة قائلاً: "تنطلق صرخة الألم والموت للآخر بين يديه، فيكون سيدًا على الجسد والروح، الحياة والموت، بهذه الطريقة يتحول التعذيب إلى انقلابٍ تام للحياة الاجتماعية، ضغطةٌ ضعيفةٌ باليد المؤمَّنة بالعدد تكفي لجعل الشخص الآخر ورأسه الذي

ربما يسكن به كانط وهيجل وكل السيمفونيات التسعة والعالم كإرادة وتصوُّرٍ، خنزيرَ معارك يعوي بصخبٍ عاويًا من الألم يكون أسيرُ العنف، المُعذَّب الذي لا يأمل في أي مساعدة، ولا يقوى على أي دفاع عن النفس، مجرد جسد ولا شيء أكثر من ذلك"،[276] لا أحد ممن تعرَّضوا لهذه التجربة، سوف ينسى ما فُعل به، يفقد الإنسان ثقته بنفسه، ويتذكر أن جسده قد سُلِّم إلى مُعذّبيه بغير إرادةٍ منه، يكتب أميري، أن المُعذَّب لا يعرف ما إذا كانت كرامته كإنسانٍ سوف تُنتهك؟ أم لا؟ لكن شيئًا هو في عداد الأمور المؤكَّدة: مع الضربة الأولى التي تصيبه، يفقد "الثقة في العالم"، الثقة في أن الآخر سوف يحترم حدود جسده استنادًا إلى القوانين والأعراف غير المكتوبة، "إن حدود جسدي هي حدود الأنا، سطح جلدي يفصلني عن العالم الأجنبيّ، والذي فيه يُسمح لي فقط، إذا كانت لديّ الثقة، باستشعار ما أريد أن أشعر به".[277]

في الألم تجرِّب الضحية وحدتها؛ لأن ما تُصاب به وما يُفعل بها ليس مفهومًا أو قابلًا للحكي، وفي هذا تُبرر اللامبالاة التي يقابل بها الأشخاص آلام الآخرين وأوجاعهم، وما لم يعايشه المرء بنفسه، يبقى مجرَّدًا، يُوصف بأنه لاذع، واخز، مُمَضّ، لكن ليس محسوسًا، يتحدث رجل وحدة الحماية ماكس أوي Max Aueفي رواية "الأخيار" للكاتب جوناثان ليتل Jonathan Littell، قائلاً: "هذا تحديدًا ما ظل مبهمًا بالنسبة إليّ، تلك الفجوة، ذلك التفاوت المطلق بين السهولة التي انتحر بها، وبين الصمت اللانهائيّ، الذي مات به، بالنسبة إلينا كان ذلك يوم عمل قذرًا من بين الكثيرين، وبالنسبة إليهم كان نهاية كل شيء".[278]

الألم يعصف بالماضي والمستقبل، إنه ليس سوى "حاضر جارف"، فقط ما تستشعره الضحية كتأثيرٍ للجسد، لا يكون القدر، وإنما رغبة الجاني وتصوره، والذي يستطيع في كل وقت أن يتوقف عن إلحاق الألم بضحيته، يريد الجاني أن يرى ضحيته بلا حيلة، ويجعل ألم الغير سلاحًا له، وهو وحده من يقرر مدة الألم والعذاب اللذين يتعين على المُعذَّب أن يعانيهما،[279] وما إن تُجتاز حدود الجسد، حتى يأخذ التدمير الذاتيّ للفاعل مجراه.[280]

النظام والعنف

لكن كيف يحدث ذلك من الأساس؟ أن يلجأ الأشخاص إلى العنف في ظروفٍ معينة، ويتخلوا عنه في غيرها؟ حرَّر توماس هوبس Thomas Hobbes إجابةً لهذا السؤال، استند إليها "علماء أنثروبولوجيا العنف" بعد ذلك بقرون، في بحثه الذي ظهر في العام1651 بعنوان: "لوياثان.. أو مادة وشكل وعنف دولة مدنية كنسية"، كتب يقول:

"إن الأشخاص الذين يحبون الحرية والسيادة على الآخرين بطبعهم، طبقوا نظام تقييد الذات، والذي نعيش في رحابه -كما نعلم- فقط بهدف ولغاية الحفاظ على ذواتهم وبسط حياة أكثر سعادةً ورضا من خلال ذلك، وهذا يعني الهروب من حالة الحرب البائسة، والتي تنشأ بالضرورة من الرغبات الطبيعية للأشخاص، أي عندما لا يكون هناك عنفٌ مرئيّ، يريدون أن يكبحوا جماحه ويقدرون على الوفاء باتفاقاتهم والالتزام بالقوانين الطبيعية خوفًا من العقاب، ذلك أن القوانين الطبيعية مثل العدالة والإنصاف والتواضع والامتنان، فباختصار قانون معاملة الآخرين كما نُحب أن يعاملوننا، هي في حد ذاتها -من دون الخوف من سلطةٍ تجبرنا على اتباعها- تتناقض مع رغباتنا الطبيعية التي تقودنا إلى التحزب والغطرسة وحب الانتقام وما شابه، إن الاتفاقات -من دون حد السيف- هي كلماتٌ مجردة ولا تمتلك القوة، لأن تقدِّم لشخصٍ ما حتى أقل قدرٍ من الأمان".[281]

إن ما ساقه الفيلسوف منذ ما يزيد على 350 عامًا في صيغٍ خجولة، ألبسه عالِمُ الاجتماع فولفجانج سوفسكي صبغةً مروِّعة، لا بدَّ وأن القارئ سوف يستشعر منها أن العالم هو وادٍ للبؤس، وأن العنف هو مصيرُ الجنس البشريّ، ولا يبدو أن هناك مخارج من ذلك.

"عندما كان كل الناس أحرارًا ومتساوين، لم يكن أحدٌ آمنًا من الآخر، كانت الحياةُ قصيرةً، والخوف لا حدود له، فلم يكن هناك قانونٌ يحمي من الاعتداءات، كل واحدٍ فَقَدَ الثقة في أخيه، وكان لزامًا على كل واحدٍ أن يحمي نفسه من الآخر؛ لأنه حتى الأضعف كان قويًا بما يكفي كي يصيب الأقوى، أو يقتله، من خلال حيلةٍ أو اتفاقٍ من آخر، لذلك أبرم الناس تحالفًا من أجل الأمان المشترك"،[282] بهذه الكلمات يبدأ مقال حول العنف، لكاتبه سوفسكي، من سبق له في أي وقتٍ أن يتحدث عن العنف بمثل هذه الطريقة مستخدمًا مثل هذه الكلمات؟ العنف كمصير للجنس البشريّ، كمِعدةٍ أساسية للإنسان الذي يتظاهر فقط بأنه سلميّ؛ لأنه يخشى العقوبة والثأر، لكن في الحقيقة لا تجتمع الحرية والسلام معًا، ولا يخضع الأشخاص للالتزام بحرمة القتل إلا أن

الأشخاص الأقوى منهم يمنعونهم من أن يُصيب أحدهم الآخر، ليست الظروف هي ما تفسد الأشخاص، وإنما الأشخاص هم الذين يفسدون الظروف، عندما يُسمح لهم أن يفعلوا ما يريدون، لكنهم يعرفون أنفسهم ويعرفون من يشبههم، ولذلك يخضعون للظروف السلطوية التي تحميهم من أنفسهم ومن رغباتهم، إن لغز السلطة يُحل عندما يفهم المرء أن أعتى الديكتاتوريات تعد بأمانٍ أكبر من الحرية المطلقة،[283] ولا يكون النظام الاجتماعيّ ممكنًا إلا عندما يتفق الأشخاص على قداستهم بموجب عقد ويتخلون عن العنف، ومن دون إرساء مركزية العنف وحصره، ومن دون الكبح الدائم للرغبات لن يكون هناك سلام أو مجتمع.[284]

إن صورة سوفسكي عن البشر قاتمة، فهو لا يؤمن لا بنور التوعية ولا بعملية التحضّر، فالشخص الذي يتصوره، محكومٌ من غرائزه ومدفوعٌ من شغفه بالعنف، وفي حالة الفوضى يكون الإنسانُ حرًّا يستطيع أن يفعل أو يترك ما يريد، الأمن والبقاء على قيد الحياة يرتبطان فقط بالنية الحسنة، فقدان الثقة والخوف في كل مكان، فلا أحد يثق في مَن بجواره، ومن يريد البقاء على قيد الحياة، يُنصح بأن يُؤمِّن نفسه ضد الغرباء والمسلحين ومرتكبي أعمال العنف، من خلال الجدران والأسلحة لإرهاب المعتدين، ومن خلال العنف المثاليّ الذي يبرهن على مقدرة الإنسان نفسه، وكلما ارتفعت الأبراج وطالت الجدران، كبر إحساس البشر بعدم الأمان، ومن هذا المنظور على العالم تكون الحرية هي مصدرٌ لعدم الأمان والخوف، وحرية الأقوياء الذين لا يتركون شيئًا للضعفاء، فمن تظهر عليه علامات الضعف ويكون مستباحًا، يمكن ألا يبقى طويلًا على قيد الحياة في مملكة الاستبداد والعنف.

لطالما استبدل البشر حريتهم في مقابل سلامة النظام؛ لأنهم كانوا يخشون بعضهم بعضًا، حسبما يقول "علماء أنثروبولوجيا العنف"،[285] يتنازل القويّ عن العنف؛ لأن الضعفاء يطيعون، ويخضع الضعفاء لأنهم متأكدون أن الأقوياء يمنعون الآخرين من تهديد حياتهم، وتُنقل حقوق الرقابة والتنفيذ إلى الغير ويُخوَّل بفرض السلام بين البشر بالعنف، ومن الآن فصاعدًا يخوَّل بالقتل فقط أولئك الذين يتمتعون بسلطة العقاب: الشرطيون، والجلادون، والجنود الذين يعاقبون بتكليفٍ من السلطة المفردة أو يخوضون حروبًا، وتنطبق على كل الآخرين حرمة القتل، ومن يخالف ذلك، يُعاقَب بالإعدام أو بالسجن لسنواتٍ عديدة.

لكن ما الذي يحدث عندما ينهار النظام الذي يضمن السلام؟ يسوق كارل شميت Carl Schmitt إجابةً واضحة لا لبث فيها على ذلك، فيقول: "عندما لا يعود الأقوياء قادرين على فرض النظام، يتعلق الأمر بشرعيتهم –السيادة- وليست الواقعية، هي ما تطبق القانون، وإنما القدرة على إنفاذه رغم المعارضة، ذلك ما يرسخ النظام والمشروعية"[286]، فمن ليس قادرًا على حماية جسده وحياته، لا يستطيع طلب الطاعة، والآن تعود الحرية المطلقة إلى الحياة، وتبدأ الحرب، يصوغ سوفسكي هذه الحقيقة في معادلةٍ بسيطة: "لو كان كل البشر أحرارًا في فعل ما يريدون، لكانت حياتهم قصيرة"،[287] فمن عايش الحملات الأمنية والمذابح وحملات الإبادة والحروب الأهلية وانهيار النظام وعانى من ويلاتها، لن تكون تصوراته عن إمكانيات الوحشية البشرية مجرد تهيؤات، ويعلم الباقون على قيد الحياة هشاشة السلام وقيمة أمان النظام، إنهم يعلمون أن الخاسر هو ما يلغي حظر القتل ويسمح للبشر باجتياز تلك العتبة.

يحكي مارسيل رايش راينيكي Marcel Reich-Ranicki في ذكرياته الحياتية عن جنديٍّ ألمانيّ بسيط، كان ضمن قوات الاحتلال الألماني في وارسو واضطهده هو وأخاه وهددهما بالسلاح ونعتهما "بالخنازير اليهودية القذرة"، ما كان محظورًا في مسقط رأسه، بات مسموحًا له بفعله في وارسو؛ لأنه لم تكن هناك مصلحةٌ تمنع الجنود من قتل اليهود، وفي وقتٍ قصير تحولت المدينة إلى جحيمٍ على البولنديين واليهود، حيث تحوَّلت إلى ساحةٍ من العنف، سيطر عليها الاستبداد والموت، ما إن علم الجنديّ أن ضحاياه ترعرعوا في برلين وكانوا مشجعين لنادي كرة القدم المحليّ هيرتا برلين، انقلب رأسًا على عقب، ليغيَّر نبرة صوته وتصرفاته، ويعرب عن فرحته للقاء أشخاصٍ في وارسو يشاركونه حماسته لكرة القدم في برلين، "ذلك الشاب اليافع، الذي كان يسلخنا قبل نحو نصف ساعةٍ بمنتهى السادية ويجبرنا على قول إننا خنازير يهودية قذرة بصوتٍ عالٍ، ذلك الذي كان يهددنا قبل دقائق معدودة بمسدسٍ في يده، بأنه سوف يلقي بنا في ماء حمام السباحة الثلجيّ، هذا الغلام بات يتصرف الآن بطريقة طبيعية تمامًا، بل وودودة أيضًا"، [288] كان من الممكن أن يردي أي يهوديٍّ آخر قتيلًا، لكنه لم يرد إيذاء مشجّعٍ من محبي هيرتا برلين، وبذلك لا يدين رايش راينيكي بالفضل في حماية حياته للحق، وإنما للصدفة، أولئك الذين أسموا أنفسهم أسيادًا يأخذون من البشر حيواتهم أو يهدونهم إياها، ولا يتوقف اختيارهم للإحياء أو القتل إلا على مزاجهم حينها، إن من يقع عرضةً للأمزجة المتكدرة للمسلحين، لن يستطيع الاعتماد

على القناعات والنية الحسنة، إذ حيثما تمتع الجناةُ بحريةٍ مطلقة، فلن تحد رغبتهم في القتل أي حدود، ويتحول الحيز غير المقنن إلى جحيم، ما إن يحوله الأشخاص إلى حيزٍ للعنف، "الإنسان ذئبٌ للإنسان، (Homo homini lupus)؛ مَنْ لا يزال يمتلك الشجاعة بعد كل تجارب الحياة والتاريخ، لكي يجادل في هذه الجملة؟"، سؤالٌ طرحه سيجموند فرويد![289].

طالما إن القتل محظور، يتحول خوفُ البشر بعضهم من بعض إلى خوفٍ من السلطة التي تكبح جماح رعاياها من خلال التهديدات والعقوبات من أن يمارسوا العنف، إن العقوبات هي مرآة العنف المحظور، من يقتل، يموت بيد السلطة، ومن يصيبُ الآخرين، يتم تشويهه، لكن في حاضرنا المعاش تمثِّل العقوبة مرآةً للفعل؛ لأنه إذا كان تقويم الجاني هو الهدف الوحيد لعنف الدولة، لفُرضت العقوباتُ نفسها على كل الأفعال، لكن قتل شخصٍ ما كان يُعاقَب دائمًا وفي كل المجتمعات بأقصى عقوبة، الردعُ وحده من شأنه أن يمنع الأشخاص من فعل ما يفكرون به، يقول سوفسكي: "تقتضي السيادة -إذا أرادت لنفسها أن تستمر- استخدام العنف، في الداخل والخارج، يجب أن تكون قادرةً على استخدام العنف، كي تحافظ على بقائها، فهي لن تكون سيادة إلا بامتلاكها هذه الوسيلة".[290]

كثيرٌ من الأشياء يبقى خفيًا عن ممثلي سلطة العقاب، فهم لا يستطيعون دخول منازل الرعية، ولا يعرفون ما الذي يحدث؛ لأنهم لا يستطيعون مراقبتهم آناء الليل وأطراف النهار، عندما ينام الرقيب، تكبر محاولة تحدي السلطات، تتم مجابهة هذه الأطماع بصورة منهجية من خلال التربية والتهذيب والتوجيه، إلى أن ينظر كل شخصٍ إلى العنف باعتباره ظلمًا أو خطيئة، ولا تنشأ علاقاتُ القوة للسلطة المستقرة إلا عندما لا يعود البشر يخشون من القمع الخارجيّ فقط، وإنما يقمعون أنفسهم بأنفسهم، وهكذا –أيضًا- فهم نوربرت إلياس الأمر،[291] وتكون أوامر "الأنا العليا" أكثر فعالية من تكليفات سلطة الدولة؛ لأن المرء يستوعب بنفسه ما يطلبه ميثاق المجتمع من الجميع، وهكذا يعتقد الرعايا أن الترويض الحضاريّ يتبع إرادتهم الحرة، ومن يريد امتلاك السلام، يحصل عليه فقط في مقابل القمع الذاتيّ، فليست هناك أداةٌ لدى السلطة تستطيع تعويض ما يفعله "طغيانُ الضمير"، "إن ما يفعله استبدادُ النظام بالبشر قبل ذلك، يفعله الآن كلُ شخصٍ في نفسه وبنفسه".[292]

يحمينا النظام بعضنا من بعض، لذلك نطيع طالما أن توقعاتنا تتحقق، لكن البشر يعرفون بشأن الحرية الضائعة، ولذلك يعانون مما تجبرهم عليها الثقافة، تلك التي تقمع مشاعرهم ورغباتهم، حسبما يرى سوفسكي، صحيحٌ أننا نتمتع دائمًا بحرية الاختيار بين السلام والحرب، لكن طالما أن النظام المُحكم يعدنا بمزايا أكثر من العنف، فإننا نكبح جماح أنفسنا، لكن مَن إن تسنح فرصة لإطلاق العنان للعدوانية، وليكن ذلك على حساب السلام الداخليّ، فهل هو أمرٌ مدهش أن يبحث البشرُ عن فرص، ويضربوا بكل المحظور عرض الحائط، ويطرحوا عن أنفسهم الذنب ويطلقوا العنان لشهواتهم الخفية؟ كلما كان حظرُ الثقافة أكثر صرامةً وتشددًا، عظمت المحاولة واشتدت، وكلما كان الموتى أقوياء، كان اعتراضُ الحياة أشد وطأة، وكلما قوي إكراهُ النفس، ارتفعت حدة النزوع إلى ثورةٍ جديدة، إلى ممارسة العنف ضد المحظور، ضد الثقافة،[293] فالثقافة تقيد الإنسان، وتفرض عليه قالبًا من القواعد السلوكية والمحظورات، إنها حيزٌ "للعنف وعقاب النفس"، لكنها ليست ضمانةً ضد عودة العنف، إنها تنتج الطاعة، لكنها تخلق –أيضًا- خارجين عن القانون وثائرين، يتوقون إلى الحرية والهوى.[294]

فالثقافة تُقيّد الإنسان، وتفرض عليه قالبًا من القواعد السلوكية والمحظورات، إنها حيزٌ "للعنف وعقاب النفس"، لكنها ليست ضمانةً ضد عودة العنف، إنها تنتج الطاعة، لكنها تخلق –أيضًا- خارجين عن القانون وثائرين، يتوقون إلى الحرية والهوى.[295]

وأمام رغبات الأفراد وشهواتهم لا يجدي نفعًا دائمًا سوى احتكار الدولة لسلطة العنف، لكن هذا ليس ضمانةً لعودة الرعب والفزع؛ لأنه إذا كان كل شخصٍ قادرًا على القتل، فلماذا لا يقدر عليه – أيضًا- أولئك الذين كُلفِّوا بإحلال السلام وحمايته؟ لماذا يُفترض بهم ألا يوجّهوا أسلحتهم ضد أولئك الذين عُهد إليهم بحمايتهم؟ والرعايا أنفسهم لا يستطيعون رد اعتداءاتهم، ما إن يستولي مشاغبون عنيفون على الدولة ومؤسساتها، يكون السلام محلَّ خطر، يفسخون بذلك الاتفاق غير المنطوق الذي أبرموه ذات يومٍ مع السلطة، ويتركون العنان للأسلحة، ليس من أجل إحلال السلام، وإنما لإشعال حرب، يكتب سوفسكي: "يجب على السلطة أن تحجِّم العنف، لكنها ترفع من مستواه إلى أقصى حد، وليس هناك أي مخرج من هذا المأزق التاريخيّ".[296]

الحرب

"في البداية دوَّى في الأفق زئيرُ حيوان هائج، عميقٌ ومتأوه، كان صوتًا لم يشبهه شيء"، هكذا يصف جيرد ليدش في روايته الواقعية "أرغن ستالين"، كيف تقاتل جنود القوات المسلَّحة النازية والجيش الأحمر في العام1942 على الجبهة قُبالَةَ لينينجراد بصلابةٍ، وعند الظفر بالسيطرة على أحد التلال، كان يدِّوي متجاوزًا عدة فرستات (وحدة قياس روسية قديمة) مثل صوت نداء، زأر مرتين وثلاث، ثم صياح أرغن مكتوم، خيَّم الشلل على قطاع الجبهة، توقف أزيز المدافع الرشاشة، شد القناصة البنادق القصيرة على صدورهم، تقارب الرجال على قاذفات الصواريخ، وتلاشى أمر الإطلاق على ألسنة قادة المدفعية، حتى المُبلِّغ منع خطوته، ثم اندلع كل شيء، ومضاتٌ لا حصر لها شقت عُباب الغابة، نحو خمسين طلقةٍ انفجرت على الجذوع أو على الأرض، رعدٌ هادر يصم الآذان، نار، بخار، رماد، قطعٌ نحاسية في حجم قبضة اليد، رمل، تراب، تدحرج جنود إحدى المدفعيات مع أربعة مدافع وصناديق مكوَّمة من الذخيرة، وخراطيش، وأجهزة وخيول داخل الوحل، بُعيد ساعة خيَّم الصوت على المطبخ الميدانيّ، ذهب السائقون ومرافقوهم والطباخ والمأكولات الباردة لستين شخصًا ومئات اللترات من الحساء السائل أدراج الرياح، بعد دقائق عوى الصوتُ فوق سريةٍ سارت إلى الأمام من أجل الانفصال، ثمانون رجلًا، حاولوا الانتعاش خلال أسبوعٍ خلف الجبهة من التعب، بأحذية نظيفة، وأسلحةٍ مدهونة بالزيت، الرجال الأربعون، الذين دشّنوا الخندق، كانوا متسخين، تغطيهم قطرات الدماء، ويشعرون بالإحباط، ساعتان، ويومان، وأسبوعان، في مكانٍ ما تحوَّل قسمٌ من الدبابات إلى حالة التأهب، وفي حماية إحدى الوهاد المنخفضة جمع القائد طواقمه من أجل المناقشة الأخيرة، ضوضاءُ في الأفق، خمسٌ أو ست ثوانٍ من الصمم الجاثم، ومن العدم تفجَّرت القذائف، صرخات، قطعُ المتفجرات هطلت كالمطر فوق دباباتٍ فارغة، أُصيب أصغر الضباط بالتعب كي يجد عددًا كافيًا من السائقين لينقلوا الدبابات الاثنتي عشرة مع طواقم الجنود القتلى إلى الخلف، وكل الذين شعروا باهتزاز الأرض من تحت أقدامهم ورأوا دخان الانفجارات يلامس السماء، شكروا القدر أو الله، أنها أصابت غيرهم ورأفت بحالهم".[297]

والآن تدخل الرغبات والخوف والميول العدائية إلى الميدان، ولم يكن سوفسكي وحده هو من تحدث عن كل ذلك؛ لأن إزاحة السلام واندلاع العنف قد يأتيان من الخيال ويساعدان على القتل، لكن لكي يمكن أن يتحول التصور إلى فعل، يستلزم الأمر وجود الأسلحة والأجساد التي تستعملها،

ومن منظور العنف تصبح النوايا والأفكار بلا معنى، إذ يكون كل شخصٍ وحيدًا مع نفسه وحنقه وغضبه وجسده، تكون أجساد الجنود مشدودةً عندما يتوقعون قدوم العدو، عندما يقبعون في غياهب الصمت داخل الخنادق قبل الهجوم ولا يفكرون إلا في كيفية البقاء على قيد الحياة في الساعات القليلة المقبلة، عند الاشتباك لا يسمعون أو يرون شيئًا، كما لو كانوا في غيبوبةٍ يفعلون ما تمليه عليهم أجسادهم، وفي جحيم المعركة يخيّم الصمتُ عليهم، يفقدون كل تأثيرٍ على مجريات الأحداث، ولا يكونون سوى أشباحٍ منقادة في تيار العنف، الخوف من الموت يخيّم على كل شيء، وبمثابرةٍ شديدة يتحملون ما يلاقونه من أهوال؛ لأن القتال في جماعة يقدِّم لهم أمانًا أكبر من الهرب.[298]

توجد مواطن لا يمكن فيها تجنب العنف، بالدرجة التي يتمناه بها المرء، ومن بينها الحرب، إنها تذعن للأمور القهرية التي لا توجد في حالة السلام، لم يَدُر بخُلد أحد المدفعيين أثناء الاشتباك أن يغادر مدرعته ويُعلن أنه يود الآن أن يتظاهر من أجل السلام، ذلك أن براعته لا تتوقف عليها حياة الرفاق فقط، وإنما –أيضًا- حياته الخاصة، ومع الهرب لا تتوافر له إلا فرصٌ ضئيلة للنجاة، وفي سلاح المشاة يكون التكاتف ضمانةً لبقاء الفرد على قيد الحياة، فلا يتخلى المرءُ عن رفاقه؛ لأن فرصه في النجاة أكبر، ولا يوجد خيارٌ آخر بديل عن المعركة إذا ما اندلعت الحرب، ولذلك يقتل الجنود –أيضًا- رغمًا عنهم؛ لأنهم يريدون البقاء أحياء، يرون الجثث والوجوه المشوَّهة للموتى، لكن هم أنفسهم اجتازوا ذلك بنجاح، يتحوَّل خوفهم إلى رضا؛ لأنهم ليسوا موتى، وإنما الآخرون، [299] ولذلك يجب أن يموت الآخرون.

إنها تلك الجموع -حسب قول كانيتي- التي تُبقي الحرب على قيد الحياة أيضًا، عندما لا يعود هناك طائلٌ عسكريٌ من ورائها، "أن تستمر الحروب هذه المدة، أن تظل قائمةً بعد أن خسر قادتها منذ فترة، ذلك يتعلق بالغريزة الأعمق للجموع، كي تبقى على وضعها الحرج ولا تتهاوى، أن تبقى جموعًا كما هي -أحيانًا يكون هذا الشعور قويًا- لدرجة يفضِّل المرء معها أن يلقى حتفه بعينٍ مبصرة، على أن يعترف بالهزيمة ومن ثم معايشة انهيار الجموع"،[300] فقط عندما تتحول الجموع إلى عبءٍ على الفرد، يغادرها الأخير، ما إن تنحل الفرقة باحثةً عن هربٍ يائس، يكون الجنديّ قد سُلِّم للعدو دون حماية، يجري هربًا بحياته التي كان من الممكن أن ينقذها لو لم تتمزق

وحدته أو لو كانت قد انسحبت بانتظامٍ من أرض المعركة، هذا ما لحق –أيضًا- بجنود جيش نابليون العظيم في شتاء العام 1812، البردُ والجوع والأمراض نخرت عظام القوات المسلَّحة العظيمة للقيصر الفرنسيّ عند انسحابها من روسيا، جنودٌ متجمدون وجائعون وملطخون بالدماء على قارعة الطريق يومًا بعد آخر، في البداية كانوا ما يزالون متأثرين، عندما يقبع زملاؤهم الجرحى في الثلج ويتأوهون من الألم وينادون على أمهاتهم، عندما تمزقت الوحدات وتحول الانسحاب إلى هربٍ غير منظم، نسوا أواصر الصداقة والزمالة، مرّوا على الجرحى غير عابئين بهم، ولم يريدوا سوى إنقاذ حياتهم الخاصة.[301]

بدوره تعرَّض الكاتب ديتر فيلرزهوف Dieter Wellershoff لهذه الخبرة وهو جنديّ صغير في القوات المسلَّحة الألمانية في الأسابيع الأخيرة من الحرب، انحلت وحدته في أبريل 1945 شماليّ برلين وانفرط عقدها باحثةً -بكل ذعر- عن المفر، يقول متذكرًا: "انشطرت الفرقةُ مجددًا، واختلطت مع الفارين من قواتٍ أخرى، كان يجري بجانبي لفترة من الوقت جنديٌّ بضمادة حمراء دامية، كان لديه إصبعان مبتوران، حاول أن يبقى على اتصال، لكنه ظل متخلفًا عن الركب، خرج علينا من إحدى الغابات عدة جنود في أزياء مبلَّلة غير مكتملة، ظلوا يسبحون في إحدى البحيرات هربًا من الروس، كنتُ ما أزال أحمل بندقيةً قصيرة معي، والكثيرون طرحوا عنهم أسلحتهم بالفعل، وفي رمال ممرات الغابة كان يختبئ لاجئون مع عربات الخيول المحمَّلة عن آخرها، سيداتٌ وأطفال، وبعضُ كبار السن، تضرّعوا إلينا: [ساعدونا أيها الجنود!]، لكن كان ذلك بلا جدوى، فقد واصلنا السير، انكسرت السدود، وظل كلُ واحدٍ يقاتل لينجو بحياته، الترابط لا يوجد إلا في الجماعات".[302]

يُصاب الجنود، الذين يقاتلون في ظل هذه الظروف، بحالةٍ من التبلد، ويستسلمون لقدرهم ويتلقون العنف -في أي وقتٍ كان- على أنه أمرٌ اعتياديّ مفزع، إنهم يعرفون ماذا يعني أن يتعين عليهم أن يثقوا في زملائهم ثقةً عمياء، أن يتعلموا سماع صوت أجسادهم وألا يفعلوا إلا ما يؤمِّن إنقاذ حياتهم، تكون الأجساد متوائمةً بعضها مع بعض، كلٌ يعلم ما يجب أن يُفعل عندما تتخذ الأمور منحىً جديًّا، يضيقُ أفقهم ليقتصر على الحيز المعيشيّ للكتيبة والخندق والزملاء الذين يقاتلون معهم، وتنقطع صلتهم بأي عالمٍ آخر، إن من يعرف حرفة الحرب، يتصرف بصورة صحيحة

بدافع الغريزة، ويعرف الجنود –أيضًا- في المعركة، ما الذي يتعين فعله، وكما الساعة، تدور رحى الحرب، ينصهر الزملاء إلى كلٍّ متكامل، وطالما كانت الأمور في تقدم، تعمل ماكينة الحرب بدقةٍ وموثوقية، فقط التمتع بدمٍ بارد هو ما يؤمّن للجنديّ البقاء على قيد الحياة،[303] ولكن الحياة اليومية على الجبهة هي مزيجٌ من ارتفاع وتيرة المشاعر وانخفاضها، وبعد القصف بالمدفعية يكون أغلب الضباط محبطين ومنكسرين ومنعدمي الإحساس؛ لأنهم لا يسيطرون على مجريات الأمور وأنهم أُجبروا على القصف رغمًا عنهم، لكن في حميم المعركة تستيقظ ميولهم العدائية، يقتلون كل جنديٍّ معادٍ يهاجم خطوطهم، يقضون على حياة أشخاصٍ آخرين بغير هوادةٍ ولا رحمة، لا لشيءٍ إلا لأن الأمر يتعلق بحياتهم وبقائهم،[304] مباشرةً عقب المعركة يكون التوتر كبيرًا، والحنق والسخط لا حدود لهما، يطالع المرءُ جثث زملائه، ويكون كما المُخَدَّرِ من وقع المعركة المنتهية لتوها ومحمَّلًا بالكراهية والبغض للعدو الذي رفع سلاحه ويطلب الرحمة الآن، مباشرةً بعد المعركة يحظى الجنود، الذين استسلموا، بفرصٍ للنجاةٍ لا تجاوز بضع ساعاتٍ قليلة بعد الملحمة، ولقد وقعت في كل جيوش الحربين العالميتين الأولى والثانية هجماتٌ على أسرى الحرب، خاصةً في الدقائق الأولى بعد المعركة،[305] فقط لاحقًا عندما تسكن العواطف وتهدأ، يتذكر الجنود مجددًا قانون الحرب.

في الحرب يصبح القتلُ حرفةً، لا يصبح مشكلةً تستلزم تبريرًا أو مسوّغًا، يكتب هارالد فيلتسر Harald Welzer: "إن الحرب تفتح حيزًا، يكون منفتحًا على العنف بطريقةٍ مغايرةٍ تمامًا لحالة السلم؛ يصبح العنف هنا أكثر توقعًا وقبولًا واعتيادية مما في ظروف السلم".[306]

ما يعني أن يكون توقع عمر الشخص المُسالم في الحرب قصيرًا، والمقاومة ضد الضباط بلا جدوى، ففي المجموعة تكون فرص البقاء على قيد الحياة أكبر منها في حالة الهرب، ومن يتفاهم مع فكرة القتل، يعرف ما الذي يجب فعله عندما تندلع المعركة، ولكن الجنود ليسوا آلاتٍ مسلوبة الإرادة، تفعل ميكانيكيًا ما يُطلب منها، أحيانًا تكون نطاقات هوامش التصرف كبيرة، ويستغلها الجنود كي يدمروا ويقتلوا، ليس لأنه واجبٌ عليهم، ولكن لأنهم يستطيعون فعل ذلك ويُسمح لهم به: الطيارون، الذين يقصفون قوافل العربات ورحلات اللاجئين ويرمون القنابل على المنازل، التي يسكنها مدنيون، وقادة الغواصات، الذين يغرقون السفن التجارية، وقادة الدبابات، الذين يدمرون

-براجماتهم العملاقة- المنازل، وتزداد المتعة في القتل بازدياد المسافة، التي تفصل الجناة عن الضحايا، ضغطةٌ على الزر وتتساقط القنابل من الطائرة، ومن الأعلى لا تُرى إلا ومضات التحطم والانفجار وسحب الدخان، ولا يسمع الطيار صرخات الضحايا ولا يتعين عليه أن يخمن رائحة اللحم المحترق، وقد حكى طيارٌ من سلاح الطيران الألمانيّ -كان قد قصف بحر المانش عام 1940- لزملائه في الأسر عن العمليات الجوية وعن السعادة التي كان يشعر بها أثناء ذلك: "ثم فعلنا شيئًا جميلًا جدًا، في رحلة العودة نفَّذنا شيئًا جميلًا جدًا بالطائرة الحربية [111]، طلبنا تركيب مدفع بطول سنتيمترين اثنين في المقدمة، ثم حلقنا في طيرانٍ منخفض، وما إن تصادفنا السيارات، كنا نضيء الكشَّاف، فيُخيَّل إليهم أن سيارةً قادمةً في اتجاههم، ثم نصدمهم بالمدفع، ولقد حالفنا النجاح عدة مرات، كان ذلك جميلًا جدًا، بل كان ممتعًا للغاية، فعلنا الشيء نفسه مع قطارات السكك الحديدية وغير ذلك الكثير"،[307] كان القضاء على المدنيين من الجو أمرًا غاية في السهولة، وفي مواجهة الضحايا يكون أصعب على الجنديّ على الأرجح، أن يعشِّق زناد بندقيته الآلية ويقتل سيداتٍ وأطفالًا عزَّل.

في الحرب يُسمح بما يُعاقَب عليه في السلم، فيُطرح الإطار المرجعيّ جانبًا، ويتحوَّل القتلُ إلى فريضة، وبهذا يصبح استخدام الأسلحة أمرًا ذا وقعٍ أخف على النفس، ينتمي القتلُ بدمٍ بارد إلى "توليفة معايير الحرب"، ولذلك يتحدث الجنود عن العنف، كما لو كان أمرًا بديهيًا لا يحتاج إلى شرح،[308] صحيحٌ أنه طُبقت قواعدٌ في الحروب الطاحنة بين الدول في القرنين التاسع عشر والعشرين: اتفاقية لاهاي ومعاهدة جنيف، اللتين أوصتا بكيفية معاملة المقاتلين وأسرى الحرب والمدنيين، وطالما فرض الضباط تنفيذ قانون الحرب وعاقبوا الجنود الذين انتهكوا القواعد، وظلت أحداث الحرب قابلة للتنبؤ بها للمهاجمين والمدافعين أيضًا،[309] لكن ما إن ضُرب بقانون الحرب عرض الحائط، استطاع الجنود أن يطلقوا العنان لرغبتهم الجامحة في القتل، لقد وطأت الأقدامُ قانون الحرب إبّان حرب القوات المسلحة الألمانية ضد الجيش الأحمر، وهي الحرب التي اندلعت في يونيو1941 وانتهت في مايو 1945، من كلا الطرفين، قتل الجنود الألمان مفتشين سياسيين ويهودًا وأسرى حرب، دمَّروا قرىً وأبادوا ساكنيها، ليس لأنه طُلب منهم فعل ذلك، وإنما لأن الضباط حفزوهم على فعل ذلك، كتب الجنديّ كورت إس في خريف عام 1941 من مينسك: "مؤخرًا استطعنا أن نرى -ليس بعيدًا عن بيت لينين بمسافة50 مترًا- كيف تُطلق النيران من فريق

الحراسة على مجموعةٍ من أسرى الحرب بكل بساطة، كان الأفراد يتناحرون على الخبز وقطع الملابس القديمة، التي كانت تُلقى لهم، وقع ثلاثة أشخاصٍ قتلى ودُفنوا في مكانهم على يد يهود كما لو كانوا كلابًا نافقة، كان لا بدَّ من معاملتهم على هذا النحو، وإلا لما أمكن للمرء أن يفرض سيادته عليهم، هم لم يعودوا أشخاصًا، وإنما غوغاء همجًا».[310]

عندما اجتاز الجيشُ الأحمر في شتاء عام1944 حدود الرايخ الألمانيّ، جلب جنوده الموت والدمار لخصومهم، أُغتصبت النساء، وسُوِّيت القرى بسطح الأرض، وفي طريقهم إلى برلين خلَّفوا وراءهم آثار الهلاك والدمار، لقد أفهم ضباطُ الجيش الأحمر جنودهم، أن اغتصاب النساء مسموحٌ به على الجهةٍ الأخرى من الحدود السوفيتية، وأوضح عقيدٌ سوفيتيّ لمراسل صحفي حربي بريطاني أن الجنود المزارعين كانوا يتوقون لممارسة الجنس، والآن حصلوا على ما كانوا يتحرقون لفعله، وما إن انفتحت بوابةُ الحرية، حتى عصفت موجةٌ من العنف والعربدة فوق نساء الأعداء،[311] يتذكر الجنديّ ليونيد رابيتشيفLeonid Rabitschew هجوم الجيش الأحمر في بروسيا الشرقية قائلاً: "كانت السيدات، الأمهات وبناتهن ملقياتٍ يمينًا وشمالًا في الشوارع، وأمام كل واحدةٍ منهن وقفت كتيبةٌ من المزارعين الضاحكين بسراويل متدلية عن خاصراتهم، كنَّ يُلقين جانبًا والدماء تغمرهن وهن فاقداتٌ للوعي، فيما تُطلق النيران على الأطفال المسارعين إلى نجدتهن، صهيلٌ وصخبٌ وضحكٌ وصراخٌ وأنين، ووقف القادة العسكريون والعقداء واللواءات على قارعة الطريق، واحدٌ منهم يضحك، والآخر يعطي توجيهات، لا، بل كان ينظّم الأمور، حتى يشارك كل جنوده دون استثناء في ذلك"[312]، ليس هناك دافعٌ سوى المتعة من شأنه تفسير ما حدث هنا، ذلك أن التصوّر، والكلام يكتبه ريمتسما: "إن شخصًا يرغم نفسه على ممارسة الجنس، كي يضفي على نزواته السلطوية بعضًا من المرونة، هو تصورٌ سخيف".[313]

في الجيوش الحديثة في أوربا وُضعت الطاقات المدّمِرة للشباب والرغبة في ممارسة العنف في خدمة الأغراض العسكرية، والأمر كذلك اليوم –أيضًا- عندما تخوض الجيوش معارك لحساب الحكومات، يصغي الجنود للأوامر، ولا يتجاوزون قواعد الحرب الدائرة إلا عندما يسمح لهم الضباط بذلك، وما إن ينكسر السد المنيع، حتى يخرج العنف عن السيطرة، ويفعل بعضُ الأشخاص ما يحظره عليهم قانون الحرب، وعندما يُطلق العنان للعنف، يتخذ مسارًا متقلبًا تصعبُ

السيطرة عليه، ترتبط المشاعر مع العادات، والرغبة مع القدرة الاحترافية، وفي كل وقت يتعين على الجناة، تمامًا مثل الضحايا، أن يتوقعوا تحوّل العنف لشيءٍ بديهي، عندما يُسمح للمرء ما كان ممنوعًا عليه في ظروفٍ غير هذه،[314] بعبارةٍ أخرى: الأمر لا يتوقف على ما يستطيع الإنسان فعله، وإنما على ما إذا كان مسموحًا له ما يستطيعُ فعله.

على أن الوحشية في الحرب لا تعتبر مجرد علامةٍ على الاحتقار من أولئك الذين لا يستطيعون التحلّي بالسماحة، أحيانًا تكون –أيضًا- علامةً على الضعف، ذلك أن المنتصر إذا لم يستطع ضمان السلام ولا تأمينه؛ لأنه لا يفرض سيطرته على الأرض والأشخاص؛ لأن البنية التحتية والاتصالات دون المستوى، يجب أن يتوقع أن يعاود الخاسرون إشعال المعركة، يمتلك الخاسرون -مثل المنتصرين- أسبابًا مقنعة كي يرتابوا، ولذلك تكون إبادةُ العدو حلًا يستغرق اليوم بأكمله، الطغاة والمستبدون أيضًا يتميزون بالوحشية؛ لأنهم يعلمون أن الجبروت في الدولة الضعيفة يعتمد على استخدام العنف المفرط: الإعدامات وطقوس الإذلال المنفَّذة على الملأ والتعذيب والإرهاب النفسيّ، ليس الإفراط والغضب الأعمى هما الدافع للوحشية، وإنما التصفية الباردة للحسابات، فيجب ألا يعاود الخصم النهوض أبدًا،[315] لذلك تُغتصب سيدات الخاسرين، وتُدمَّر حقولهم، وتُطرد مواشيهم، ويُشوَّه أسراهم، لطيلة عمرهم يجب على الخاسرين أن يتذكروا الآلام التي ألحقها بهم المنتصرون، يجب ألا يجرؤوا أبدًا على إشعال جذوة الحرب.

يعتبر الإرهاب سلاحٌ يستخدمه الضعفاء بهدف تحقيق مكسب، فهم لا يسيطرون على الحدث، لكنهم يريدون أن يفقد عدوهم الرؤية العامة، ولذلك يقتلون مع سبق الإصرار والترصد، ويضربون عندما لا يتوقع أحد، ويعطلون الاتصالات ويخربّون البنية التحتية، وينشرون الخوف والذعر، لكنهم لا يلقون بأنفسهم أبدًا في أتون المعركة المفتوحة، التي لن يمكنهم الظفر بها، ويُكره الإرهابيون والفدائيون ورجال العصابات عدوهم على طريقة قتالهم، إذ إن وسائلهم التقليدية ليست قادرةً على ردعه، فأثناء الحرب الأهلية الروسية لم تكن هناك معارك ميدانية مفتوحة؛ لأنه لا الجيشين الأبيض والأحمر ولا جماعات المزارعين المحاربة في صف نستور ماخنوNestor Machno كانت جاهزةً لمثل هذه النزاعات، كانت الحرب الأهلية قتالاً على الموارد والأشخاص، وظل المنتصر هو من حقق غنيمةً ودمَّر أساسيات الحياة للعدو، ورُدمت الآبار، وأُحرقت حقول

القمح، وهُدمت الأكواخ، وخُطف الأطفال وحُوّلوا إلى جنود، وأُغتصبت السيدات، وشُوه مقاتلو العدو، في هذه الحرب لم يكن هناك أي تأسف، ما وقع حيًا في يد العدو، لم يكن ينتظر الرحمة؛ لأن الباقين على قيد الحياة كانوا هم من سيأخذ بالثأر غدًا، ولذلك قتل الحُمر والبيض كل من اعتبروه تهديدًا أمنيًا، بدورها ارتوت جيوش المزارعين الثائرة في أوكرانيا –أيضًا- من العنف، حيثما حلّوا بمكان أو ظهروا؛ لأنهم أرادوا أن يمنعوا المفوضين أو الإقطاعيين من العودة إلى السيطرة على السلطة في القرى، فدمّروا أعمدة التليغراف ومكاتب البريد، واغتالوا موظفي الدولة والمنتمين إلى النخبة القيصرية، وحظي النبلاء الذين سقطوا في أيديهم بفرصٍ ضئيلةٍ في النجاة، والشيوعيون تم تعذيبهم أو دفنهم أحياء، والمزارعون الذين لم يسلموا ما طلبه اللصوص منهم، شُنقوا بكل قسوة.

وفي مستهل عام 1920 انتفض مزارعون تتاريون في محافظة أوفا ضد حكم الشيوعيين، وألقوا بموظفي الدولة في ماءٍ مغليّ، وفقأوا أعينهم، وبتروا أنوفهم، ومُزّق بعضهم إربًا إربًا، 23 شيوعيًا لقوا حتفهم، أما رد البلشفيين فلم يتأخر كثيرًا، فقد نسف قادتهم المنطقة وقتلوا أكثر من 400 مزارع[316]، لقد كانت الحرب الأهلية الروسية مذبحةً فريدة وكبيرة، كانت حرب إبادة، لم يحارب فيها أحدٌ من أجل شيء، وإنما حارب الجميع ضد هذا الشيء!

هذه الخبرة عايشها –أيضًا- جنود القوات المسلَّحة الألمانية، عندما تورطوا في حربٍ شعواء ضد رجال المقاومة على الجبهة الشرقية في الأعوام1942 و1943، ولم يكن أمامهم من خيارٍ سوى أن يضبطوا أنفسهم على طريقة قتال قوات المقاومة؛ لأن زيادة أعدادهم لم تكن ضمانةً لتحقيق النصر، شرح القائد الأعلى للقوات المسلحة الألمانية في منشورٍ له في مايو من عام 1944 من أجل "قتال العصابات"، إن الانتصار على المقاومة لا يكون إلا بأسلحتهم الخاصة، وأوصى باستخدام "قادة الطعن بالسكاكين"، والذين كانوا يقاتلون بالطريقة نفسها مثل العدو، وأن يقابلوا الإرهابَ بإرهابٍ مضاد عنيف، لا يضع أي اعتبارٍ لقانون الحرب، فرضت الحربُ نفسها على أرض الواقع، وانفصلت عن الأهداف الأصلية التي كانت يومًا سببًا للصراع، وفي طريق البحث عن غنيمة ومجندين وأعداء وسياسيين هدامين يفقد أطرافُ الحرب كل الأهداف من بوصلتهم، ولم يبقَ في أذهانهم الآن إلا الانتقام والثأر.[317]

لكن الوحشية المحسوبة لا تمر دون عواقب، إنها تضاعف –أيضًا- خيالات منعدمي الضمير والمرضى النفسيين، الذين تكون الحرب بالنسبة إليهم هي الجنة؛ لأنهم لا يحققون أنفسهم إلا فيها، ويتعامل المستبدون وأمراء الحرب، الذين يأمرون بإعدام الجواسيس في صفوفهم علنًا، ويذبحون الأسرى ويأمرون مقاتليهم باغتصاب السيدات وحرق القرى، بحساب الإرهاب يشل العدو، وبعتادٍ قليل يمكن إخضاع أشخاصٍ من خلال العنف،[318] كل اغتصابٍ هو استعراضٍ للقوة أمام الخاسرين الذين لا يستطيعون حماية نسائهم من العنف، وكل إعدام وكل مذبحة هي رسالةٌ إلى أولئك الذين قد يحاولون الثورة على أمراء الحرب والمحاربين، وحدهم مرتكبو أعمال العنف المتمرسون هم القادرون على إنجاز مثل هذه التحديات، ولذلك تبدأ مهمتهم عندما تبطل قواعد الحرب، أما الآخرون فيذعنون جميعًا ويَقتلون؛ لأنهم يخشون أن يُقتلوا هم أنفسهم أو لأنهم اعتادوا -في وقتٍ ما- أن يكونوا قتلةً مأجورين.[319]

المجازر والمذابح

يجب أن تكون المجازر والمذابح مبررة، ذلك أن قتل أشخاصٍ عزَّل، على الأقل من الجنود، ليس أمرًا بديهيًا، إنه ميثاق شرف الثأر، الذي يبرر أسوأ من يمكن للأشخاص فعله بعضهم ببعض، [320] أسرَّ رجل وحدات الحماية فليكس لانداوFelix Landau لكُتيّب يومياته في الخامس من يوليو1941 ، بالقول: "واصلنا سير الشارع بطوله، مئاتٌ من اليهود كانوا يجرّون بطول الشارع والدماءُ تغمر وجوههم والثقوب تخترق رؤوسهم والكسور تشل أياديهم والعيون جاحظةٌ من محاجرها، بعضُ اليهود المُلطخين بالدماء يحملون آخرين خارت قواهم، توجهنا إلى القلعة، وهناك رأينا أشياءً نادرًا ما رآها شخصٌ ما من قبل، عند المدخل يقف جنودٌ يمسكون هراواتٍ في سُمك قبضة اليد، يضربون بها حيثما تصيب".

وعلى الفور وجد لانداو تفسيرًا مفهومًا لهذه الأفعال البشعة: "لاحقًا علمنا من الجنود المتمركزين هناك، أنهم زاروا للتو زملاء لهم وطيارًا هنا في مستشفى عسكريّ في ليمبرج، ورأوا كيف اعتدى عليهم الناس بطريقةٍ وحشية، لقد أُقتلعت أظافرهم وبُترت آذانهم وفُقئت أعينهم أيضًا، وكان ذلك سبب طريقة تصرفهم المفهومة إلى حدٍ بعيد"،[321] وبهذا لم تكن المجزرة الكبرى شيئًا سوى فعل انتقامي نفّذه جنودٌ غاضبون ثأرًا من اليهود، كان الضحايا بغير عتاد ولا سلاح، وأقنع الجناة

أنفسهم بأنهم يقتلون القتلة والساديين، ومن ثَمَّ استطاعوا أن يبرروا فعلتهم أمام كل إنسان، هل صدَّق لانداو وزملاؤه ما حاولوا إقناع أنفسهم به؟ ذلك أمرٌ لن يعرفه أحد، لكن ليس هناك شكٌ أن قتل أشخاصٍ عزَّل والسيدات والأطفال يستدعي وجود مبررات تتَّسق مع الصورة الذاتية الخاصة، يعرف المرء أن قتل أشخاصٍ عزَّل هو أمرٌ غير أخلاقيّ، لكن الآخرين يرتكبونه أيضًا، إذن لماذا يكون ذلك خطأً؟! لذلك يضع المرءُ لنفسه أخلاقيات، تجعل أعماله مستقيمة وتعيد العالم إلى نظامه. [322]

على أن المجزرة نفسها لا تنبني لا على مبررات ولا على دوافع أيديولوجية، لو كان عريف الحماية لانداو تلقَّى الأمر بقتل السلوفاكيين أو الفرنسيين، لكان فعل، إذًا في موطن العنف، الذي تفتحه الحرب التي تهدم كل الحدود، تسقط كل الحواجز، البعضُ يرغبون في القتل ويتباهون بأفعالهم، وآخرون يتعيَّن عليهم القتل لأنهم يخشون العقاب، أو لأنهم يريدون التفوق على أقرانهم، أو لأنهم -بكل بساطة- اعتادوا تنفيذ الأوامر، على الأرجح لم يكن لانداو (الذي خدم في مقر البوليس السرّي الألماني في دروغوبيتش بالقرب من رادوم) ساديًّا، لكن كان يرضيه بسطُ سيطرته على حياة الناس وموتهم، أساء معاملة أوكرانيين وبولنديين، عارضوا أوامره، ووطأ بقدميه أشخاصًا عزَّل، ودأب على حلِّ المشكلات باستخدام المسدس.

في مستهل شهر أغسطس من عام1941 أتى هانز فرانك Hans Frank، المحافظ العام، إلى دروغوبيتش، كي يفتش مقر البوليس السريّ، كتب لانداو في الأول من أغسطس في يومياته: "سوف يأتي المحافظ العام غدًا ويجب أن ترتدي الميلشيا التابعة لي الزي"، وعلى الفور أصدر الأمر لمكتب اليهود في الجيتو بإنتاج48 زيًّا قبل صبيحة اليوم التالي، وفي الثاني من أغسطس كتب: "عند الساعة12 ، أبلغني مجلسُ الكهنة: [كل الأزياء جاهزة]، فمنذ أن قتلت20 رجلًا بسبب الامتناع عن العمل، نجح المشغل"،[323] وحول القتل لم يقل إلا أنه عمل مرهِقٌ وقذر ومزعج يتعين إنجازه،[324] واشتكى في الثالث عشر من أغسطس بقوله: "سوف يُخلى مبنى اليهود غدًا ومن ثم يبدأ العمل من جديد"،[325] وفي 12 يوليو كتب في يومياته سرًّا، ما ألفاه هو وزملاؤه، عندما أُرسلوا إلى العمل خارجًا: "تقدم المرشحون للموت بالمجاريف في أيديهم كي يحفروا قبورهم بأياديهم، اثنان بكيا من بين الجميع، والآخرون تحلَّوا بشجاعةٍ مدهشة، تُرى ماذا كان يدور في

الأذهان في هذه اللحظة؟ أعتقد أن كل واحدٍ منهم كان يحدوه أملٌ ضئيل بألا تُطلق عليه النيران بطريقةٍ أو بأخرى، قُسم المرشحون للموت إلى ثلاث نوبات، إذ لم يكن هناك ما يكفي من المجاريف، بشكلٍ غريب لم يختلج في داخلي أي شيء، لا تعاطف، ولا ما شابه، كان الأمر كذلك وبهذا أُنجز كل شيء، ببطء أخذت الحفرة تتسع، واثنان يبكيان دون انقطاع، طلبتُ منهما الحفر لفترةٍ أطول، وبهذا لا يفكران كثيرًا، وبالفعل أثناء العمل باتا أكثر هدوءًا، طُرحت الأغراض القيّمة، الساعات والنقود، على كومةٍ على الأرض، وبعد أن أُجلس الجميع في ميدانٍ فارغ أحدهما بجوار الآخر، صُفت السيدتان أولًا ليُطلق عليهما النار عند إحدى نهايتيّ القبر، تتابعت الرصاصات وتناثرت أجزاء الدماغ في الهواء، رصاصتان في الجمجمة كثيرٌ جدًا، مزقتا الرأس تمامًا تقريبًا، كلهم تقريبًا طأطأوا الرأس في صمت، اثنان فقط لم ينجح الأمر معهما، أخذا يعويان ويتأوهان طويلًا، ولم تمهلهما رصاصات المسدس وقتًا طويلًا، الآن تعين على المجموعة قبل الأخيرة أن تلقي بالمقتولين للتو في القبر الجماعيّ، ثم يجب عليهم أن يصطفوا ويسقطوا من تلقاء أنفسهم داخل القبر، وكان لزامًا على الاثنين الأخيرين أن يجلسا عند الحافة الأمامية من القبر، حتى يسقطا بصورةٍ صحيحة داخله، والآن تمت إعادة تجميع بعض الجثث باستخدام فأس، ومن ثَمَّ بدأنا بأعمال دفن الموتى".[326]

الموتُ حاضرٌ في كل مكان؛ لا أحد في هذه البيئة يرى في قتل اليهود شيئًا أكثر من كونه أمرًا مزعجًا، شعر لانداو بالأسف؛ لأنه اضطر إلى قضاء يوم عمل قذر، ولم يمتدحه أحدٌ أو يُثني عليه، يطلق الرصاص على أشخاص، وفي المساء يسعد بالخطابات التي ترسلها إليه محبوبته، لا يرى في ذلك أي تناقض، وعندما يشعر بالاكتئاب، يتعاطى الكحول إلى أن يفقد عقله.

"رجالٌ عاديون تمامًا"، هكذا أسمى المؤرخ الأمريكيّ كرستوفر براونينج Christopher Browning أولئك الضباط الألمان، الذين أُرسلوا إلى الاتحاد السوفيتيّ في عام1941 كي يقتلوا اليهود في منطقة ما خلف الجبهة، عندما جاءتهم التعليمات بإطلاق الرصاص على الأطفال والسيدات، أذعنوا للأوامر، إلا أنهم في البداية كانوا مضطربين، وانتابتهم بعضُ الكوابيس وتقيؤوا كثيرًا، لكن بعد أسابيع قليلة لم يعد ذلك يسبب لهم أي شيء، تعاطوا الكحول، وقتلوا -وفقًا للوائح- بلا رحمة أو تأنيبٍ للضمير؛ لأنهم أقنعوا أنفسهم أنهم ينفذون خدمةً شرفية، فعلوا ما يحطم

الآخرين، ليس لأسبابٍ ودوافع واهية، وإنما لأنهم أقنعوا أنفسهم، بأنهم يخلّصون البشرية من ويلاتهم، ولن يعرف أحد، ما إذا كان القتلة مصدقين لما يحاولون إقناع أنفسهم والآخرين به، لكن الأمر لم يتوقف على ذلك مطلقًا، لقد تحوَّل قتلُ العزَّل إلى فريضة، لم يرفض الخضوع لها إلا رجالٌ قليلون فقط، وفي النهاية كان ما يهمهم هو الصداقة والشرف أكثر من وخزات تأنيب الضمير التي تعذَّبوا بها، إذ على الأرجح لم يعلم إلا أقل القليل في وطنهم بشأن حرفتهم الدموية، وفي ميدان القتال لم يكن هناك من يحتاجون إلى تبرير أفعالهم أمامه.

لم يكترث أغلب الضباط لأمر السياسة ولم يكونوا معادين للسامية، كانوا ينفذون "عملهم" فقط، بعضهم نفَّذه على غير رغبةٍ منه، بينما أدّاه آخرون بسعادة، لكن نادرًا ما حدث أن عارض الجناة أوامر رؤسائهم، هل استطاعوا أن يتركوا القتل لزملائهم؟ بعد أن قُتل الأشخاص الأولون، بات الأمر جدّ متأخرًا، لمحاولة طلب تسهيل في العمل استنادًا إلى وخز الضمير، ما يمكن أن يكون خيارًا في السلم وبين المدنيين، لا يمكن أن ينجح في الإطار المرجعيّ للشرف العسكريّ، وليست القناعة والكراهية هما ما ترفعان من الاستعداد للتنفيذ لدى الرجال، وإنما الزمالة والصداقة، إذ في المؤسسات -التي يجب أن يخضع أعضاؤها لتحفيزٍ صارم- تتم معاقبة العصيان واحتقار المخالفين، [327] كتب جون ديكيJohn Dickie حول طقوس التنظيم في عصابات المافيا: "من يتطوع، يعتنق هوية جديدة كليةً ويدخل عالمًا عرقيًا جديدًا"،[328] هكذا كانت الأوضاع أيضًا في مجموعات المجندين، الذين التزم أعضاؤها باتباع الفضائل النازية، ومن تورط -ذات مرة- في الجريمة الكبرى، لن يستطع مغادرة دوامة العنف المنظم مجددًا.

لماذا لم يقاوم أحد؟ لماذا لم تكن هناك معارضة؟ لماذا لم ينتهِ العنفُ عند حد؟ لَمْ يُفسر التوجّه الأيديولوجيّ للجناة، والذي اعتمد عليه أغلبُ المؤرخين، أي شيء، إذا لم يحدث -ذات مرة- أن وجد في المجموعات المقاتلة معادون متحفزون ضد السامية،[329] يكتب عالمُ النفس هارفي أشر Harvey Asher: «إن معارضة وجهة النظر السائدة، وكيف تحظى وجهات النظر هذه بالسيادة، تتطلبان من الفرد التحرر من قيودٍ اجتماعية، يتطلب انفصالًا عن المحيط الحميم، الذي يضمن أمان المعرفة والتصرف والهوية"،[330] لكن هؤلاء الرجال لم يتحلّوا بمثل هذه الشجاعة، ولو كان ضباط القوات المسلحة الألمانية أشعروهم باحتقارهم، لكانت أفعال القتل التي نفذوها

معلومةً في أرض الوطن، وكانت المجازر قد اتخذت نهايةً سريعة، والضباط أنفسهم استوعبوا هذه الحقيقة، ففي أغسطس من عام1941 كتب تاجرٌ من بريمن، كان في كتيبة الشرطة الاحتياطية 105 في لاتفيا، خطابًا إلى زوجته، يعلمها فيه بشأن تجارة القتل، كتب يقول: "هنا يُطلق الرصاص على كل اليهود"، هو قدَّم نفسه على أنه رجلٌ ذو قلبٍ نابض، وكان يقتسم خبزه مع اليهود، لكن قتلهم كان أمرًا محتومًا، لا يستطيع المرء فعل شيءٍ حياله، وأعطى زوجته النصيحة: "بألا تحكي شيئًا عن ذلك لطفلنا الأكبر سنًّا".

في الحقيقة يتصرف الضباط، الذين عملوا في بيئةٍ حميمية، بصورةٍ مختلفة عن أولئك القابعين في منطقة الحرب، ويؤدون خدمتهم بعيدًا عن أرض الوطن، لقد صادف ضباط الشرطة في سيلزيا العليا الشرقية، صعوبةً في إلزام مرؤوسيهم بموقف نازي حيال اليهود الذين كانوا يعملون بالسخرة في الصناعة، وحدث أن قام الضباط بتحية اليهود، الذين يعرفونهم أو مصافحتهم يدًا بيد، وما أصبح في منطقة ما خلف الجبهة أمرًا عاديًا، كان أقرب ما يكون من الخيال في بلاد الرايخ. [331]

صحيحٌ أن الجناة أعضاءٌ في تشكيل عسكريّ وهرم متدرج من الرتب، وينظر بعضهم إلى بعض باعتبارهم جنودًا يصغون للأوامر، لكن هذه الحقيقة أيضًا لا تفسر لماذا أمكن تنفيذ تجارة القتل بسلاسةٍ تامة، فقط عندما يُوصف الموقف بدقة وتركيز، يصبح مفهومًا لماذا تحول أشخاصٌ "عاديون" إلى ماكيناتٍ للقتل، كل مجزرةٍ ارتكبتها المجموعات المقاتلة، كانت تتبع خطةً معينة، يسجل الجناة ضحاياهم، ويميزون منازلهم وملابسهم، حتى يعلم كل واحدٍ أن ليس على اليهود أن ينتظروا أي شيءٍ من الحياة مجددًا، لم يعترض أحدٌ على هذه المعاملة المذلة، كان بعضُ اليهود يأملون في أن يهبهم الجناةُ الحياة، إن هم أطاعوا وأذعنوا، لكن كان عليهم أن ينتظروا أقل القليل من المزارعين الأوكرانيين، لأن وصم أحدهم كان يؤكد للآخرين ضرورة أن ينجوا بحياتهم بأنفسهم، وفي بعض الأماكن استولى المزارعون على ممتلكات القتلى وساعدوا الجناة على التعرف على ضحاياهم وأحضروهم إلى ساحات الإعدام. [332]

ولطالما اتبعت المجازر النموذج نفسه دائمًا، في البداية يحاصر الجنود القرية، التي سكن فيها الضحايا، ثم يقتحمون المنازل ويسحبون سكانها إلى الشارع، يُدفع اليهود إلى ميادين التجميع تحت

زئير الصراخ وباستخدام الهراوات، ومن هناك يُصحبون إلى ساحة الإعدام، كانت الفوضى المنظمة أحد عناصر استراتيجية الجناة لدفع الضحايا إلى حالةٍ من الارتباك الميؤوس منها وعدم السماح لهم بالعودة إلى صوابهم، وكما المخدرين والجاحظين من فرط الرعب وغير القادرين على المقاومة إطلاقًا، كانت السيدات والأطفال يُساقون إلى حتفهم، وطالما استسلموا لقدرهم، فقد باتت مهمة الجناة أشبه بنزهة، كانوا يرغمون الضحايا على خلع ملابسهم، ويسوقونهم في جماعاتٍ إلى القبور، حيث ينتظرهم أمر الإعدام ويُقتلون بطلقاتٍ في الرقبة، كان كل ذلك يحدث على مرأى من المتفرجين والمتواطئين: المزارعين الأوكرانيين، وضباط الشرطة المعاونين، وجنود القوات المسلحة الألمانية، ومدنيين من سلطات الاحتلال الألمانية، أولئك الذين شاهدوا ما حدث، لكنهم لم يفعلوا شيئًا لإنهاء هذا القتل المنظم، وكلما زاد عدد الأشخاص المشاهدين، قلت احتمالية أن يتدخل شخصٌ ما ويساعد الضحايا، يلقي المرء بالمسؤولية على كاهل الآخرين، ويقف ليرى ما ستسفر عنه الأمور، من يمكن له أن يساعد الآن؟ كيف سيتصرف الآخرون عندما يُقدم المرء على الخطوة الأولى؟ ولماذا يتعين على المرء أن يثور بنفسه، بينما الضابط إلى جواره لا يفعل شيئًا؟ كل واحدٍ ينتظر أن يفعل الآخرون شيئًا ما، ولذلك لا يحدث شيء، لا يمتلك الجناة أي سبب كي يخجلوا من أنفسهم؛ لأن المحيطين يتخذون موقفًا يبدو في ظاهره محايدًا، والضحايا يستسلمون لأنهم يعلمون أن غير المشاركين لن يقدموا لهم يد العون، ولم يأمل اليهود في شيءٍ من الأوكرانيين، الذين كانوا يشاهدون الحدث من بعيد؛ لأن الجناة لم يكن يعنيهم، ما يعتقده المحليون بهم، كان الجناة ينتمون إلى عالمٍ لم يكن يتعين فيه على اليهود أن يبرروا أفعالهم، بل يمكن للمرء أن يتجاهل أفعاله بكل بساطة.[333]

تفتح مَواطن العنف إمكانات، ولكنها تشكِّل –أيضًا- سلوك أولئك الذين يجب أن يتحركوا فيها، والآن صحيحٌ أنه ليس كل الأشخاص يستغلون كل الفرص، التي تتوفر لهم، ولكن حينما يصبح القتل أمرًا عاديًا، يكون كل شيءٍ تقريبًا ممكنًا، يتحول المواطنون الشجعان إلى قتلى وساديين ومرضى نفسيين يحققون أحلام حياتهم؛ لأنه لم يعد يلزم عليهم أن يكونوا غير ملفتين، وإنما أن يكونوا هم أنفسهم،[334] ومع ذلك يتصرف الأشخاص حيال الظروف، التي تسود في موطن العنف، قبل الهجوم ينخرط المعتدون في نوبةٍ من الغضب، يقنعون أنفسهم ومن يحيط بهم بوجوب الانتقام للجرائم، ينشرون شائعاتٍ حول خبث ضحاياهم وأعمالهم المشينة المزعومة، التي يجب

معاقبتهم عليها، وقبل أن تنطلق الرصاصة الأولى يؤمن كل من يهاجم بأنه على الحق، لكن ما تزال هناك فرصة للخروج من طريق العنف والاتجاه إلى السلام، وهكذا يتوقف الأمر –أيضًا- على المقهورين، يمكن أن يتحضروا لاندلاع العنف الذي تتجلّى ملامحه في الأفق، ولأنهم يعرفون –أيضًا- بشأن الشائعات التي تنتشر حولهم، كان يمكنهم الهرب أو التسلح أو التفاوض، لكن ما إن تندلع المجزرة، لا يأخذ العنف إلا مسارًا ديناميكيًا. [335]

يأتي الجناة في مجموعات، يطلقون الرصاص، يضربون، يقتحمون النوافذ، يكسرون الأبواب، يشعلون النيران، وفي الشوارع يبدأ الصيد بالكلاب بمجرد خروج الضحايا من منازلهم ومحاولتهم الهرب، تُغتصب السيدات، ويُقتل الأطفال ضربًا، وفقط عندما يُقتل آخر عدو أو يهرب بحياته، تستريح العصابة، وإذا ما تجمع الضحايا من أجل المقاومة، تتحول المجزرة إلى نزاعٍ حربيّ، يكون المخرجُ منه مجهولًا، ولذلك يتوقف نجاح الهجوم على مفاجأة الضحايا وإرباكهم.

"كنت أستطيع سماع وابل رصاصات البنادق وانفجارات القنابل، فضلًا عن صراخ الأشخاص الذين يواجهون الموت"، هكذا يتذكر شاهدٌ على المذبحة التي ارتكبتها مجموعةٌ من الهوتو المسلحين بحق شعب التوتسي الأعزل في رواندا في إبريل 1994، "أطلق المهاجمون وابلًا من الرصاص، وألقوا القنابل على الجموع، وبعد ذلك تقدَّم القتلةُ في مجموعاتٍ وقتلوا كل من تبقى من الأحياء باستخدام أسلحةٍ تقليدية، بدأ المشهد في الصباح الباكر من يوم الحادي والعشرين من شهر إبريل واستغرق يومي الخميس والجمعة بأكملهما، ويوم الجمعة ظلوا يبحثون على نطاقٍ واسع عن الأشخاص الذين ظلوا مختبئين".[336]

يتحرك المهاجمون على وتيرة أفراد عصابة، يثورون من فرط الغضب، يعمي البغضُ أعينهم، يرون ويسمعون كيف يقتل زملاؤهم، لكنهم لا يدركون ما يفعلونه هم أنفسهم، يمشون كما لو كانوا في غيبوبة، يضربون ويطلقون النار، إلى أن ينقضي الأمر ويخيّم الهدوء على أرض المعركة، يكون وقت المجزرة والمذبحة قصيرًا؛ لأن الجناة يريدون أن يبلغوا ما عزموا عليه سريعًا، وطالما تحركوا في إيقاع العصابة، يكون القتل سهلًا بالنسبة إليهم، هم يتجولون ويرون ما يفعله الآخرون، لا أحد في المجموعة يشعر بالذنب أو يحمل المسؤولية؛ لأن ما يفعله الجميع لا يمكن أن يكون محل اتهام، يصف كانيتي حركة عصابة الحرب: "ما يلبث أن يشتعل المنزل الذي توقد فيه

السيدات نارًا، ويتزاحم السكان على الخروج، لا يستطيعون أن يروا من يطلق عليهم النيران من غياهب الظلام، لكن هم أنفسهم يكونون أهدافًا مضيئة، يتدخل الأعداء ويهجمون عليهم بهراواتهم، وتنتهي قصة غيابهم عن الدنيا في بضع جملٍ قليلة، لا يكون الأمر هو معركةً، وإنما إبادةٌ مطلقة، يُلقى بالأطفال الباكين في النار، تُمزَّق أجساد الموتى قطعًا، واحدٌ من الناجين، الذين تلطخوا بالدماء وجثى على قدميه أمامهم على أمل الهروب من المصير المحتوم، حكى ما كان من مصير ذويه، صلبوا كبير القبيلة الميت على شجرةٍ وظلوا يطلقون النار عليه، إلى أن تمزق إربًا، كان عار سيدةٍ ميتة هو ذروة الأفعال المشينة، كل شيءٍ احترق في النيران"،[337] لقد وصف كانيتي فقط ما تكرر منذ زمنٍ بعيد: "فظاعة حرب الثلاثين عامًا، ومذابح اليهود في روسيا القيصرية، ومجازر وحدات الحماية المسلَّحة في أورادور وسانت آنا دي ستازّيما في عام 1944، والجيش الأمريكيّ في ماي لي، وعمليات الصيد بالكلاب للهوتو بحق التوتسي في رواندا، والتي راح ضحيتها -في عام -1994 ما يقرب من مليون شخص، في كل وقت وفي كل مكان تُرتكب مثل هذه الفظائع بالطريقة نفسها وإن اختلف التحضير اللوجيستيّ أو التنفيذ الفنيّ".

لكن ما إن تنقطع وتيرة المجزرة؛ لأن هناك مقاومةٌ ظهرت، فتتشرد العصابة وتواجه الجناة والضحايا فردًا لفرد، يكون تجانس الحركات قد انتهى، من ثم يمكن أن يترك الجناة ضحاياهم ليهربوا؛ لأنهم لا يعلمون ماذا عليهم أن يفعلوا إذا واجهوهم بمفردهم عينًا لعين، ويصادف الجنود، الذين يواجهون ضحاياهم بمفردهم، موانع أكبر في القتل من أولئك الذين يواجهونهم في المجموعة، في سانت آنا دي ستازّيما نجا صبيٌّ لأن جنديًا منحه فرصة الهرب،[338] فقط من خلال حزم القادة يمكن للعصابة أن تستعيد قوتها، وإذا ما انهارت فقد انتهت المجزرة، بغض النظر عما قد يعتقد به الجناة ويؤمنون.

المعسكر

في الأماكن المغلقة وفي السجون والمعسكرات، تكون سطوة الجناة وغيبوبة الضحايا بلا حدود، وطالما يتمتع الأسرى بحق تقديم الشكوى، وتكون سلطة الحراس محدودةً، لكن عندما يكون الهدف من السجن هو إبادة المساجين، فليس هناك من سبب للجناة كي يتحفظوا، لقد مات أشخاصٌ كثر في المعسكرات الستالينية أثناء العمل أو تُركوا من دون طعام أو قُتلوا ضربًا، ولأن الموت كان أمرًا

مقبولًا، استطاع موظفو هيئة الطوارئ السوفيتية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب جرح أسراهم وإذلالهم وقتلهم، دون أن يُعاقبهم أحدٌ على هذه الأفعال، يتذكر جوستاف هيرلنج Gustaw Herling أيامه في المعسكرات المشرفة على نهر كوليما قائلًا:" كان كل امتناعٍ عن العمل يُعاقب بإطلاق النار فورًا، وفي معسكراتٍ أخرى كان يجب على المذنب' أن يقف مجرَّدًا من ملابسه في الثلج والصقيع إلى أن يخضع أو يموت"، لقد عاش هيرلنج رغم الوحشية، بينما كثيرون لما يستطيعوا حتى اجتياز أيامهم الأولى في السجن، "رغم الصقيع القارس كان كل الأسرى تقريبًا حفاة الأقدام، تسترهم فقط بضع خرقات على الجسد وكانوا من الإعياء بحيث بالكاد يستطيعون السير إلى الأمام، لقد رأيت بعينيّ هاتين سجينين يسقطان عند بوابة المعسكر ويموتان في مكانهما، وبناءً على أمر قائد المعسكر سوروكا Soroka كان السجناء يسيرون إلى العمل على أنغام الأكورديون، في أول يوم لي هناك سقط ثلاثة سجناءٍ من السرية قتلى أثناء العمل، وفي منطقة العزل كان السجناء الأقوياء يقتلون السجناء الضعفاء ليستحوذوا على طعامهم، لكنهم لم يُعاقبوا على ذلك أبدًا"[339].

المعسكر يحطّم الأشخاص، الحراس والسجناء على حدٍ سواء، إنه يدمر كل العلاقات الاجتماعية المنتجة، ويقول شعور التعاطف مع الآخرين، لا يستطيع أحدٌ أن يقدِّم التضامن في ظل ظروف المعسكر؛ لأن كل سجين هو منافس على الغذاء ومكان النوم، وكل ضعيف وكل مريض هو عبء؛ لأنهم يقللون من الإنجاز في العمل، الذي يجب على جماعة المساجين أداؤه معًا، كتب بريمو ليفي Primo Levi عن الحياة اليومية في أوشفيتس:" هنا تكون المعركة على البقاء على قيد الحياة دون رحمة؛ لأن كل واحدٍ يكون يائسًا ومتوحشًا وحده، عندما يتعثر واحدٌ نكرة في ثمانية عشر آخرين، لا يجد من يمد له يد العون، لكنه بالطبع يجد من يطرحه أرضًا؛ لأنه لا أحد يهتم بأن يذهب شخصٌ مسلم إلى العمل كل يوم، ثم يصل أحدهم من خلال معجزةٍ من الصبر المُمَضّي والمكر والخداع إلى توليفةٍ جديدة، كي ينقذ نفسه من أقسى الأعمال، يصل إلى طريقةٍ جديدة تدرّ عليه بضعة جرامات من الخبز، مِن ثَم يحافظ عليها سرًّا ما أمكنه ذلك، ومن أجل ذلك يحظى بالتقدير والاحترام ويحاول تحقيق منفعته الشخصية فقط؛ يحظى بالقوة ويُخشى جانبه، وما يخشاه الآخرون، يصبح مرشحًا للبقاء على قيد الحياة، "[340]

في بضعة أيامٍ فقط يتحول الأشخاص إلى وحوش على أتم الاستعداد للتضحية برفاق المعاناة من أجل نجاتهم، لقد دمر المعسكر الرغبة في المقاومة، وكان السجناء أنفسهم هم من ينجزون هذه المهمة، يتذكر سونج بيوك Song Byeok، الذي قضى ستة أشهر في معسكر للعمل بكوريا الشمالية، أن السجناء كانوا يسيئون الظن بعضهم في بعض ويسرقون بعضهم بعضًا؛ لأنه بعد أيامٍ قليلة لا يقاتل كل واحدٍ منهم على حياته الخاصة، في الليل يتعرض المساجين للضرب المبرِّح من رفاقهم في المعاناة؛ لأنهم لم يعملوا إلا قليلًا جدًّا أثناء النهار، كان الحراس هم من يعهدون إليهم بهذه المهمة، ومن يضرب زميله السجين، يعمل في اليوم التالي أقل من الآخرين، ولم يكن ممكنًا لأحدٍ في ظل هذه الظروف أن يُظهر نوعًا من التضامن أو التعاطف.[341]

في حالة الطوارئ يُضرب بكل المعايير عرض الحائط، وما كان أشبه بالمستحيل في حالة السلم، يتحول إلى شيءٍ اعتياديّ، الآن تبدأ ساعة مرتكب أعمال العنف، الذين لم يعد أحدٌ يقدر على منعه من اتباع خياله الجامح، يكتب فارلام شالاموف Warlam Schalamow عن الحياة اليومية في المعسكر السوفيتيّ:" الشغف بالسلطة والقتل المطلق كثير"، وفي غضون أسابيع قليلة يتحول الأشخاص المسالمون إلى ذئابٍ مفترسة،[342] وهذه هي العظة التي تستخلصها ضحايا العنف من مثل هذه الخبرات.

إن سبب فرط العنف والآلام التي يتعين على الأشخاص في المعسكرات تحمّلها، هو عدم تكافؤ أوضاع السلطة، وانعدام الأمل في الخروج من الموقف الراهن، كان الجناة يعرفون أن ضحاياهم لن يستطيعوا الهرب أو الأخذ بالثأر، وسيكونون دائمًا تحت رحمتهم، كان يمكنهم أن يفعلوا معهم كل ما يمليه عليه خيالهم، ولم يكن واحدٌ منهم يرى ما يحدث هناك على أنه أمرٌ صادم، ذلك أنهم كانوا يتعرضون فقط لنظرات زملاء المساجين، وليس لحكم العالم الخارجيّ، وأمام الأصدقاء والأقرباء كان عليهم أن يُخْفوا ما يفعلونه، لكن عندما يتسرب ذات مرة شيءٌ مما يفعلونه، لا يشفع لهم أي تبرير لإزالة الخجل الذي ينتابهم من نظرة أقربائهم إليهم، في أبريل من عام 1946 تحدث عالم الطب الشرعيّ الأمريكيّ فليكس جيلبرت Felix Gilbert في زنزانةٍ من سجن جرائم الحرب في نورنبيرج مع رودولف هوس Rudolf Höss، قائد معسكر الاعتقال أوشفيتس، سأله جيلبرت عن علاقته الجنسية مع زوجته، أجاب هوس:" الآن؟!، أقصد كانت طبيعية، لكن بعد أن

اكتشفت زوجتي ما كنت أفعل، نادرًا ما كانت تنتابنا رغبةٌ في ممارسة الجنس، مَن في الخارج كانوا يرون كل شيءٍ طبيعيّ، لكنني أعتقد، أن هناك ثمة شعورٌ بالاغتراب، عندما أعود الآن بذاكرتي إلى الوراء"[343].

هذا ولم يكن يلزم عليهم تبرير أعمالهم الوحشية أمام المتخصصين في القتل، فكان بمقدور المرء أن يكون أبًا محبوبًا لأسرة، وقاتلًا لا وازع له ولا ضمير، لم يكن أي عريفٍ من وحدة الحماية يرى في ذلك تناقضًا مأساويًا، ولا ذرة خجل، على الإطلاق! فقط في مطلع العام 1945، عندما واجه الرأي العام الجرائم التي أُرتكبت في المعسكرات، تعيَّن على الجناة أن يتحملوا مسؤولية أعمالهم أمام الرأي العام المدنيّ وأمام محاكم الحلفاء[344].

لقد كان معسكر الاعتقال مكانًا للاستبداد التام، كان الغرض الوحيد من إنشائه هو قتل الأشخاص، لا أحد ينبغي له أن يغادر المعسكر مرةً أخرى حيًّا، ولا أحد يعرف ما الذي حدث هناك، لم تكن أفكار الجناة والضحايا موجَّهة صوب شيءٍ سوى الموت، فريقٌ يقتل، والفريق الآخر يبحث عن مخارج تمكّنه من الهرب من الموت أو تؤخره برهةً من الوقت على الأقل، وهكذا استطاع الجناة تغذية خوف الضحايا من سلاحهم، كان الوصول إلى المنحدر في أوشفيتس أو تريبلينكا بمثابة النهاية لكل يقين، لم يستطع أي واحدٍ من الناجين أن ينسى تلك اللحظة، التي فُتحت فيها أبواب العربة، صراخٌ يصم الآذان، ونباح كلاب، ومسجونون يُدفعون بالهراوات للاصطدام بالوافدين، ورجال وحدة الحماية، يراقبون الوضع من بعيد حاملين السّياط في أيديهم، وعلى الجهة الأخرى من المنحدر لم يكن في انتظار المساجين سوى الجحيم، كان يدخلون عالمًا، يُسلَّمون فيه إلى جلاديهم ولا حيلة لهم، يتذكر بريمو ليفي لحظة وصوله إلى أوشفيتس: "لا يعود المرءُ قادرًا على التحكم في أفكاره؛ بدا الأمر كما لو كنا قد لقينا حتفنا بالفعل"،[345] هُدمت كل القواعد التي تنظم الحياة في بيئةٍ مدنية، كل واحدٍ يمكن أن يُصاب أو يُهان أو يُقتل في أي وقت، لا أحد ولا شيء كان باستطاعته ردع القتلة وإيقافهم، يظل الضباط ونزلاء المعسكر القدامى يضربون ضحاياهم بدون توقف ويقتلون منهم من لا ينصاع لأوامرهم، سأل السجين تاديوز زوبولوفيتش Tadeusz Sobolewicz، الذي وصل لتوه إلى أوشفيتس، واحدًا من رفاقه في المعاناة: "لكن لماذا يعذّبه؟"، بعد أن أصبح شاهدًا كيف أن قائد الزنزانة، وهو نفسه سجين، عذّب رجلًا حتى الموت؛ لأنه تبوَّل

على نفسه، وجاءته الإجابة: "نعم، لكن هل يعذبون هنا لأن هناك سبب؟ تاديك، أليس لديك عينين في رأسك؟ هناك يعذّبون من دون سبب، سواء كنت مريضًا أو سليمًا، ليس هناك مبرر على الإطلاق"[346].

لم يكن المساجين، الذين أُرسلوا إلى العمل، وقبل أن يموتوا أيضًا، يستطيعون البقاء على قيد الحياة إلا لو جعلوا أنفسهم أفرادًا ذوي نفع، كتب فيسلاف كيلار Wieslaw Kielar، الناجي من معسكر أوشفيتس: "أفضل من فعلوا ذلك هم أولئك الذين لم يكن لديهم وازعٌ من ضمير على الإطلاق، شقّوا طريقهم المهنيّ، استطاعوا الوصول إلى السلطة، ولم تنتابهم الحساسية عند اختيار الوسيلة إلى ذلك، ولو على حساب آلام البشر وحتى حياتهم نفسها، المهم، أن يروق المرء للسلطة، المهم، أن يؤمن المرء موقعه بهذه الطريقة ويستطيع ملء البطون بحصص مسروقة من معاونين جائعين، أما قد امتهنت كرامتهم تمامًا من خلال مثال المجرمين الألمان ورجال وحدة الحماية منعدمي الرحمة، فقد تحولوا بفعل غريزة سفك الدماء إلى مجرمين"[347].

استطاع رجال وحدة الحماية الاقتصار على متابعة المعسكر وإصدار أوامر القتل ورؤية كيف يتصرف المساجين: الضباط ومشرفو الثكنات العسكرية، الذين يبرحون المساجين ضربًا، الأصحاء، الذين يسرقون من المرضى آخر قطعة خبز لديهم أو الذين يحملون الجثث من غرف الحرق بالغاز وينتزعون من أفواههم الأسنان الذهبية، إن من يتلطخ بالدماء ويخون مبادئه، لا يستطيع الرجوع أبدًا، كل ضابط وكل مشرف على ثكنة عسكرية كان متواطئًا مع وحدة الحماية ومعاونًا للسلطة،[348] كل موظفٍ في وحدة الموت كان يمثل للسجين إطالةً في حياته، لذلك يتحول الشخص في المعسكر في غضون أيامٍ قليلة إلى وحش، لا تعود لديه مشاعر التعاطف، كتب كيلار: "يعيش المرء في المعسكر من يومٍ إلى آخر، فقط كي يحيا حتى الصباح، لكن حتى يجتاز ذلك اليوم، كان المرء بحاجةٍ إلى الكثير من القسوة والشجاعة والحظ، من ينهار جسديًا، ينهي هذه الحياة البائسة سريعًا أو يتم الإجهاز عليه في غضون أيامٍ قلائل على يد الضباط ومشرفي الوحدات ورجال وحدة الحماية، الذين تدربوا على حرفتهم كثيرًا"[349].

ورغم ذلك لم يكن القتل المنهجيّ للأشخاص مهمة يسيرة على رجال وحدة الحماية، في تريبلينكا طلب القائد العسكريّ، فرانز شتانجل Franz Stangl، تدشين واجهاتٍ وهمية، لخداع الضحايا

فيما يخص بناء المعسكر ولتسهيل مهمة القتل على الجناة، وعند المنحدر كانت تُرى جداول المواعيد وشبابيك التذاكر واللافتات الإرشادية، التي تعطي للناظر انطباعًا أن تريبلينكا كانت معسكرًا انتقاليًا وليست مكانًا للإبادة في المنطقة المحرَّمة، كان رجال وحدة الحماية يهدؤون من روع الضحايا الخائفين والمرعوبين، ويسلمونهم الحقائب والملابس، ويطمئنونهم بأن أحدًا لن يمسهم بسوء، كانوا يُسألون عن وظائفهم ومستواهم المعرفيّ، حتى يُخدعون، كتب فاسيلي جروسمان Wassili Grossman، أن رجال وحدة الحماية "كانوا يعرفون تلك القواعد البسيطة، التي تنطبق على كل مراعي الماشية والسلخانات في العالم"[350]، وجرت العادة أن يسقط اليهود القادمون من أوربا الغربية في شراك هذه الخديعة؛ لأنهم لا يتخيلون لأي سبب يتم ترحيلهم إلى تريبلينكا، إن من عاش في حي اليهود في وارسو أو أحياء أخرى من الجحيم، لا تدور في رأسه خيالاتٌ في هذا الصدد، لقد وقعت في مثل هذه الأماكن مذابح مفزعة؛ لأن الضحايا امتنعوا عن ركوب القطارات، وأطلق رجال وحدة الحماية المخمورون النار على كل اليهود الذين عارضوا ترحيلهم وتركوا الجثث ملقاةً على قضبان السكك الحديدية، وبين حينٍ وآخر كان يحدث أن ينقضّ اليهود، الذين أتوا من وارسو إلى تريبلينكا بوسيلة نقل على رجال وحدة الحماية بأيدٍ عارية عند المنحدر، كانت الطلقات تتابع، وكل اليهود الذين يخرجون عربات القطار كانوا يلقون حتفهم بالبنادق الآلية[351].

جديرٌ بالذكر أن الجناة كانوا يريدون تجنب مثل هذه الأعمال الوحشية بأي ثمن، وبعد أسابيعٍ من القتل أتقنوا حرفتهم، وكانوا يفعلون ما يتعين عليهم فعله حتى يذهب الضحايا بمحض إرادتهم إلى غرف الغاز، أغلب الأشخاص كانوا يُقتلون في يوم وصولهم؛ لأنه يومًا بعد آخر تصل شاحناتٌ جديدة تحمل يهودًا من كل دول أوربا إلى تريبلينكا، ولأن الجناة أرادوا أن يتجنبوا دخول الأشخاص في حالةٍ من الذعر بسبب الخوف، وعند المنحدر، كان يجري فصل كبار السن والمرضى عن بقية المساجين، ويُقتادون إلى مستشفى عسكريّ ويُقتلون بالرصاص من رجال وحدة الحماية، كان يُسمح للبعض منهم أن يواصل العيش لمزيدٍ من الوقت، كي يحرق الأموات ويقسم الملابس وينتزع الأسنان الذهبية من فكوك الجثث، وكل الآخرين، وبخاصة السيدات والأطفال، كانت تُحلق رؤوسهم تمامًا ويُدفعون إلى ممر تحيط بها أسلاكٌ شائكة، كان الممر يؤدي إلى غرف الغاز، وما إن يستوعب الضحايا ما يحدث معهم، يكون الأمر قد تأخر كثيرًا، لا

يستطيعون العودة من هناك؛ لأن "الخرطوم" يضم معاونين أوكرانيين ورجالًا من وحدة الحماية، ينهالون عليهم بالضرب بهراواتٍ وبمؤخرات البنادق ويحرضون الكلاب عليهم، الآن لم يعد هناك رجوع، ويقوم القادة بدفع العرايا، الذين فقدوا في أعينهم كل السمات الإنسانية، إلى غرف الغاز، أشخاصٌ عرايا، برؤوسٍ حليقة، يُدفعون كما تُدفع الحيوانات في المذبح عبر خرطوم، هكذا كان الجناة يؤدون مهمتهم، وربما كان يساعدهم هذا التصور على إنهاء يوم عملهم الدامي،[352] وبعد عقودٍ من الزمن عندما شاهد قائد المعسكر، فرانز شتانجل Franz Stangl، مذبحًا في البرازيل، تذكر تريبلينكا ولم يستطع أكل اللحم لعدة أشهر، "الأشخاص الذين كانوا يُدفعون إلى غرف الغاز كما المواشي!"، لم تعد هذه الصور تفارق خياله أو تغيب عن رأسه أبدًا، يتذكر شتانجل لاحقًا، بينما هو قابعٌ في السجن، وفي حديثٍ له مع جيتا سيريني Gitta Sereny: "كانوا دائمًا يشكّلون كتلةً ضخمة، أحيانًا كنت أقف على المنحدر الرمليّ وأتابعهم في طريقهم عبر 'الخرطوم'، لكن – كيف يمكنني أن أشرح لهم- كانوا عراةً ومحشورين ويجرون خوفًا من ضربات السياط، كما لو كانوا..."[353].

الآن صحيحٌ أن عنف رجال وحدة الحماية لا حدود له، لكنه لم يكن بلا جدوى ولا عبثيًا، يتحدث ريمتسما عن عنفٍ "موضعيّ"، يستهدف محو الجسد،[354] وفي تريبلينكا لم يكن العنف يخدم إلا غرضًا واحدًا هو إرسال الأشخاص إلى غرف الغاز، ولذلك لم يكن المعاونون الأوكرانيون ورجال وحدة الحماية يستخدمون سياطهم إلا لدفع الأشخاص أحياءً عبر "الخرطوم" إلى غرف الغاز، لقد أدرج القائد شتانجل بنفسه نظام السياط؛ لأنه كان يمنِّي النفس برفع درجة الكفاءة من خلال ذلك، فقد كان استخدام السياط يرفع من قدرة الضرب لدى الجناة، دون أن يعرّضوا أنفسهم هم للخطر، لقد كانت السياط رموزًا لانتهاك كرامة الإنسان، فمن يُضرب بالسوط، لا يمكن أن يكون إنسانًا، ووسط الجموع يُنتزع من الإنسان تفرّده، ويُنظر إليه على أنه مخلوقٌ عارٍ حليق الرأس، وليس إنسانًا، ما كان يعني الجناة في هذا الصدد هو أن ينتزعوا من ضحاياهم تفردهم، كي يستطيعوا قتلهم وبينهم مسافةٌ بشرية،[355] لم يكونوا يريدون النظر في عيون الأطفال، وإنما على جميع الأجساد العارية، هذا يعد تناقضًا، لكن امتهان كرامة الضحايا كان بمثابة شرط لتخفيف العبء عن كاهل الجناة، يجب أن "تُهيئ الأمور "للجناة تمامًا، كما قال شتانجل لسيريني "كي يُتاح لهم أن يفعلوا ما كانوا يفعلونه بعد ذلك"، لقد كان امتهان كرامة الضحايا الوسيلة الأنجح من أجل ذلك،

[356] وفي وقتٍ ما انعدمت المشاعر لدى المعاونين ورجال وحدة الحماية؛ لأنهم يدفعون الأشخاص ليل نهار داخل "الخرطوم"، بالنسبة للضحايا كان ذلك بمثابة نهاية كل شيء، وبالنسبة للجناة مجرد روتين، ليس شيئًا ذا طبيعةٍ خاصة، عملية قتل تدرّبوا عليها وأزالت كل الحواجز داخلهم، كانوا يقتلون بوتيرةٍ منتظمة، ميكانيكيًا ودون وازعٍ إنسانيّ، لم يكن ينتابُ أحدهم شعورٌ بالذنب أو وخز الضمير؛ لأن كل واحدٍ منهم كان ينفذ ما يُطلب منه، ولم يرفض واحدٌ منهم ذلك.

من يعذب أو يقتل بدافع الكره أو التلذذ بالمعاناة، يفقد السيطرة على الوضع وعلى نفسه، ولكن كان العنف الموجَّه لغرض ما يتحول إلى عملٍ وحشيّ، وحيثما لم تكن للسلطة حدود، يكون الخطر كبيرًا لأن يذيق الجناة ضحاياهم آلامًا مبرحة ويمتهنون كرامتهم قبل أن يقتلوهم؛ لأن المعايير الأخلاقية للمجتمع المدني لم تكن تعني أي شيء في المعسكر، لماذا -هكذا كان يفكر بعض الجناة- يُفترض أن يمنع تعذيب الأشخاص الذين سوف يُقتلون على أي حال؟ إن جذور الأعمال الوحشية تعود إلى الأوضاع غير المتجانسة للسلطة، الجاني يستطيع فعل كل شيء والضحية لا تستطيع فعل أي شيء، إن الاستسلام المطلق للضحية يزيد من مشاعر السطوة لدى الجاني، وبذلك يستطيع أن يفعل أي شيء بحق المستسلمين الذين سوف يموتون على أي حال، العمل الوحشيّ لا هدف له ولا غرض من ورائه، يريد فقط أن يدمر ويبيد؛ لأن الوحشية توجد حيث يجب أن يموت الجميع وألا يبقى أحدٌ حيًّا[357].

في تريبلينكا لم تُوضع حدودٌ لأعمال العنف الوحشية، شقَّ قائدُ كتيبة الحماية، جوزيف هيرترايتر، رؤوس أطفالٍ صغار باستخدام مجراف، وقتل أطفالًا رضع، انتزعهم من أحضان أمهاتهم، بحيث أمسك بهم من سيقانهم وقذف بهم إلى الجدران أو الأعمدة،[358] ضُربت النساء الحوامل في بطونهن طويلًا إلى أن يعانين من إجهاض الحمل، بعضُ رجال وحدة الحماية كانوا ينتقون لأنفسهم نساءً جميلات، ويقتلونهن واحدةً بعد الأخرى أو يجلدونهن بعد أن ينتزعوا ثيابهن، وكان يحدث – أيضًا- أن يتركوا ضحاياهم ينتظرون في برودةٍ قارصة أمام غرفة الغاز ويستمتعوا بمنظر السيدات الخائفات العاريات، أحيانًا كانوا يرغمون "اليهود العاملين"، الذين يلزم عليهم حمل الجثث بعيدًا، على اغتصاب السيدات، بعد ذلك يتم قتلهم هم أنفسهم، وكانت تُنظم للمعاونين الأوكرانيين حفلات اغتصاب جماعيّ، كانوا مسموحًا لهم باختيار أجمل السيدات واغتصابهن، قبل أن يُدفع بهن

إلى غرف الغاز، لم يكن هناك ما يبدو مستحيلًا في هذا العالم من الوحشية، كان الأوكرانيون يشقون بطون النساء بالسيوف في الطريق إلى غرف الغاز، ويسيئون إليهن باستخدام الحراب والسياط، ويجبرون الرجال اليهود على اغتصاب الفتيات، قبل أن يُساق بهن إلى الموت[359].

حدث كلُ هذا تحت إشراف نائب قائد المعسكر، كورت فرانتس Kurt Franz، الذي اتخذه المراقبون مثالًا في الوحشية، كان فرانتس يقف بنفسه عند المنحدر عندما يصل قطار، ويختار اليهود الذين يجب أن يعملوا أيضًا، كان يهجم على المساجين بدون سبب ويقتلهم بمسدسه، أو يأمر بنقلهم إلى ثكنات المستشفيات العسكرية حيث يُقتلون على يد الأوكرانيين، كان فرانتس يستمتع بكونه سيدًا على الحياة والموت، وعندما يروق له ذلك، كان يحرض كلبه "باري" على أحد اليهود، الذين يتصادف وجوده في الطريق، ويأمر الكلب بافتراسه[360].

من يختلق مثل هذه الأعمال الوحشية؟ لماذا يكون الأشخاص متوحشين؟ ولماذا لا ينكسرون تحت وطأة أفعالهم؟ لن يحصل أحدٌ على إجابة لهذه الأسئلة، عندما ينشغل المرء فقط بالأسباب الاجتماعية أو المحفزات الأيديولوجية للجناة، الأمر لا يتعلق بالمتعقدات التي يعتنقها الشخص الذي يشق بطون السيدات أو يغتصبهن أو يقتلهن، الأفكار لا تقتل، ولا تشرح شيئًا، إنها ليست سوى شرعنة للعنف،[361] البعض يتحولون إلى مرتكبي أعمال عنف، عندما يُسمح بما يقع تحت طائلة القانون، إنه الموقف الذي يُفسر لنا ما يحدث مع الجناة والضحايا، لا تكون الأعمال الوحشية ممكنةً إلا عندما تُرفع الحدود وتُفتح البوابات إلى ارتكاب الفظائع، كل الجناة، الذين كانوا معيّنين في تريبلينكا أو سوبيبور أو أوشفيتس، كانوا يُقتلون في السر، لم يُلقِ عليهم أحدٌ مواعظ، ولم تعرف زوجاتهم وأطفالهم ما كانوا قادرين على فعله، لم تكن هناك مقاومة، ولم يحسب أي رجل من وحدة الحماية أي حسابٍ للعقاب أو الانتقام؛ لأن الجناة أخذوا على أنفسهم ألا ينجو أي شاهد حيًا، لم يكونوا يلتقون في معسكر الإبادة إلا بنظرائهم، الذين لم يكونوا يحملون أوزارًا أقل منهم، كل واحد ارتكب جريمة قتل، فلماذا لا يفعل المرء -أيضًا- ما فعله الآخرون؟ لم تكن هناك أي صلة بين رجال وحدة الحماية في الحياة اليومية وبين المعايير القيمية للعالم المدنيّ على الإطلاق، كان عالمهم محكومًا بلوائح يُفترض بها أن تسهل حرفة القتل والاغتيال، وفي عزلة موطن العنف كانت تزدهر ثقافة التوافق والمواءمة، التي سمحت لرجال وحدة الحماية بفعل ذلك دون أدنى شعور

بوخز الضمير، وكلما انعزلت مجموعة، كبر احتياجُ أفرادها للخضوع لمعايير منظمتهم وأفكارها، يحتاج المرء إلى موافقة الآخرين، يريد المرء الانتماء إليهم، ولذلك يكون الجميع مشاركين في السلطة الجماعية، يقف الجميع في سطوة الاستبداد الذي اختلقوه بأنفسهم،[362] كلهم قتلوا، ولم يعارض أحد، ولأنه في موقف السلطة المطلقة والخضوع التام يكون كل شيءٍ مُتخيل قابلًا للتحقق أيضًا، خرج الأشخاص عن وعيهم ونفذوا أعمالًا وحشية حمقاء.

لا أحد يعرف أفضل من الضحايا، لماذا يُقتل الجناةُ ويعذّبون، هم يعرفون أنهم لن يستطيعوا الهرب، وأن موتهم بات أمرًا محتومًا لكنه مؤجلٌ فقط، ومع ذلك يتشبثون بالأمل علَّهم يهربون من ذلك بحياتهم، ذات مرة راقب بريمو ليفي يهوديًا في أوشفيتس، اجتازته عملية الاختيار وشكر الله على أن الاختيار لم يقع عليه، وإنما على شخصٍ آخر ليُرسَل إلى غرفة الغاز، كتب ليفي: "لو كنتُ إلهًا، لكنت بصقتُ صلاة كوهن على الأرض"[363].

ما إن يترسخ العنف، حتى تتحول العادة إلى أمرٍ طبيعيّ، وما إن يتحول العنف إلى روتين ويفرض نفسه في المواقف النمطية، حتى لا يعود الجناة يعتبرونه أمرًا غير اعتياديّ، يصبح العنف جزءًا من العادات ويغير من الجاني، الذي ينفذ الآن، ما تطلبه منه المؤسسات، وفي وقتٍ ما ينظر إلى التعذيب والقتل باعتبارهما أمرًا بديهيًا، وهكذا يواصل العادة، دون أن يسأل عن مغزاها ومبررها، والآن لا يتعين على الجاني إلا أن ينفذ "إطارًا سلوكيًا عامًا"، حسب سوفسكي، هو لا يحتاج إلى دافع، إذا ما مر أمامه سجينٌ على الطريق، لا يروق له تعبير وجهه، ينقض عليه، ولا يجد من يعارضه، فيقتله، هو لا يعود يفكر، ولا يبحث عن القرار الصحيح أو عن دوافع، هو ينفذ فقط ما يمليه عليه الموقف وما جرت عليه العادة، لم تكن مذبحة الهولوكوست ممكنةً، حسبما يكتب عالم الاجتماع شتيفان كوهل Stefan Kühl، إلا لأنها نُفِّذت في مؤسسات، توكل المؤسسات لأعضائها أدوارًا وتجبرهم "على فعل أشياء، ما كانوا ليفعلوها خارج المؤسسة"[364]، إن تحويل العنف إلى نهجٍ مؤسساتيّ وإلى روتين يخفف العبء عن كاهل الجناة، ويزيح عن عاتقهم وخز الضمير والشعور بالذنب، ذلك الذي كانوا يشعرون به في البداية، كانوا يستطيعون الهرب من تحمل المسؤولية كأشخاص، وينفذون ما بدا حتميًا من دون شك[365].

الحرية والعنف

أليس هناك أمل، بأن توجد نهايةٌ للعنف في أي مكان؟ أليس احتكار الدولة لسلطة العنف يفترض أن يكون ضمانةً للسلم؟ يقول سوفسكي وأتباعه، إنه في أيدي مرتكبي أعمال العنف تحوَّلت رغباتُ الأشخاص إلى أسلحةٍ فتّاكة، واحتكار العنف إلى مصدرٍ من الإرهاب لا حدود له، إن كل من يمتلك إمكانيات الجهاز التنفيذيّ، يستطيع في كل وقت إلغاء العقد، الذي يخوِّل لأحدهم السلطة ويوفر للغير الأمان النظاميّ، يمكن كبح الميول العدائية من خلال العقوبات والقمع الداخليّ، لكن أصحاب السلطة يستطيعون تسخير التعطش للدماء والعنف حسب رغبتهم ويوجهونهما لتنفيذ أغراض معينة، ولا تكون المجتمعات المؤمَّمة في العصر الحديث بمأمنٍ من ذلك، إن الغلاف الواقي للحضارة هشٌ للغاية، وأقل شرارة سوف تشعله وتُطلق العنان للعنف، ولذلك لا يعد القتل الجماعيّ امتيازًا للشعوب البربرية ولا أثرًا من الماضي السحيق، إنه حاضرٌ دائمًا في واقعنا المُعاش، وحتى هناك حيث تُؤمن الحضارة بأن قالت كلمتها الأخيرة.

يقول سوفسكي، إن السيادة والثقافة تكبحان جماح الإنسان وميوله، يكون الإنسان مستترًا بالنظام وأيديولوجيته طويلًا إلى أن يتبع ما تكلفه به السلطة دون معارضة، وفي النهاية يتمثل عالمٌ متجانس من التصورات، "تكون الأفكار السائدة فيه هي أفكار السيادة"[366]، لقد تحدث فريدريش نيتشه قبل مئة عام عن طغيان "وخز الضمير": "كل الحصون المخيفة، التي يحمي بها التنظيم الرسميّ ضد الغرائز القديمة للحرية -تندرج العقوبات بشكلٍ خاص ضمن هذه الحصون- يكون من تأثيرها أن تراجعت كل غرائز الإنسان الحر المتوحش، وتحولت ضد الإنسان نفسه، العداوة، والوحشية، والرغبة في الملاحقة، وفي الهجوم، وفي التغيير، وفي التدمير كل ذلك يتحول ضد مالكي مثل هذه الغرائز، وهذا هو منشأ 'وخز الضمير' لكنه يتحول إلى المرض الأكثر إخافةً للإنسان على الإطلاق، وهو تعذيب الإنسان لنفسه"[367].

لكن الإنسان لا يستطيع التصرف ضد طبيعته على الدوام، ولذلك يتوق إلى الثورة، التي تتغلب على الترويض الداخليّ لنفسه، وما إن يُسمح بما كان ممنوعًا من قبل، يفوز –أيضًا- التعطش للدماء باليد العليا متفوقًا على الحاجة إلى الأمان، إن عملية التحضر ما هي إلا خرافة يحاول البشر أن يزيفوا طبيعتهم الحقيقة بها، لذلك يحدث أن تكون الحريةُ أحب إلينا من العبودية من خلال ترويض الحيوانات، ويعتقد سوفسكي أن الثقافة ما هي إلا الجهد العبثيّ للاستمرار رغمًا عن

الموت، وأن الحياة البشرية هي "معركةٌ ميؤوسٌ منها ضد القضاء والقدر"[368]، في الحقيقة يريد الإنسان اجتياز الحدود وفعل ما يستطيع تصوره، دائمًا وأبدًا يمنّي النفس بالنظام ويسعى إلى الحرية، وإلى معارضتها، اليوم تمامًا كما كان قبل آلاف السنين، وما إن تسنح الظروف، حتى يُصبح ما هو قيد التصور قابلًا للتنفيذ، إذ إن ما كان مُتخيلًا ذات مرة، يمكن تكراره إلى الأبد، فقط عندما يكتفي البشر، أو عندما ينتصر واحدٌ على الآخر، أو عندما يُصاب المقاتلون بالتعب، يبحثون عن طرق لإعادة إحلال السلام، فهم يكتفون إلى أن يعود الجوع، "إن الأزمنة البينية لحالة السلم ما هي إلا حلقات، تكفل العصر الذهبيّ لبضع سنواتٍ فقط، أو لبضعة عقود على أفضل تقدير، وفي حوليات الثقافة والمجتمع لا تكون هذه العقود إلا صفحاتٌ فارغة"[369]، إذا ما أراد المرء إبادة العنف من العالم، فلا بد من اختفاء الإنسان عن وجه الأرض.

إن نظرة سوفسكي إلى الإنسان قاتمةٌ للغاية، وتشاؤمه لا حدود له، ليس هناك تقدم ولا أمل في وضع نهايةٍ للعنف، من يريد مقاومة الفتنة، يحتاج إلى الطاقة والنظام الداخليّ، يقتبس سوفسكي من الفيلسوف الروماني سنكا، الذي اغتاظ للغاية من وحشية معارك المحاربين القدامى والسعادة التي كانت تنتاب المشاهدين في حلبة القتال، هل كان سنكا ممتعضًا، لأنه يبغض العنف، أم لأن الرعاع لم يكونوا يسيطرون على غرائزهم؟ تنص إجابة سوفسكي على ما يلي:

"الحكيم حريصٌ وحذر، يعرف كيف يحمي نفسه، ويعرف كيف يقاوم الرذيلة ويكبح جماح الشهوات، لا يدخل في نوبة غضب، والاندفاع الخارجي لا يتجاوز الطبقة العليا من جلده، مفاجئاتُ الحواس لا تمثل شغفًا بالنسبة له، إنها تخضع بالكامل لقدرته على الحكم والتقييم، لكن العامة لا تعرف إلا الاضطرابات العنيفة، فتعطشها للدماء لا يُروى، وما يحوطه المراقب بنظام العقل، تريد العامة نسيانه دائمًا في غمرة الضوضاء، يحملها الحماس فوق الخوف الناشئ تدريجيًا، إنه يزيل الاضطرابات ويحرر البشر من تعارض المشاعر"[370].

إذن من يقاوم الفتنة، يحكم السيطرة على مشاعره، ليس خوفًا من العنف، وإنما يسيطر البرود العقليّ على الشخص الحكيم، لكن الرعاع يعيشون على آلام الآخرين، يريدون أن يروا كيف يمارس البشر العنف بعضهم بحق بعض، ودائمًا ما تُحدث الإعدامات العامة حالةً من الضوضاء والجلبة تجذب إليها البشر بصورة سحرية، وكما تفعل قوة الامتصاص، يتدفَّق البشر إلى ميدان

المحاكمة، كي ينتشوا بآلام الجناة، وفي غمرة نشوتهم يتنازعون على الأماكن المميزة، وبالكاد يستطيعون انتظار العرض الوحشيّ، كان الجميع يريدون رؤية الجاني وهو يُعذب ويُقتل، كانوا يريدون الانتشاء بالعنف، وتتشكل من الأشخاص الأفراد جماعةٌ كبيرة، ثم مجتمع بمرور الوقت، "يتقارب المتفرجون، يلتصقون كتفًا بكتف وينظرون إلى الأمام، هم يبحثون عن الاقتراب الواقعيّ وكثرة الحاضرين، ورغم عدم معرفة أحدهم بالآخر، يريد كل واحدٍ أن يستشعر حضور الآخر، يريد كل واحدٍ أن يتماهى مع الآخرين، مع كل الآخرين، ذلك الخوف من التلامس، الذي يبقي الشخص على مسافةٍ من الآخرين، يختفي فجأةً، يضغط كل واحدٍ بجسده في اتجاه الآخر، شعورٌ من المودة بين المجهولين، فتلغي الحشود الفروق بين أفرادها وتلقي عن كاهلها عبء الذنب أو الخجل، كل واحد مثل الآخر، والجميع متماثلون؛ يكون الواحد قريبًا من الآخر كما يكون قريبًا من نفسه"[371]، في الحشود يخف العبء عن كاهل الضمير، وتشق الشهوات طريقًا لها، لكن هل هو صحيحٌ حقًّا ما قاله سوفسكي عن العلاقة بين الثقافة والعنف؟ هل العنف شهوةً حقًا، لا يستطيع البشر الابتعاد عنها، غريزةٌ تتكسر الحضارةُ على أعتابها؟ وهل مقابل الحرية والثقافة، والرغبة والتعقل، هو –أيضًا- صراعٌ بين الحرب والسلام؟ هل يريد كل واحد يثور ضد القمع الداخليّ أن يكون من مرتكبي أعمال العنف أو أن يسعد بمعاناة الآخرين على الأقل؟ الإنسان في نظر سوفسكي مجرَّد، هو عبدٌ لميوله التي لا يقدر على السيطرة عليها إلا من وقتٍ لآخر، ما إن ينهار النظام وتنفتح بوابة الحرية، حتى ينتهي عصر السلام وتبدأ الحرب، وهنا لا يكون هناك أدني شك أن انفتاح مَواطن العنف سيخول للبشر ارتكاب أفعالٍ لا مثيل لها في الوحشية، بالنسبة للساديين والمرضى النفسيين، الذين يتجاوزون المحاذير الأخلاقية دون تفكير، عندما يُسمح لهم بما كان محظورًا ذات يوم، يكون وقت العنف هو وقت السعادة، لكن ليس كلُ واحدٍ يستغل –أيضًا- الفرص التي تُتاح له، ليس كل واحد تروق له الإعدامات العامة أو يتطوع لتقديم الخدمة بمعسكر إبادة، عندما تتوفر له فرصٌ أخرى، لم يكن يخدم في فرق الحراسة لوحدة الحماية في تريبلينكا أي متعطشٍ للعنف، وإنما رجالٌ لم يريدوا أن يُرسلوا إلى الجبهة كجنود.

هل يجب علينا حقًّا التصديق بأن كل الأشخاص، الذين يعايشون عملية إعدام أو يشهدون مذبحةً، ينتابهم الانفعال؟ نحن نعرف أن البشر يبتعدون من طريق العنف –أيضًا- عندما يُسمح لهم بالقتل أو بمشاهدة كيف يُقتل أحد الأشخاص، صحيحٌ أننا لا نعرف ما الذي شعر به سنكا، عندما أصبح

شاهدًا على الأحداث العنيفة في حلبة القتال، لكن لِمَ لا نصدقه عندما يخبر قراءه أن العرض الدامي أذهله وأصابه بالاشمئزاز، هل يتدفق البشر إلى ساحة الإعدام، لأن العنف يصيبه بالنشوة، وهل المتفرجون في مسرح الفزع هم في الحقيقة "مجتمع مؤقت"؟ العكس صحيح؛ لأنه في غمرة كون الحشود مجهولة الهوية لا يكون المتلصص مرئيًا، هو لا يجب عليه أن يتهرب من نظرات المعارف والأصدقاء، هو يستطيع أن يلتفت إلى الحدث دون أن يعرف أحدٌ أنه يشاهد الإعدام، لكن هل يشعر بالرغبة أيضًا؟ ألا يمكن أن يكون ما يراه يسبب له حالةً من الصدمة، وأن تكون تُثير في رأسه كوابيس وحالاتٍ من الاكتئاب؟ ليس هناك سياقٌ قهريّ بين الحرية والعنف، أقل كثيرًا كما السياق القهريّ بين النظام والعنف.

لقد جرت العادة أن تقف أعمال العنف في خدمة الأغراض، التي يسبب تحقيقها أي سعادة، تلك الأغراض التي تقتل، فأغلب رجال الحماية في الوحدات القتالية لم يغتالوا لأنهم أرادوا تحقيق أحلامٍ لأنفسهم، وإنما لأن لديهم مهمة كان عليهم تنفيذها، يتعامل القتلة في مواقف صحيحٌ أنها لا تملي عليهم ما يتعين عليهم فعله ولكنها تضع حدودًا لأفعالهم، لم يكن عدوانًا متحررًا، وإنما توقعٌ وتحقيقٌ للواجب في خدمة الموت، وهما ما كان يأخذان بيد رجال وحدة الحماية وبلطجية المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية، وعلى الأرجح لا يكون الشخص الساديّ قادرًا على تنفيذ مثل هذه المهمة بدرجةٍ من البرود، هو لن يكون أبدًا واحدًا من زبانية التعذيب القابلين للاستخدام، فقط إذا كان العنف مُنفَّذًا من أجل مصلحتهم، لم يكن رجال وحدة الحماية ليحتاجوا إلى التبرير بعضهم أمام بعض وإلقاء الحمل الأخلاقيّ عن كاهلهم، إن العنف الذي يقتضي الرغبة في القتل، لا يمكن أن يضطلع به إلا من يستولي على السلطة المطلقة، لكنه يعرِّض الفاعل نفسه للخطر، ستالين، وبول بوت، وعيدي أمين، وصدام حسين، وأمراء الحرب والفدائيون، وقادة المجموعات القتالية والرقباء في معسكرات النازيين، كلهم كانوا يعرفون المعنى الرمزيّ للوحشية في تأمين السلطة، أبدًا لم يكونوا ليرضخوا لرغبتهم في القتل، إذا كان سيجلب عليهم تبعاتٍ سلبية؛ لأن من يتعامل من منطلق الرغبة، وليس بحساباتٍ عقلانية، يرتكب خطأً ويغيب عن ذهنه أن العنف بحاجةٍ إلى استراحات، حتى يتسنى له أن ينجح، إن من يستسلم للشهوات فقط، لن يلبث أن يجد نفسه في عداد القتلى قريبًا[372].

والجنود –أيضًا- لا يقتلون فقط بدافع السعادة، وإنما لشعورهم بالخوف، عاقبةُ المعركة غير مؤكدة، ولكن ليس لديهم خيار، إذا لم يقتلوا، فسوف يُقتلون، من ضباطهم أو من العدو، يكون التفكير في الموت الذاتيّ في هذا الموقف أكثر قابليةً للتحمل من انتظار النهاية،[373] يتذكر جنديٌّ روسي، شارك في الحرب العالمية الأولى على الجبهة: "في الخنادق، هناك كان الخوف الحقيقيّ، كان الخوف يسيطر علينا تمامًا، زحفتُ ذات مرة خارجًا من الخندق، بوم، انفجرت عبواتٌ ناسفة مخلّفة ضجيجًا مفزعًا، وانبعثت من حولي التأوهات، أريد الفرار، لكنني لا أستطيع تحريك ساقي، يبدو وكأن أحدهم يقبضُ على عظام ساقي، لا أستطيع النظر إلى اليمين أو إلى اليسار، أنا خائف، الخوف من الموت تمكّن مني، طغى على قلبي، وليس هناك خوفٌ أكثر وحشية من مثل هذا النوع من الخوف، يبدو وكأن أحدهم وضع ثلجًا جليديًا تحت جلدك؛ ليبدأ فكك بالارتعاش، ويتوقف دمك عن التدفق في أوردتك، لقد تجمَّد، أردتُ الإمساك بسلاحي، لكنه كان أثقل وزنًا من 40 كيلو جرامًا؛ أردتُ الصراخ لكن لم أستطع إلا القعقعة مثل حيوان، أردتُ الضغط على الزناد، لكنني لم أستطع"[374].

يبرز الكره والحنق على أي حال في لهيب المعركة، التي أُلقي فيها الجنودُ على غير رغبةٍ منهم، عندما يرون جثث زملائهم الذين قُتلوا على يد الأعداء، بعد المذبحة ترتعش أجسادهم، يُصابون بالإعياء، تطغى عليهم خبرةُ العنف، التي حُبست في أجسادهم، إن الحرب هي عنفٌ ممنهج ومؤسساتيّ، يتعرض له أغلب الجنود بغير حيلةٍ منهم، وفي الحرب يتوجه الأشخاص إلى طريقة تجعلُ القتل بالنسبة إليهم حرفةً يجب ألا تُقال عنها كلمةٌ واحدة، ولا تتوقف مهمة الجيش على توفير المعدات، التي يُقتل بها الأشخاص الآخرون، إنه أيضًا قاعدة ترويض، يُحوَّل فيها الرجال منهجيًا إلى محاربين رغم إرادتهم[375].

فقط الموقف والإمكانات التي يوفرها الوطن المحيط، هي التي تحدد مسار العنف وكيف يمكن للمرء إنهاؤه، بعضُ المواقف تحفّز العنف، وبعضها يحول دون اندلاعه، بعضُ الأشخاص يقتلون بدافع الرغبة، والبعض يقتلون بدافع الملل، أو لأنهم لا يستطيعون مجابهة ضغط المجموعة، أو لأنهم لا يريدون فقدان شرفهم، أو بدافع الجشع أو الأنانية، أو بدافع الثأر أو الغضب، أو لأنهم ليس لديهم خيارٌ آخر بكل بساطة، إذا ما أرادوا البقاء على قيد الحياة،[376] إن البدو الذين يدخلون في

عراكٍ معًا، يمكن أن تختلف وجهات النظر بينهم، دون أن يتركوا للعنف زمام الأمور؛ لأنهم لا يحتاجون إلى وسيط ينظم النزاعات فيما بينهم، وفي بعض المجتمعات ينظم القانون الثأر للدم، وهو ما يفعله القانون الجنائيّ في الدول الحديثة.

ليس احتكار السلطة من جانب الدولة وحده، وإنما الخوف بين البشر، هو ما يمنعهم من قتل بعضهم بعضًا، إن "الحرية" مصدرٌ للعنف، لكنها -أيضًا- مصدرٌ للحيطة والحذر؛ لأن الأشخاص الذين لا يقدرون على الثقة بعضهم في بعض، يعرفون ما يخسرونه، عندما يضعون السلام على المحك، ومن لا يعرف، ما سيفعله الآخرون، ويخشى أن يُوضع السلامُ الهش على المحك، يُنصح بالشروع في نظام من التبعية المتبادلة تحول دون اندلاع الحرب، يسرق البدو ماشية خصومهم، كي يمتلكوا رهنًا، يستطيعون استخدامه في المفاوضات، سوف يكونوا حمقى، إذا ما تركوا الأمور لتصل إلى حرب لا يستطيعُ أحدٌ حسمها لصالحه، في مجتمعات ما قبل الحداثة والتي خلت من احتكار الدولة للعنف، اتفق البشر على طرق لحل النزاع والحرب بقواعد محددة، كان الثأر للدم وتبادل الأسرى وبناء الحصون والقلاع ضماناتٍ للسلام، وفي مجتمع الجماهير الحديث –أيضًا- كانت الحاجة إلى الأمان أكبر من الدافع إلى الحرية، لقد لاحظ عالم النفس جوستاف لوبون Gustave Le Bon في عام1895 : "أن الحاجة ليست إلى الحرية، وإنما الحماسة، هي التي تسود دائمًا في النفس الجماعية، يكون نزوعها إلى الإذعان كبيرًا جدًا، بحيث تنصاع غريزيًا لكل من يعلن نفسه سيدًا عليها"[377].

لكن سوفسكي لم يكن لديه ما يقوله حول هذا التنوع في الإمكانيات، وهو أيضًا لم يقل شيئًا عن انتهاء العنف، بالنسبة إليه ليس هناك سوى الخيار بين التصعيد والإنهاك، فالعنف الذي لم يعد يحقق أي أغراض ولا يرغب إلا بالتدمير "يصبح بلا مبرر، ومطلق، ولا يكون شيئًا إلا في حدود ذاته، إن العنف المطلق لا يحتاج إلى أي تبرير، هو لن يكون مطلقًا إذا ما ارتبط بأسباب، إنه لا يرمي إلا إلى تواصله وتصاعد وتيرته هو نفسه"[378]، إن من يعذب أشخاصًا آخرين بلا مبرر ظاهريًا، لا يحتاج إلى حافز غير الرغبة في العنف، لكن ألا يحتاج إلى أسبابٍ على الأقل، يستطيع أن يسردها للآخرين كمبرر؛ لأن القتل بدون مبرر ليس مبررًا حتى بين المُحرضين القتلة؟ لماذا تحدث هيملر في أغسطس من عام 1941، بعدما أصبح شاهدًا على حالة إعدام جماعي

بالرصاص، في جماعة المنفّذين عن أن المحاربين في سبيل العقيدة ليسوا قتلةً، وإنما هم يحررون الإنسانية من "الآفات"؟ كان من الممكن أن يوفر هيملر حديثه، لو لم يشعر الجناة بوخز الضمير وتنتابهم الكوابيس،[379] حتى وإن كان صحيحًا ما يقوله سوفسكي عن العلاقة بين الرغبة والعنف، لا يزال السؤال مطروحًا، حول ما إذا كانت الاعتداءات، التي اندلعت، سوف تزداد حدتها أيضًا، وما إذا كان العنف حدثًا شهوانيًا يحتاج إلى تفريغٍ وشحنٍ دوريّ، ووحده العقل البشريّ السليم يناقض مثل هذا التفسير؛ لأنه لو كان الأمر كذلك، لما آن للعنف أن يتوقف أبدًا[380].

لكن لماذا يحب المستذئبون السلام أيضًا؟ لماذا يعودون أدراجهم دائمًا طواعيةً إلى التحضر؟ لماذا يريد الأشرار المتوحشون الظهور في عيون الأشخاص الآخرين بمنظر المواطنين المتحضرين؟ ولماذا يستند قادةُ الحروب إلى القانون، عندما تدمر جيوشهم مدنًا وحواضر؟ لأن أغلب البشر لا يبحثون عن حريةٍ لا حدود لها، وإنما عن الأمان، خاصةً عندما يتعين عليهم العيش في حالة الطوارئ، يكتب بوبيتس: "يكون المشاركون آمنين من ناحية التنظيم عندما تكون لديهم معرفةٌ مؤكدة بما يُسمح لهم والآخرين بفعله وما يتعين عليهم فعله، عندما ينمو في داخلهم يقينٌ بأن كل المشاركين يمكنهم ببعضٍ من الثقة –أيضًا- أن يتصرفوا كما هو متوقعٌ منهم، يجب على المرء أن يعلم موقعه، بصرف النظر تمامًا عما إذا كان عليه أن يدبر أمره في دولة قانون ديمقراطية أو في دولة استبداد وطغيان، الأمان والقمع لا يستبعد أحدهما الآخر، وهكذا يحدث أن يخضع البشر بأنفسهم لأنظمةٍ مستبدة بمحض إرادتهم، عندما لا تعطيهم الحياة ما كان يتشوقون للحصول عليه، يضحون بحريتهم، حتى يمكنهم البقاء على قيد الحياة، وتصبح الحرب بالنسبة إليهم مناسبةً للتفكير في إمكانيات تطويق العنف أو منعه[381]، لكن ما يتمنّاه المرء لا ينجح دائمًا، لا تنتهي الحروب الأهلية، عندما لا يمكن للمرء أن يتأكد ما إذا كان العدو سيلتزم بالسلام، وطالما لا يعرف أحد ما سوف يحدث، فإن استمرار الحرب يوفر لأغلب الأشخاص أمانًا أكبر مما يقدمه سلامٌ هشٌّ، وبخاصة لأولئك الذين يحملون السلاح ويستطيعون حماية أنفسهم، وحتى في دولة الاستبداد وفي الحرب يمكن أن يكون هناك نظام، يتناغم مع الحياة اليومية للقتل[382]، ليس الشغف والنشوة، وإنما سوء الظن والخوف، هما ما يسدان الطريق إلى السلام، الأمر يتعلق بالسلطة وسلامة النظام، وليس بالرغبة في العنف.

الثقافة والعنف

هل هناك ثقافةٌ للعنف؟ هل يتصرف الجناة والضحايا بالطريقة نفسها في كل مكان وفي كل الأزمنة؟ الثقافة والعنف ليسا متناقضين؛ لأنه لا أحد يواجه العالم، الذي يحيط به، هكذا فجأةً، كتب الفيلسوف إرنست كاسيرر Ernst Cassirer: "ربما لا يستطيع الإنسان الإفصاح عن أفكاره وأحاسيسه، ولا يستطيع من ثم الانخراط في علاقاتٍ اجتماعية، إذا لم يكن يملك الموهبة الفريدة باستحضار أفكاره وصياغتها في شكل ثابت ودائم"[383]، وتصبغ الثقافة على الأفكار شكلًا وتعطي الإنسان الأدوات، التي يستطيع بها استكشاف العالم، في الثقافة تكتسب الحياة اتزانًا، يستغرق اليوم بطوله، ويستطيع الإنسان من خلاله أن يُبدع نفسه ويعرضها وينمّيها.

فقط في الثقافة يمكننا أن نكون بشرًا، ومن خلالها يفهم بعضنا بعضًا ونخلق لأنفسنا عالمًا، يكون بيتًا لنا ومسكنًا، ولكننا لا نشعر بالسُّكنى في الثقافة في حد ذاتها، وإنما في ثقافةٍ باتت تاريخية وتميزت عن الثقافات الأخرى، يقول كاسيرير: "إن عالم البشر ليس كيانًا منفصلًا عن كل ما عداه، وليس واقعًا في حد ذاته، يعيش الإنسان في بيئةٍ مادية، تؤثر عليه دائمًا وتضع طابعًا معينًا لأنماط معيشته" [384]، لكن ثقافة سوفسكي ليس لها زمانٌ ولا مكان، إنها ليست أكثر من أداةٍ للقمع الداخليّ، يكبح جماح الشهوات، لكن مثل هذا التفسير يناقض كل الخبرات والتجارب التي مرَّ بها البشر مع العنف.

بالطبع ليس هناك ثقافةٌ محصَّنةٌ ضد العنف، وبالكاد –أيضًا- هناك ثقافةٌ للعنف في حد ذاته، لكن البشر، الذين يتعايشون لسنواتٍ مع العنف، يغيرون علاقاتهم الاجتماعية، يصبحون أكثر إساءةً للظن، ولا يخططون إلا لليوم، وليس لسنواتٍ كما كانوا، مستعدون للقتل عندما يكون لزامًا عليهم، وهم يعطون الأولوية للمفاهيم الاستبدادية للسلطة في مقابل النماذج المنفتحة والمتحررة للسيادة؛ لأن كل ما يحتاجون إليه هو الأمان؛ لأن المرء لن يقدر على توفير فرصٍ مفتوحة والانخراط في مخاطر صعبة، إلا عندما لا يتعرض جسده وحياته للخطر بصورةٍ يومية، يستطيع المرء –أيضًا- ترتيب أموره في العنف والتعايش معه وتعلم تقنياته[385].

يعتاد البشر، الذين يتعين عليهم التعايش مع العنف لفترةٍ زمنيةٍ طويلة، على منظر الجثث والمصابين والمفقودين، ولا تستوعب بعض المجتمعات العنف على أنه هرجٌ وفوضى، وإنما أمرٌ اعتياديّ ووسيلة لتأمين الحياة ومصدرٌ للدخل، وعندما يصبح السلاح هو الأداة الوحيدة، التي يمكن

بها تأمين الدخل والتقدم، سوف يسعى كل واحدٍ يمتلك قدرًا من القوة إلى أن يكون محاربًا وليس ضحيةً، ليس لأنه يريد أن يقتل، وإنما لأنه يتعين عليه فعل ذلك، وفي ظل هذه الظروف لا يطمح الضعفاء ولو مرةً إلى السلام الأبديّ، وإنما يحلمون بالحماية من الأسلحة، ومع بيئتهم المحيطة تتغير أيضًا نظرتهم إلى الواقع المتاح أمامهم، يتحلون بالحذر ويقابلون الغرباء بقدرٍ من سوء الظن، يتسلحون أو يبحثون عن الحماية لدى الأشخاص أصحاب السلطة والذين يعرفون كيفية التعامل مع الأسلحة، وفي كل ما يفعلونه يكون العنف حاضرًا كواقعٍ مُعاش يسيطر على عالم المُتصوَّر، يكون سلوكهم مضبوطًا من الناحية الثقافية بحيث يجد إجاباتٍ مناسبة لتحديات العنف واستفزازاته، وقد تكون الثقافة –أيضًا- مناسبةً وسببًا للجاهزية لإطلاق العنان للعنف في كل وقت[386].

إن من يترعرع مع العنف، يخمد ولا تعود الدهشة تصيبه بخصوص السهولة التي يتم القتل بها، ينخفض الرادع، ويُستقبل الموت على أنه قدرٌ جبريّ لا يستطيع المرء رده أو دفعه، عندما اجتازت القوات النازية في يونيو من عام 1941 الحدود مع الاتحاد السوفيتيّ، اندهش جنودها من قدرة خصومهم على التحمل وعدم مبالاتهم، والهدوء الذي تحملوا به الوحشية والفظائع، تذكر جين أميري أن المساجين الروس في معسكر بوخنفالد تحملوا الألم والتعذيب بلامبالاة وكانوا جاهزين للعنف اليوميّ أفضل من السجناء من أوربا الغربية أو الدول الإسكندنافية: "أجسامنا في الحقيقة ليست سيان أمام العنف والتعذيب"[387]، منذ عقود كان مزارعو الإمبراطورية السوفيتية متعددة الشعوب ضحايا لعنف السلطة، وعايشوا حربًا أهلية وأُجبروا على الزراعة الجماعية وتعرضوا لحملاتٍ إرهابية وكوارث من الجوع والفقر، لقد حول نظام الحكم الإرهابيّ المجتمع السوفيتيّ إلى وحش وحرّره من العوائق، وفي النهاية لم يعد هناك ما يمكن للمرء أن يهزَّ به مواطنيه ويعصف بهم، ولقد كان الجنود المزارعون السوفيتيون مجهَّزين لحرب الإبادة التي خاضها النازيون في الاتحاد السوفيتيّ بصورةٍ أفضل بلا شك من عدوهم، ولم يكن صعبًا على ضباطهم أن يدفعوهم بمسدساتٍ مشدودة إلى مواقع العدو ويلقوا بهم إلى التهلكة، وتحمّل الجنود ما فُعل بهم لأن المقاومة والتحديّ بديا ضربًا من العبث[388].

لكن من ناحيتهم –أيضًا- أصبح الجنود الألمان متوحشين من منظور العنف منزوع الحدود، كانت حرب الإبادة على الجبهة الشرقية مدرسةً للعنف، ومكانًا لم يستطع النجاة فيه إلا ما فهم كيف توفيق أوضاعه مع توابع نزع الحدود[389]، وما لبث الجنود المنقولون من الجبهة الشرقية إلى الجبهة الغربية أن أصبحوا بلا فائدة للحرب المتحضرة الدائرة بين الدول هناك، وفي فرنسا وإيطاليا –أيضًا- ارتكبوا أعمالًا لا مثيل لها في البشاعة؛ لأنهم لم يعودوا يستطيعون تصور حربٍ أخرى مغايرة لحرب الإبادة، ولأنهم تعلموا أن المدنيين في حروبهم لا يستحقون الرحمة، كل عملٍ من أعمال العنف يعتمد على الظروف، وينتج عن المواقف ومعالجتها من المنظور الثقافيّ[390].

الأشخاص الذين يفهمون كيفية التعامل مع العنف أو تعودوا على القتل، يتخطون العتبات الرادعة في لمح البصر، وفي وقتٍ ما يتحول العنف إلى مرافق لا يطلقون سراحه أبدًا، إن العادة والتنشئة الاجتماعية تحولان البشر إلى قتلة، وهذا ما يحدث –أيضًا- في الحروب الأهلية الحالية في كولومبيا أو الكونغو والعراق وأفغانستان وليبيريا، تلك الحروب التي لا تريد التوقف وترسّخ ثقافةً من عدم الثقة والحذر، الثقافة تُدمج العنف، إنها تعطيه مغزى يفهمها كل البشر الذين تآلفوا في موطن العنف، المرء لا يدخل إلى موطن عنف دون شروط ولا يغادره دون توابع، الثقافة تشكِّل العنف، والعنف يشكل الثقافة.

تفرّق كل الثقافات بين العنف المحظور والمفروض والمسموح، وما يُعتبر عنفًا في بعض الثقافات، لا يعد إلا لمسًا للجسد في مكانٍ آخر، في المجتمعات التي تنظم نزاعاتها من خلال قانون الثأر للدم، يمكن أن يتحول القتل إلى فريضة، لا يُسمح لأحدٍ بالتهرب منها، وفي الحرب –أيضًا- يكون العنف مأمورًا به، ومن لا يقتل يُحمَّل المسؤولية من الناحية النظامية، لكن ليس كل عنفٍ مسموحًا به في الحروب بين الأمم، يُمنع قتل المسعفين ونواب البرلمان وأسرى الحرب والمدنيين، وفي الحروب الأهلية يندرج ذلك ضمن الاستراتيجية، مثل هذه التشريعات تتنوع من ثقافةٍ لأخرى، وتتنوع داخل الثقافة الواحدة من وقتٍ لآخر، في السابق كان العنف الجسديّ ضد النساء والأطفال داخل الأسرة مسموحًا به، ثم بات ضد الأطفال فقط، واليوم لم يعد كذلك على الإطلاق، فقط عندما يعتقد البشر بأنهم يقيمون في منطقةٍ من العنف المفروض، أو المسموح به على الأقل، يمكن تحفيز جاهزيتهم

للعنف، البشر ليست لديهم عوائق ضد القتل في حد ذاته، وإنما تواجههم عوائق، "في كونهم يمارسون العنف في غير المكان المخصص له"[391].

لا تعرف أنثروبولوجيا سوفسكي للعنف أي سياق، إنها تكتفي بنفسها، صحيحٌ أنها لا ترفع مطلبًا باعتبارها علمًا، ولكن مظهرها أدبيّ، لا ملاحظةٍ هامشية ولا إشارة إلى نقاشات وجدالات تعكِّر سرد العنف، جملُ سوفسكي قصيرة ولا ترحم، وصوره قاتمة ولا أمل فيها، يُقتاد القارئ إلى عالمٍ من الظلام واليأس، يصيب فيه البشر بعضهم بعضًا ويشوّهون ويعذِّبون ويقتلوِن، من يكتب بأسلوبٍ جميل، لا يمكن أن يكون عالمًا، هكذا يقول من لا يروقهم ما يخبر به سوفسكي، ويشكو عالمُ الاجتماع ماركوس شرور Markus Schroer:"إن الأسلوب الشعريّ، الذي يكسو به الشاعر نثره الكئيب، يعطي انطباع بروتوكولات الوحشية التي تمارس على القارئ جذبًا قويًا؛ جذبًا لا يعرفه المرء إلا في النصوص الخيالية، التي تصف العنف الجسديّ بصورةٍ مفصَّلة"[392]، ما يكمن داخل المصادر يبدو مملًا لسوفسكي، صورةٌ من الفزع تصطف بجانب الأخرى، ولن يُقدَّم تفسيرٌ في أي مكان، "ويشعر المرء في غير مرةٍ، أنه يتذكر السرياليين، يتذكر رائعة "كلب أندلسيّ" للمخرج بونويل ومسرح القسوة للكاتب الفرنسيّ أرتو، وهي التي تريد أن تساعد المعرفة الخاملة بصدماتٍ جديدة دائمًا"، إن وصف سوفسكي الكثيف، حسبما يقول شرور، ليس عمليةً للفهم من بعيد، وإنما هو فهمٌ للمعايشة الثانية وللانخراط في الحدث، يريد سوفسكي القفز داخل الحدث كي ينقل للقارئ شعورًا مباشرًا عن الرعب والفزع[393]، بعضُ النقاد تحدثوا عن "وصفٍ خياليّ"، وأخذوا على سوفسكي، أنه لم يصف إلا خيالاته الشخصية عن العنف وخدم احتياجات المتلصصين،[394] ويدّعي هارالد فيلتزر أن سرد حدث خياليّ للعنف ليس تفسيرًا على الإطلاق، إنه يعيد إنتاج منظور الجاني "بطريقةٍ بغيضة".

كلنا نعرف أن التوصيفات ليست صورًا حقيقية للحدث، وإنما تزييفاتٌ مبررة جيدًا للواقع، في أي حكاية أو تحليل يمكن أن تكون كل عبارةٍ مفردة حقيقيةً، "ومع ذلك تُحكى الحكاية الخاطئة"، حسب وصف الفيلسوف الإنجليزيّ برنارد ويليامز؛ لأن الأمر لا يتعلق بحقائق، وإنما بالمدى الذي ستقودنا فيه هذه الحقائق،[395] كما أن التحليلات الاجتماعية ليست سوى حكايات تعطي القارئ نظرةً ممكنة على العالم، لماذا يتعين على نصٍ خالٍ من الدماء حول ظاهرة العنف أن يتفوق على

محاولةٍ أدبية؟ "هناك إنسانٌ مغرم" هذه الجملة تصف حالة، وليس شعورًا، "رأيتُ السعادة تلمع في عينيه"، تتولد في هذه الجملة صورة تتحفز لها قدرة القارئ على التصور[396]، لكن لماذا يجب أن تبرز حقيقة العنف دون صور؟ يمكننا أن نستشعر من يعنيه الألم والكره والحنق والجرح، ليس هناك شيءٌ إنسانيٌّ غريبٌ عنا، ولذلك نستطيع فهمه أيضًا، عندما يستطيع الكاتب أن ينقل للقارئ، كيف يكون الشعور عندما يكون للعنف الكلمة الأخيرة، وعندما يشعر القارئ بحالة سيئة، يكون الوصف الكثيف قد حقق غرضه، ذلك أن الأمر لا يتعلق إلا بالوصف الدقيق للموقف، سيان كانت القصة المروية تُنقل هكذا كما هي أو كانت مختلقة، ولا يدعي نصُ سوفسكي أبدًا يروي قصةً حقيقية عن حياة البشر، حكايته تروي مواقف نمطية مثالية متجاورة، يكتسب الأشخاص النمطيون منها المهارة والخبرة.

إن أنثروبولوجيا العنف لا تتحقق، من خلال أن يثبت لها المرء أنها لا تروي مصادر حكاياتها، يكتسب الشاعر هنا ميزة لأنه يستطيع أن يفعل ما هو محرمٌ على المؤرخين أو علماء الاجتماع، وحده السرد الأدبيّ هو ما ينجح في إضاءة المناطق الحالكة من الحقيقة بفضل الخيال[397]، يستطيع الكاتب أن يضع أشخاصًا في مواقف ويحكي بدقة ما يحدث معهم، يستطيع أن يصف الظروف، التي دخلوا فيها إلى موقفٍ ما، ويصف حالتهم التي غادروا بها، تمامًا مثلما نجح الكاتب الأمريكيّ آدم جونسون Adam Johnson في وصفه المثير للشفقة لأحداث العنف في كوريا الشمالية[398]؛ لأن مسار العنف يتوقف على تأقلم الأشخاص وطبيعة الموقف، فقط من خلال وصفٍ مكثف للأحداث في مواطن واضحة يمكن استيعاب الظروف والمواقف والأحداث في سياقها[399]، إن أنثروبولوجيا العنف هو علمٌ للبحث في الأسباب، لا يشتغل فقط على الظروف، وإنما على العنف نفسه، إنه يفحِّص ويمحص ويشرح من خلال وصف ما يحدث وكيف يغير العنف الموقف.

وفي المستقبل –أيضًا- سوف يكون العنف جزءًا من حياتنا، وهذا ما يعرفه الأشخاص الذين يتعين عليهم العيش مع العنف، أكثر من الأشخاص الذين لا يعرفون إلا السلم، إن الإيمان بالقوى الشافية للحضارة ما هو إلا وهم، ليس من منطلق المسالمة، وإنما من مبدأ الخوف، يتوق الأشخاص إلى الأمان والنظام؛ لأن الموت هو نهاية كل شيء، لكن الإنسان يريد أن يبقى على قيد الحياة، ولذلك

يكون العنف خبرة تُحدث حالةً من النظام، كل واحدٍ يعرف بحضور العنف والاستعداد لجرح البشر، لذلك يأتي النظام من إدراك أن العنف لن يختفي عن الوجود أبدًا ولكن يجب حظره، إدراكٌ محبط ويائس، لكن إذا ما أدرك الإنسان أن العنف لن يُباد من العالم، سوف يمكن للمرء أن يتخذ احتياطاتٍ أيضًا كي يطوقه[400]، بالنسبة للحالم الذي يمنِّي النفس بالسلام الدائم، تعتبر هذه المعرفة مخيبّةً للآمال، وبالنسبة للشخص الواقعي مجرَّد عزاء.

العُنْف وأحْجِيَّةُ السُّلطة

"علام ترتكز السلطة إذن إن لم يكن على طاعة الجماهير التي تبدو وكأنها في حالة تنويم مغناطيسي؟»، يقولها الكاتب ريتشارد لوري Richard Lourie على لسان ستالين خاصته، "ليس للقوة الجسدية أدنى علاقة بالسيطرة على أي حال، إذ يمكن قتلي بسهولة كأي شخص آخر، بل ربما يكون القضاء عليَّ أسهل من القضاء على كثيرين غيري في عمري هذا الذي يزيد عن الثالثة والستين، فقد يخنقني رجل قوي أثناء نومي، وقد يدس لي طاهٍ ما كثيرًا من السّم في الطعام حتى يتوقف قلبي عن الخفقان، لماذا إذن لم يحدث شيء من هذا حتى الآن؟ لأن أحدًا لم ينطق بعد بالكلمة التي من شأنها إبطال مفعول هذا السحر»[401].

لم يكن بمقدور ستالين أن يطمئن إلى استقرار سلطته، فقد كانت لديه أسبابه ليشعر بالخوف من حاشيته، وليس فقط من الرعية، كما انتاب الخوف رفاقه أيضًا، فلم يكن لديهم فكرة عن التدابير التي اتخذها الديكتاتور كي يتجنب وقوع أي مؤامرة، وما دام الخوف أكبر من التوق إلى الحرية، لن تكون السلطة في خطر، لا يمكن -على ما يبدو- تصور حدوث توازن في القِوى غير قائم على العنف حتى عندما يعترف المحكومون بالسلطة طواعية، فما إن يُسحَب الاعتراف بالسلطة، حتى يبدأ الصدام بين من يمتلكونها وهؤلاء الذين يرغبون في تحطيمها، ولا يمكن الركون إلى الاتفاقات، إذا لم يكن في الإمكان فرض الاستجابة لها في أي وقت، لذا يمثل العنف والسلطة جانبين لعلاقة تكافلية، يذكرنا هوبز قائلًا: «الاتفاقيات بلا سيف هي محض كلمات لا تمتلك القوة حتى لتمنح الإنسان أدنى قدر من الأمان»[402]، فلو كانت الحال مختلفة، لما كانت بنا حاجة إلى جهاز قمع حكومي يحمي بعضنا من بعض، كل ما في الأمر أننا نسينا أن الوضع كذلك؛ لأن التهديد بالقتل ما عاد يُطلق صراحة في المجتمعات المُسالِمة، ولأننا نعرف –دون التهديد باستخدام العنف– ما يجب فعله.

السلطة والحكم

لا شئ أكثر غموضًا من تأثير السلطة، وقد تعجب ديفيد هيوم David Hume من هذا الأمر قائلًا: «عند دراسة المسائل البشرية من منظور فلسفي لن نجد هناك ما هو أكثر إدهاشًا من السلاسة التي تحكم بها فئةَ صغيرة جموعًا غفيرة، ومن الإذعان الصامت الذي يُحَوِّل الأشخاص بمقتضاه ميولهم وأهواءهم لتصبح تابعة لحكامهم»[403]، كيف يحدث إذن أن يطيع أفراد كُثُر مجموعةً صغيرةً دون استخدام العنف؟ ولماذا لم تتجرأ حاشية ستالين على مقاومته ولو لمرة واحدة؟ لماذا توجَّب أن تندلع حرب أولًا كي يُطاح بحاكم طاغية مثل صدام حسين الذي بقي في السلطة لعقدين من الزمن على الرغم من أنه هو الآخر أشاع الخوف والفزع بين أصدقائه وأقاربه؟ لماذا ندفع الضرائب، ونتبع تعليمات الشرطة ونلتزم بقواعد المرور؟ وكيف يُعقَل أن يُنَفَّذ تلقائيًا ما تطلبه مجموعة صغيرة من جموع غفيرة؟ لماذا ينجح بعض الأشخاص دون جهد على ما يبدو في صنع الطاعة في حين يفشل آخرون في ذلك؟ ولماذا لا ينطق أحد الكلمة التي تُبطِل مفعول السحر؟ على من يرغب في معرفة ماهية السلطة، أن يجيب على هذه الأسئلة.

البشر مخلوقات ضعيفة، «جسد الإنسان عارٍ وهش»، يقولها كانيتي ويستطرد: «اخترع الإنسان التروس والدروع، وشيَّد أسوارًا وحصونًا كاملة حول نفسه، لكن أكثر ما يرنو إليه من وراء كل هذه التأمينات هو الشعور بالحصانة،"[404] ويرغب الإنسان في النجاة، إلا أنه ليس بمقدوره على الإطلاق التأكد من تحقق رغباته؛ لأن حياته قد تنتهي في أي لحظة، لهذا يُعد وضوح إمكانية التعرض للأذى البابَ الذي يدخل منه العنف إلى حياة البشر؛ فكل حي عُرضة لأن يفقد حياته[405]، ولو كان العالم مكانًا يسود فيه السلام الأبدي، لما كانت بنا حاجة إلى الترتيبات الأمنية، إلا أن الوضع ليس كذلك، ولهذا فإن جدلية العنف والنظام هي مصدر السلطة، طرف يأمر والآخر يطيع، فكلاهما يُمنِّي نفسه بمكسب من وراء ذلك.

يقول ماكس فيبر Max Weber: "السلطة هي كل فرصة لتحقيق الإرادة الشخصية -في إطار علاقة اجتماعية- حتى وإن قُوبِل ذلك بمقاومة، بغض النظر عما ترتكز عليه هذه الفرصة"[406]، فكل العلاقات الاجتماعية هي علاقات قوة؛ لأن الطرف الأول قوي ومُسَلَّح في حين أن الطرف الآخر ضعيف وبلا سلاح، ولأن الطرف الأول يرغب في إصدار الأوامر في حين يسعى الآخر إلى الحصول على الأمان، لهذا تُوجِّه السلطة السلوك، كما تغير المواقف والمنظورات، إنها إحدى

أشكال الوجود الإنساني التي تنفَذ إلى كل العلاقات الاجتماعية[407]، ووفقًا لكارل شميت Carl Schmitt فإن: «السلطة في حد ذاتها ليست بالشيء الجيد أو السيئ، وإنما تتسم بالحياد؛ فهي ما يصنعه الإنسان منها في نهاية الأمر»[408].

لا يمكن امتلاك السلطة، فهي تنشأ ما إن تنشب الصراعات، وعند اتخاذ القرارات أو التوكيل بمهام، وعند تحديد تسلسلات السلطة، فإنها تتدفق، وتأتي وتذهب، وبما أن طرفي السلطة قد يتصرفان بشكل مغاير لما كان مألوفًا منهما، فترتكز السلطة على نظام مُتَقلِّب،[409] السلطة كامنة في كل ما يقوم به البشر، إنها أشبه بجسد ثقيل يصبح أسرع كلما زادت حركته،[410] والسلطة تتعطش إلى مزيد من السلطة؛ لأن غريزة السلطة تتنامى بفعل المهام التي تنشأ عنها، ولأنه يتحتم عليها أن تفرض نفسها، وهي تحتاج إلى المقاومة، إذ لا يمكن أن يُطلَق عليها سلطة إلا عندما تتغلب على تلك المقاومة، فلو كان الجميع أمواتًا، لانتهى أمر السلطة، إذ ليس بمقدورها إعادة إحياء الأموات،[411] من جهة أخرى لن تتمكن السلطة من إحراز أي تقدم دون الحاجة إلى الأمان والنظام، إذ كيف كانت غريزة السلطة لتصبح دون الحاجة إلى الأمان؟ لأن من يطيع، يحصل على الأمان المُتوَقَّع ويدرك على أي شيء يرتكز، ومن بمقدوره فرض الطاعة، يكن في مأمن من ثورة المحكومين عليه، فالطاعة والمعارضة وجهان «لسلوك إنساني شديد الاتساق» كما يقول عالم الاجتماع جورج زيمل[412Georg Simmel]: "يخضع البشر لأشخاص آخرين؛ لأن ذلك يصب في مصلحتهم الخاصة، وحتى صاحب السلطة نفسه يرغب في المزيد منها فقط لكي يضمن لنفسه الأمان".

يعتقد لومان Luhmann أن علة السلطة تكمن في قدرة البشر المحدودة على معالجة المعلومات، فيرى حتمية اعتماد البشر على „المنفعة الانتقائية" للآخرين داخل الأنظمة الاجتماعية المعقدة؛ لأن عدم نقل السلطة يُشكِّل إثقالًا عليهم، إذ لا ترمي السلطة إلى تحطيم الإرادة وإنما إلى تحييدها، وعلى المحكومين تَحَمُّل ثمن مثل تلك المنافع الانتقائية[413]، يُبسِّط توازن القوى المُنَظَّم العلاقات الاجتماعية؛ لأنه يحررها من قيود الاختيار والصراعات، ويوجِّه السلوك الإنساني بحيث يعطي الحاكم والمحكوم ما يحتاجان إليه: الفوز بالمتعة واستقرار النظام، جاء في كتابات زيمل أن: «الإنسان لديه علاقة تبادلية ضمنية مع مبدأ التبعية، فيرغب من ناحية في أن يُحكَم، إذ لا يتوقف

الأمر عند كون غالبية البشر لا يستطيعون العيش دون قيادة فحسب، بل يشعرون بذلك أيضًا، ويبحثون عن عنف أشد يسلبهم المسؤولية عن ذاتهم، وعن صرامة تنظيمية مُقَيِّدَة تحميهم ليس فقط من العوامل الخارجية بل من أنفسهم كذلك»[414].

يتغير البشر بفعل موازين القِوى، فالسلطة مُفسِدَة، إذ يتحول صاحب السلطة إلى عبد لدى المحكومين، لأنه لا يستطيع التفكير في أي شيء آخر سوى الحفاظ على السلطة، والمحكومون يفعلون ما كانوا ليأنفوا عن فعله لو كانوا أحرارًا، يرغب الجميع في النجاة ولا يكترث أحد إلا لمصلحته الخاصة، فتتولد الطاعة عن المصالح والاحتياجات، عندما يعرف الجميع حدود ما يُمكن فعله وما يُسمح به سواء من جانبهم أو من جانب الآخرين من أجل تحقيق التوقعات، ويجب التأكد من أن الآخرين سيتصرفون وفقًا لما هو مُتَوَقَّع منهم ومن أن كل مخالفة للنظام ستواجه بالعقاب، وحده من يتنبأ بالسلوك الذي يُمكِّنه من الحصول على المنافع أو على التقدير، هو من ينعم بالأمان، فعلى المرء أن يعرف على أي شيء يرتكز، لهذا ينحني الناس للسلطة تحت الظروف الحرجة، [415] إذ إن وزن الحرية أخف من استقرار النظام ومن الحياة الخاصة التي قد يضع لها أي ناقد حدًّا، إذا تمرَّد.

السلطة هي نتاج صنيع الإنسان منها، فلا أحد يخضع طواعية لإرادة الآخرين عندما يُطلَب منه ما لا يريد، ولهذا يتحتم فرض السلطة في وجه المقاومة، بإمكان الجميع إصدار التهديدات، والصياح، واعتماد لغة الشجار أو استخدام الأسلحة لإخافة الآخرين وإرغامهم على الخضوع، فالبشر قادرون على فرض سلطتهم لأن بوسعهم إيذاء الآخرين وقتلهم، ولأنهم قادرين على المنح والأخذ، والسلطة تتمثل في سلطة الإرضاء وسلطة فرض العقاب، فهي تمنح وتأخذ،[416] ومن يرغب في إيذاء الآخرين، لا يحتاج إلى سطوة دائمة وإنما فقط إلى القدرة على فعل ما يريد، فهو يضرب، وعندما يسقط الطرف الآخر، يكون قد نجح بذلك في تحطيم إرادته للحظة، إلا أن الطرف المُستَضعَف قادر هو الآخر على التهديد أو على أن يصبح عنيفًا، فحتى الطرف الأضعف قوي بما فيه الكفاية لقتل الأقوى: بالدهاء، والمكر، والتحالف مع الآخرين، يدرك الأقوياء والضعفاء على حد سواء هذا الأمر، لهذا يعني التعايش أن يخاف كل طرف من الآخر ويسعى لحماية نفسه منه[417].

يعتمد العنف على التكرار، إن كانت هناك رغبة في تحويله إلى سلطة دائمة، لكنه لن يؤثر إلا بشكل عارض، وسيبقى مجرد «سلطة فِعل»، ما دام لم يتخطَّ بعض الحالات المنفردة، على المُهدِّد أن يكون حاضرًا لكي تكون له الغَلَبَة، فما إن تتوقف ممارسة العنف، حتى ينتهي أمر السلطة، إذ لن يكون بمقدور من يمارس العنف توجيه سلوك أولئك الذين يستضعفهم، ولذلك فإن قوة الفِعل مرتبطة بالقدرة على ممارسة العنف والاستعداد لذلك، إلا أن كل سلطة تسعى إلى تحقيق نوع من التسوية؛ لأنها في النهاية ترغب في النجاة، ولهذا تبقى هشة ما دامت تعتمد على العنف لا التأييد، فمن الممكن أن يفقد ممارس العنف النائم سلطته مرة أخرى بحلول صباح اليوم التالي، فقط عندما ينجح المرء في إضفاء الاستقرار على سلوك الأشخاص، تتمكن موازين القِوى من تخطي المكان والزمان حينها، وتعتمد «سلطة الوسيلة» على شروط أكثر تقعيدًا من شروط سلطة الفِعل؛ لأنها تتطلب القدرة على تنفيذ التهديدات والوعود، وهذا أمر يعرفه كل من يُفترض به التزام الطاعة، ومن يختبر دائمًا حقيقة كون العصيان يواجَه بالعقوبة في حين تُقابَل الطاعة بالمكافأة، يوطّن نفسه على التكرار ويجاوب مثلما يقتضي الموقف، فالتهديدات تُولِّد الخوف، في حين تبعث الوعود على الأمل، وبإمكان الحاكم استخدام الوسيلتين لتوجيه سلوك محكوميه، وتتجاوز تأثيرات السلطة النابعة من التهديدات والوعود اللحظة الحالية[418]، فتتأصل الطاعة معياريًا، وتُظهِر السلطة تأثيراتها حتى مع عدم وجود أحد ليفرضها، يتمكن الحاكم حينها من التخلي عن العنف والتَّحَكُّم موفرًا بذلك الوقت؛ لأن التابعين يطيعونه ويقايضون حريتهم باستقرار النظام والأمان المُتَوَقع، يقول بوبيتس عن تنظيم السلطة الدائمة: «ينتج عن الإذعان المرتبط بالوقت والمكان الحاليين إذعان مرتبط بكل موقف على حدة»، تصنع الطاعة التي تقتضيها الظروف سلوكًا معياريًا يُقَلل من الجهد المبذول لممارسة الحكم؛ لأن السلوك الصحيح يُعرَف بناء على الموقف نفسه[419].

لكن السلطة لا تكون مُحَصَّنة على المدى الطويل إلا إذا كانت مبنية على تأييد من المحكومين، وقد وصفها عالم الاجتماع الأمريكي تالكون بارسونز Talcott Parsons بأنها نمط من العلاقات التي ينتفع بها الأقوياء والضعفاء على حد سواء؛ لأن السلطة -على حد تعبيره- هي نظام قائم على الشراكة يتكون من حقوق وواجبات، ولا يتحقق إلا ما دام في مصلحة الجميع[420]، يتحدث بوبيتس على الجانب الآخر عن «السلطة الاستبدادية» التي تكمن فعاليتها في الانقياد الناجم عنها بالأماكن التي لا يوجد بها أي تحكم في تصرفات المحكومين على الإطلاق، يحمل المرء بذلك

السلطة معه بوصفها نوعًا من التحكم الكامن، فلا توجِّه تلك السلطة الضمنية السلوك الخارجي وحسب، وإنما المواقف غير المُعلَنَة كذلك «للسلطة الكامنة فعالية وسط الظلام أيضًا»،[421] إذ ترتكز فعالية تلك السلطة على «حاجة الإنسان إلى التوجيه»، فيلتزم التابع بقرارات صاحب النفوذ وأرائه ومعاييره، وبوجهات نظره –أيضًا- بناء على ذلك من أجل أن يحصل هو نفسه على التقدير، فالنفوذ يرتكز على الاعتراف بمن له الهيمنة وعلى الرغبة في الحصول على الاعتراف ممن لهم الهيمنة، إنه محاولة لتحليل موازين القوى ومنحها تجسيدًا دائمًا،[422] في مثل تلك الظروف يكتسب البشر اعتدادًا بالنفس، وكما يقول فوكو:" لا يتحول البشر إلى تابعين إلا بعد توطين السلطة، وتتسم السلطة بأنها مثمرة في الحقيقة، فما تنتجه واقعي، إذ إنها تفضي إلى مواضيع للنقاش واستخدام للحقيقة؛ فتكون نتيجة ذلك تَشَكُّل الفرد وإدراكه»[423].

تتحول السلطة، التي تُسبِغ على نفسها طابعًا شرعيًا من خلال الاعتراف بنفوذها، إلى حُكم، كما تتحول السلطة المعيارية إلى سلطة تتخطى الأفراد، لذلك يمكن تبديل مواضع السلطة بشكل عشوائي، فالسلطة ترتكز على وجود فرصة لفرض الإرادة الخاصة بغض النظر عما إذا كان المذعنون لها يرضخون طوعًا أم كرهًا، وقد جاء في كتابات فيبر أن الحُكم هو «الفرصة لفرض الإذعان لأمر معين على أشخاص محددين»[424]، والحكم عبارة عن سلطة مُؤسَّسَة ومؤصَّلة، إذ لم يعد مرتبطًا بالأشخاص الذين يمارسون السلطة، وإنما يستند إلى وضع يتخطى الأفراد، فإذا أراد الاستمرار، احتاج إلى تأييد المحكومين، سواء قدَّم المحكومون ذلك التأييد طوعًا أو فُرِض عليهم قهرًا، لهذا يرتكز الحكم ظاهريًا على التصديق في «شرعيته»[425].

كلما زادت الإمكانية المادية لاحتمالية ممارسة السلطة، كانت سطوة الحكم أوسع انتشارًا وأكثر رسوخًا، وينتمي عنف السطوة الفعلي في الدولة الحديثة إلى البيروقراطية؛ لأنه عبارة عن «حُكم يستند إلى معرفة»[426]، إذ ترتكز فعاليته على المعلومات، والدراية والكفاءة، والقدرة على التنبؤ، وأداء العمل، والهياكل المتسلسلة، فما يدفع الناس إلى التزام الطاعة باختيارهم هو ما تتمتع به أساليبه من اتساق وقدرة على التنبؤ، كما تتسلل سلوكيات إلى الحياة اليومية بشكل غير ملحوظ بفعل التكرار والرتابة، فتبسِّط التعقيدات وتوفر الوقت؛ لأن كل المشاركين يناغمون بين سلوكياتهم عبر الأساليب المتفق عليها،[427] ويُنجِز المرء من تلقاء نفسه ما لم يعد يُطلَب منه القيام به،

وتصبح السلطة كامنة، ليس كنوع من الإجبار، وإنما بوصفها طريقًا إلى الذات، فنذهب للعمل في الوقت المحدد، ونلتزم بالقوانين واللوائح، ونفصل نفاياتنا المنزلية، ولا نلجأ ولو لمرة واحدة إلى تطبيق القانون بأنفسنا دون الرجوع إلى السلطات المعنية، إذا ما وقعنا ضحية لجريمة ما، [428]وعلى الرغم من أنه لا أحد يرى ما نفعله، نقاوم إغراء تجاوز المحظورات دون أن يجبرنا أحد على ذلك، فيقل المجهود الذي يبذله الحاكم من أجل السيطرة، وتصبح السلطة مُحصَّنة على المدى الطويل، إذ كلما كانت السلطة أكثر فعالية، قلَّت ملاحظتها، إنها تؤثر في صمت، وأينما يتحتم عليها أن تلفت الأنظار إليها، تكون في خطر[429] .

فرض السلطة

لا تُكَلَّل كل محاولات بناء السلطة بالنجاح، ولكن عند نجاح تلك المحاولات، نجد أنها تتم بنوع من البداهة، وكأن الأمر ما كان ليصبح غير ذلك،[430] كيف ينجح إذن بضع أشخاص في فرض إرادتهم على جموع غفيرة؟ وكيف تصبح السلطة دائمة ثم تتحول إلى حكم وتترسَّخ؟ لأن بضع أشخاص عاقدي العزم يسبقون الجموع الغفيرة غير المنظمة بخطوة، ولأنهم يفهمون كيف يحققون مطلبهم بالحصول على السلطة وكيف يحافظون عليه، تنشأ موازين القوى أينما يكون الأشخاص تحت رحمة بعضهم وحيث يعتمد بعضهم على بعض، فمن يعجزون عن الهرب، لا خيار لديهم سوى الاستجابة لمطلب الأشخاص الآخرين بالحصول على السلطة، قد يقاومونه وقد يخضعون له، ولكن لا يمكنهم أن يتجاهلوه[431].

يعرض بوبيتس تصورًا لباخرة يتعامل على متنها مجموعة من الأشخاص مع بعضهم لوقت مُحدَّد، يوجد على سطح السفينة كراسي بحر يمكن لكل راكب أن يطالب باستخدامها، وما دام عدد كراسي البحر الموجودة أكبر من عدد الركاب، لن يعترض أحد على هذا المطلب، ستسود أجواء من التغاضي المتحضر لن تبرز فيها أي تساؤلات بخصوص السلطة على الإطلاق، إلى أن يختلف كل شيء في يوم ما، ترسو السفينة بأحد الموانئ وتستقبل ركابًا جددًا على متنها، فتخرج مجموعة لتطالب بالحصول على كراسي البحر بشكل نهائي، وتشدد على مطلبها ذاك باستخدام المناشف البيضاء المفروشة على الكراسي، إلا أن رمز الاحتلال وحده ذو تأثير ضئيل ما لم يكن في الوقت نفسه رمزًا على تصميم المحتلين، إذ لن يتحقق مطلبهم بامتلاك كراسي البحر إلا عبر «الجهود

الجماعية لمن يُعرَفوا بالمالكين،"[432] فإذا اقترب شخص ما من أحد كراسي البحر المفروش عليها منشفة بيضاء، سيبعده المالكون بصياحهم العالي، بعد ذلك تُجمع الكراسي وتوضع جنبًا إلى جنب حتى تبدو كحصن مكون من مجموعة عربات، حينها -وفقط بعد فرض صلاحية تصرف مقصورة عليهم- تتحول مجموعة الركاب المبهمة تلك إلى مجتمع طبقي، وبذلك يصبح هناك مجموعة من المُلّاك، في حين لا ينطبق الأمر ذاته على الآخرين؛ لأنهم ممنوعون من استخدام الكراسي، فمن يُطالِب بأشياء لا تخص أحدًا، عليه أن يفرض طلبه هذا ضد إرادة الآخرين وأن يبقيه حاضرًا في الأذهان.

ربما يقوم المُلّاك الآن بتأجير كراسي البحر التي لا يستخدمونها، وقد يكلفون غير المالكين بحراستها، فيعود ذلك عليهم بمنافع عديدة، إذ لن يتحتم عليهم تولي مهام المراقبة بأنفسهم وسيتمكنون من النوم وهم متأكدون من أن ما طالبوا به سيبقى لهم، وسينجحون في التفرقة بين غير المالكين، عندما يوظفون حراسًا من بينهم، فيكسبونهم في صفهم، بذلك تتحول السلطة المبعثَرَة إلى سلطة الوسيلة، فيصبح المرء قادرًا على التهديد دون أن يكون حاضرًا، وسيقوم الحراس بأداء المهام الموكلة إليهم، طالما لا يوجد لديهم أي اختيارات أخرى.

لكن لماذا تخضع الأغلبية إلى الأقلية على الرغم من أنه لا فائدة تعود عليها من وراء ذلك؟ لأنه من الخطورة بمكان مقاومة مجموعة ذات هدف واضح دون معرفة ما إذا كان الآخرون مستعدين للقيام بثورة أم لا، هل قد يلجأ هؤلاء العازمون إلى استخدام العنف ضدهم؟ ومن قد يأتي لمساعدة أفراد المقاومة؟ الوضع مربك، ولا توقعات مضمونة، كما أن غير المالكين عبارة عن مجموعة غير منظمة، وبالتالي موقفها ضعيف إذا ما قورن بالمحتلين الذين يعرفون على وجه التحديد ما يسعون إليه، والذين اتفقوا على استراتيجية لتحقيق أهدافهم، ولهذا ليس بإمكان الأغلبية التغلب على استخدام العنف، فما إن يظهر الحراس، الذين يبدأون في التهديد بتكليف من المالكين، حتى يصبح غير المالكين بالكاد قادرين على الدفاع عن أنفسهم أمام المطالبة بالسلطة، فموقف الأغلبية غير واضح، إذ لا أحد يعرف على وجه الدقة ما قد يقوم به المالكون إن قاومهم أحد، لهذا تتزايد خطورة الوقوع ضحية للعنف.

يتمتع المالكون بفرصة أكبر لتنظيم صفوفهم بشكل فعال، فمن مصلحة الجميع الدفاع عن امتياز كل المالكين الآخرين، لذلك عندما يقوم أحدهم بهذا الأمر، يحذو الآخرون حذوه، يتَّحِد المالكون مع بعضهم ويتحولون إلى مجموعة واحدة، فمن يتَّحِد، يصبح بمقدوره حشد الموارد، والاتفاق على الاستراتيجيات، وإسناد مهام السلطة، يوفر المرء بذلك وقتًا ومالًا، وينجح في التلاعب بغير المالكين دون أن يكون حاضرًا، ويصبح غير المالكين في موقف ضعيف؛ لأن كثرتهم تصيبهم بالشلل فلا يتمكنون من بناء مجموعة، فمن سيرغب في تنظيم انتفاضة، إن كان سيضع بذلك حدًّا لسلامة النظام الخاص به؟[433]

صحيح أن غير المالكين يرغبون في أن يتنازل المالكون عن مطلبهم، ولكن ماذا سيحدث لو نجحت الثورة؟ فالإجماع على أن نظامًا ما لا يتسم بالعدل لم يُفضِ إلى اتفاق على أي نظام يجب اختياره، كما أن هذا الإجماع لم يمنح الأفراد الثقة في قدرتهم على بلوغ ما يرنون إليه، وقد لا يكون في الإمكان إعادة خلق النظام القديم؛ لأن الحق المُطلَق في التصرف قد يتغلب على المطالبات الجديدة بالملكية مرارًا وتكرارًا، فما إن يولد المطلب في هذا العالم، حتى يرفض أن يُطرد منه مرة أخرى.

صار الآن من المستبعد أن تصبح الملكية مرة أخرى شريكًا بين الجميع بحيث يتمكن أي شخص من الانتفاع بها، ولذلك قد يضطر غير المالكين، إذا أرادوا تنفيذ حق الأغلبية، إما إلى العمل على محو فكرة المطالبة بالملكية من الأذهان عن طريق إعادة التأهيل، أو إلى سلب السلطة من مجموعة المالكين بالاحتيال، وحتى إن نجحت الثورة، فعلى غير المالكين الإجابة على السؤال المطروح حول كيفية تقسيم الملكية في المستقبل، فمن المفترض أن ما سُلِب من المالكين، صار الآن ملكًا للثوار، إلا أن كل واحد منهم يرغب في الحصول على جزء من الغنيمة، ولهذا فالمخاطرة التي يُقدِم عليها الثوار كبيرة، إذ لا أحد يعرف مسبقًا ما إذا كانت الملكية ستُقسَّم بين المهاجمين فعليًا في حال نجاح ثورتهم أم لا، لهذا سيتساءلون قبل أن يتحالفوا مع الآخرين من غير المالكين عن المكسب الذي سيعود عليهم وعلى غيرهم عندما يقومون بالثورة، وما سيتبقى لهم ليتفقوا عليه فيما بينهم دائمًا، هو عدم ثقتهم في أنهم سيحصلون على ما يريدون، سينتابهم الشك، فليس في إمكانهم معرفة ما إذا كانوا سينتصرون أو ما إذا كان عليهم الثقة في الاتفاق الذي عقدوه.

يستطيع المالكون توظيف هذا الشك لصالح سلطتهم الخاصة، بينما يتلاعبون بغير المالكين، فيمنحونهم آمالًا، ويمنونهم بمنافع، وامتيازات ومكافآت ومناصب، وما دام غير المالكين لا يستطيعون مجاراة المالكين في التنظيم والتواصل، سيتخلون عن مقامرة القيام بثورة، فأصحاب الامتيازات في موقف قوة بفضل تنظيمهم ووضوح هدفهم، لذلك بوسعهم الاطمئنان إلى استقرار سلطتهم دون الاضطرار إلى استخدام العنف، بهذه الطريقة تتمكن الأقلية من إخضاع الأغلبية لها، فيقدمون لهم المكافآت في البدء، ثم الحماية والرفاهية، ويتحقق استقرار النظام عندما يعترف الجميع أن فئة ما بوسعها الاستحواذ على الملكية دون الآخرين، وعندما يؤخذ بعين الاعتبار في ظل كل الظروف ما سيحدث عند كسر القواعد المنبثقة عن هذا الاتفاق.

يجب إضفاء الشرعية على موازين القوى، كي تتحول السلطة إلى حكم، إذ لا ينظر أحد في بادئ الأمر إلى هيكل السلطة باعتباره شرعيًا إلا المُلّاك؛ لأن من مصلحتهم تمرير الاستيلاء الذي يقومون به كحق خاص مُسَلَّم به، فيتفقون فيما بينهم على أن مطالبتهم بالملكية شرعية، ويبررونها بالتقاليد أو الأعراف أو الخبرات، يصف سيمل فرض المطالبات بالسلطة قائلًا: «تسعى المجموعة لتحقيق أهدافها برعونة وأنانية أشد ضد كل الأهداف التي تسعى إليها المجموعات الخارجية»، ويستطرد سيمل: «وتختلق حينها تبريرات أخلاقية من شأنها تمرير أهداف المجموعة كمصالح تتخطى المستوى الفردي»[434]، فالشرعية تنشأ باتفاق الفئات المتكافئة، إلا أن لهذا الاتفاق توابعه على غير المالكين، يُقدِّم المالكون مطالبهم علنًا متنكرة في زي من المراسم والاحتفالات والرموز، وبأشكال من التحايا وإشارات الاعتراف التي من شأنها أن تُظهِر للمحكومين أن شرعية حقوق المتبوعين الخاصة نابعة من التقاليد أو من النصوص المقدسة، إذ ينبغي أن تكون رموز السلطة مصدر تشريع لإرساء الحكم.

لا يخضع البشر لآخرين فقط لأنهم يخشونهم أو لأنهم لا فكرة لديهم عما سيحدث إذا قاوموهم، فالنفوذ يرتكز –أيضًا- على الاعتراف طوعًا، لم يحصل هتلر وستالين على النفوذ لأن أتباعهما كانوا يخافون منهما، وإنما لأنهما تلاعبا بأتباعهما، ومارسا عليهم خدعة ما، أو أغدقا عليهم الامتيازات، إذ دائمًا ما يحدث أن ينجح أشخاص في اكتساب أتباع لم يكونوا مضطرين في أي لحظة لأن يخضعوا لهم، ولكنهم يفعلون ذلك لأن الزعيم -في نظرهم- يمتلك سمات استثنائية لا

يمتلكها شخص غيره،[435] فهناك وعَّاظ وفنانون وساسة ومعلمون ليس عليهم فعل شيء سوى أن يكونوا أنفسهم وحسب ليحصلوا على الطاعة، يقول سيمل: «تكتسب الشخصية المتفوقة من ناحية الأهمية والقوة ثقة وتأمينًا في محيطها الأقرب والأبعد كذلك، وتحظى أراؤها بتأثير حاسم يتسم بكيان موضوعي»، فتحظى قرارت صاحب السلطة بـ «مصداقية بديهية»، ولا تصبح هناك ضرورة لتبريرها[436].

لا عنف أو قمع في أي مكان، ومع ذلك يسود الامتثال والطاعة، ويبدو للوهلة الأولى وكأن السلطة التي تسعى لفرض نفسها لا ترتكز على العنف إطلاقًا، فهناك أشخاص يمارسون السلطة فقط لأن أشخاصًا آخرين تقبَّلوا مطلبهم طواعية، إلا أن سلطة كهذه عرضة للخطر، فقد لا يكون بمقدورها التغلب على التهديدات في حالة الطوارئ، ولا يمكن تصور امتثال يُفرَض دون تهديد أو عنف إلا في ظل شروط موازين القِوى الضمنية، إذا اندلعت الحرب، لن يخضع أحد لسلطة غير مُجهَّزَة بالشارات وإمكانات القوة المُسلَّحة، وكما يعتقد هوبز «للقاضي المُطَّلِع النزيه قيمة عظيمة وقت السلم، ولكن الأمر ليس كذلك وقت الحرب»[437].

ترتبط السلطة بتوقع مفاده أن صاحب السلطة قادر على تنفيذ إرادته في أي وقت، ويدرك هوبز أن «الطاعة تعني التبجيل، فلا أحد يطيع أشخاصًا يظن أن لا سلطة لديهم لمساعدته أو الإضرار به»[438]، فلا يمتلك السلطة إلا من لديه القدرة على تنفيذ مطالبه أو تهديد الغرباء، وما إن تتكاسل الأسلحة، حتى ينتهي أمر السلطة، لهذا لا يستطيع أن يطلب الطاعة إلا من لديه القوة لحماية الخاضعين له ومن يُؤيد قوله بفِعاله،[439] لكن ما يفعله أصحاب السلطة أيضًا: هو عدم القدرة على الاطمئنان لرسوخ سلطتهم أبدًا، ما داموا لم يحققوا توقعات محكوميهم فيما يتعلق بالأمان، فمن ذا الذي يحتاج إلى حاكم يأخذ فقط، ولكن ليس لديه شيء يقدمه؟

السلطة والعنف

من ناحية أخرى لا تستند فعالية السلطة إلى الثقة في قدرة الحاكم على ضمان الحماية وحسب، وإنما تنبع –أيضًا- من خوف الرعايا من العنف،[440] فحتى أضعف الحكام الذي لا يسعه منح الحماية، قادر دومًا على نشر الخوف والرعب، إذ ترتكز سلطته على إدراك رعاياه لفكرة أن

العصيان يُقابَل بالعقاب وأن الخيانة تُولِّد العنف، فيمنعهم هذا الإدراك من إشعال ثورة، يتحدث سينيه عن لغز التقيد بالسلطة قائلًا: «يعتمد النفوذ جزئيًا على الخوف من شخص أكثر قوة، وإنزال الألم بالتابعين يُعَدُّ الأساس المادي لهذه السلطة،"[441] إلا أن السلطة تضع العصيان في الاعتبار وتعرف أنها مُهدَّدة، لهذا تستفز المنتقدين لها من وقت لآخر كي تتمكن من استعراض ما هي قادرة عليه، يتحدث بوبيتس عن «سلطة الفِعل الإلزامية»، ويكمن الفرق بينها وبين «سلطة الفِعل المجردة» في أنها تستغرق مزيدًا من الوقت، فهي تهدد بإلحاق الأذى وبالقتل، إلا أنها لا تقتل، مثلها في ذلك كمثل قط يلهو بالفأر فقط، ولكن يتركه على قيد الحياة، يقول كانيتي عن ذلك: «الفسحة التي يلقي القط عليها بظله، ولحظات الأمل التي يمنحها للفأر، ولكن في ظل حراسة شديدة الإحكام، دون أن يفقد اهتمامه بالفأر أو نزعته إلى تدميره: كل تلك العناصر مجتمعة معًا، أي الفسحة والأمل والحراسة والنزعة إلى التدمير، يُمكن النظر إليها باعتبارها الجسد الفعلي للسلطة أو حتى السلطة نفسها»[442].

لا تحمي السلطة بعضنا من بعض فقط، إذ من الممكن أن تصبح السلطة نفسها مصدر العنف، فلماذا ينبغي على كل الذين يمتلكون زمام السلطة أن يستخدموها دائمًا فقط من أجل إحلال السلام؟ حيثما لا تضمن السلطة استقرارها، تركن مجددًا إلى العنف؛ فتستعرض ما يحدث عندما يرفض أحدهم الامتثال، وتُظهِر كيف يُقابَل التجاوب بالمكافأة في حين تُواجَه المعارضة بالعقاب،[443] يمتاز العنف المُصدَّر في شكل تهديد معروض في الصور أو مذكور في وصف الآخرين، أو في العرض العلني للإصابات والقتل بالفعالية؛ لأنه يعيد إلى الأذهان ما يحدث في حالة عدم الامتثال، فالعنف الذي يسعى إلى أن يستحيل سلطة، يحتاج إلى العلانية، والسلطة تفقد مفعولها إن لم يكن هناك من يراقب وإن لم يدرك أحد إمكانيات العنف.

يعرف الجميع أن الأنظمة هشة وأن عودة العنف قد تضع كل ما كان المرء متأكدًا منه موضع شك، فالسلطة لا تكون كاملة أبدًا، بل تبقى على ما هي عليه دون اكتمال، وقد كتب بوبيتس: «السلطة غير كاملة، إذ لا يُسمَح بأن يصل الاستئثار بالقرارات إلى حده الأقصى»[444]، يكمن في طبيعة كل العلاقات الاجتماعية أن كل من لديه السلطة مضطر إلى إثبات نفسه يومًا بعد يوم أمام من لا سلطة لهم، ولو كان هناك سلطة كاملة، لتوجب عليها أن تعمل كالعبد، إذ لا يقع اتخاذ

القرار بشأن الحياة والموت في يد الحاكم وحده، فالسلطة تأخذ القرارات المحتملة للآخرين دائمًا بعين الاعتبار، لن يكون الحكام موجودين على الدوام، سيموتون في يوم ما، والرعية تدرك ذلك، فنهاية الحاكم تستحث حلولها، «إذ يُعجِّل العنف بحلولها مثل نهاية أي شخص آخر»[445]، وما يضع حدودًا لسلطة البشر على غيرهم هو قدرتهم على قتل بعضهم، فما دام باستطاعتهم القتل، تبقى السلطة غير كاملة، وحتى عندما لا يحدث شيء في الظاهر، يظل العنف في الصورة؛ لأن مقاومة السلطة أمر قد يحدث في أي وقت.

"يظهر العنف المجرد حيثما تكون السلطة مفقودة"، تقولها هانا أرندت Hannah Arendt من ناحية أخرى، «فالسلطة والعنف نقيضان، حيثما يسود أحدهما سيادة مطلقة، لا يكون للآخر وجود، يظهر العنف على الساحة عندما تكون السلطة في خطر، فإذا ما ترك العنان لتنفيذ قوانين العنف الأساسية، يكون قد حقق بذلك أقصى غاية -غايته ونهايته بمعنى آخر- وهي اندثار السلطة، يستطيع العنف أن يدمر السلطة؛ فهو عاجز تمامًا عن صنعها،"[446] وتعتقد أرندت أن من يستخدم العنف، إنما يتصرف هكذا انطلاقًا من ضعفه، وإلا فلماذا قد يتحتم عليه اللجوء إلى العنف لفرض إرادته في وجه المقاومة؟ فكلما زاد الاضطرار إلى استنفاد العنف، فمعنى ذلك أن مستخدمه لديه سلطة أقل -كما تقول أرندت- وحتى في نظرية الأنظمة الخاصة بلومان لا يكون للسلطة فعالية إلا إذا كانت عبارة عن نظام من العنف غير المُطَبَّق، فما إن يُستَخدَم العُنف، حتى تسقط السلطة[447].

نشأ مصطلح أرندت عن السلطة من فكرة أن السلطة تمثل قوة اجتماعية مُنتِجة على عكس العنف، فما يَحُد السلطة ليس هي نفسها، وإنما «مجموعات السلطة الأخرى الموجودة في الوقت ذاته»، وما يُقيّد السلطة هو التعددية، ولهذا تُوَزَّع القوى بالتناسب بين السلطات المتوازية والمتنافسة في ما بينها، أما الاستبداد فهو عبارة عن «نظام من العنف العاجز» الذي لا يُخلِّف وراءه شيئًا يستحق الذكر سوى النار والخراب، بل ويصنع عنفًا وضعفًا يسوق إليه الحكام والمحكومين، ويمثل محاولة لإحلال العنف محل السلطة، كما ترى أرندت، «يَحُول الاستبداد بشكل مؤثر دون نشوء السلطة، وتحديدًا داخل الميدان السياسي بأكمله؛ إذ يصنع بفعل قوة العزل الخاصة به نوعًا من الضعف، ويفعل ذلك بالبداهة نفسها التي تصنع بها أنظمة الحكم الأخرى سلطتها مع اختلاف الطريقة التي

تلجأ إليها تلك الأنظمة»، قد يُبدي الفرد رد فعل سلبيًا أوبطوليًا على العنف، فإما يخضع أو يقاوم، إلا أن قوة الفرد لن تظفر بشيء أمام سلطة الكثيرين،[448] لهذا تُعرِّف أرندت السلطة بأنها علاقة اجتماعية لا ترتكز على القوة إطلاقًا، فبالنسبة لها يُشكِّل الاستبداد والعنف نقيضًا للسلطة؛ لأن كل منهما يدمر ما تعتبره أرندت علاقات قوة، ولكن هل يمكن حقًّا وصف أنظمة الحكم الاستبدادية في القرن العشرين بأنها أنظمة ضعف؟ ألا يجب أن يشعر المحكومون –أيضًا- بقهر ما كي يصبح حينها الحديث عن السلطة منطقيًا؟ أليس اختبار العنف هو أقوى المؤثرات التي تجعلنا نستشعر سلطة الآخرين؟

الخلاصة: الحكام الذين يحتاجون لتذكير رعاياهم من وقت لآخر بقدرتهم على إنزال العقاب دون رحمة هم حتمًا أضعف من الحكام الذين ما عادوا مضطرين لإرغام الجميع على تنفيذ ما يطلبونه، إلا أن كلا الفريقين يمارس السلطة على حد سواء، فدون القدرة على فرض الهيمنة فعليًا في وجه إرادة الآخرين، لن يكون هناك سلطة مطلقًا، وإلا فِيم يُستَخدم العنف إذن إن لم يكن من أجل فرض الإرادة الذاتية؟

الأنظمة هشة، والسلام سريع الزوال، وكل البشر يدركون هشاشة وجودهم، وقد يتكرر العنف في أي وقت، وحينها سيُطرح السؤال المتعلق بالسلطة من جديد، ولن تنتصر السلطة إلا عندما يستحوذ الخوف من عودة العنف على الوعي، فأولئك الذين يتحتَّم عليهم تحمل العنف، يدركون وجود السلطة في الألم، لهذا لا يتعلق الأمر بضعف الحاكم أو قوته، وإنما بما إذا كان قادرًا على فرض إرادته باستخدام العنف، في أي وقت وفي كل مكان.

السلطة والخوف

يتحول العنف إلى سلطة ما إن يُمنَح مزيدًا من الوقت،[449] وتتضح تأثيراته في الوقت الذي يقع قبله وبعده، فيتحول من شهدوا العنف بفعل خوفهم إلى دُمَىً تحت تصرف السلطة؛ لأنهم لا يرغبون في أن يصيبهم ما ألمَّ بغيرهم، إلا أن العنف، الذي يسعى لإرساء السلطة، يحتاج إلى فترات استراحة، فالتهديدات تصبح واهية عندما لا يصبح لدى الأشخاص المحكوم عليهم بالموت أي شيء يخسرونه سوى حياتهم، والعنف الذي لا يكون أكثر من مجرد صدفة وقدر، لا يؤسس

سلطة راسخة، إذ ليس بمقدور صاحب السلطة أن يعرف ما إذا كان بوسعه الاطمئنان لاستقرار سلطته، وما إذا كانت الرعية المقموعة ستستمر في الخضوع عندما لا يوجد من يستخدم العنف ضدها، إلا بعد توقف هذا العنف، فهل الخوف من عودة العنف شديد بما يكفي ليمنع الرعية من المقاومة؟ يعرف أصحاب السلطة الإجابة على هذا السؤال فقط عندما يراقبون ما يحدث بعد انتهاء العنف الذي مارسوه على الآخرين، فلن يكون بمقدور الأشخاص، الذين شهدوا الترويع، أن يفعلوا أي شيء آخر سوى التفكير في العنف الذي عانوا منه وأن يتأقلموا على عودته، ولطالما أدرك الطغاة حتمية استمرار تهديداتهم بالعنف إذا أرادوا إرساء السلطة؛ لأن سلطتهم تستند إلى قدرتهم المبرهَنَة على إلحاق الأذى والقتل، وأيضًا على رغبتهم واستعدادهم وقدرتهم على تكرار ذلك مرات ومرات، فما إن يُظهروا ضعفًا، حتى ينتهي أمر سلطتهم.

ولكن من أين لصاحب السلطة أن يعرف ما إذا كان رعاياه وحاشيته يطيعونه حقًّا أم يتظاهرون بذلك فقط؟ يقع الطاغية في مأزق؛ لأنه لا يعرف إلا ما يرغب بسماعه لا أكثر، ولا يُنقَل له ما قد يفيده، فيتحدث الجميع بما يرغب الحاكم في سماعه، إلا أنه لا يعرف ما الذي يُخفيه هؤلاء المطيعون في جعبتهم حقًّا، يتحول إلى أسير للسلطة ويتملكه جنون الارتياب، فتحيط الأسوار قصره وتحرسه شرطة سرية، لكنه مع ذلك غير قادر حتى على الثقة فيهم، ولهذا يستبدلهم من وقت لآخر متحججًا بذرائع واهية، يضطر إلى خلق نطاق يتمكن من معاينته ويراقب فيه كل ما يحدث من وراء ظهره، وينتابه الخوف من رفاقه وحاشيته، والمستجْدين الذين يتلمقونه، إلا أنهم قد يقتلونه أيضًا، الخطر مُحدِّق به، لهذا يتملكه وهم الاضطهاد، وينقل إلى محيطه عدوى جنون الارتياب التي تلقي بظلالها على الجميع،[450] فالحاكم يرى أعداء حيثما نظر، وينتابه الخوف حتى من الأصدقاء والأقارب، لذلك يتلاعب بهم، فيأتمن أحدهم على سر ويخفيه عن الآخر، ثم يراقب ما إذا كان سيخبر الآخر بما عرف، ويعمَدُ إلى لغة العنف في كل مكان كي يتجنب وقوع ما يخشاه[451]، يقول كانيتي: «وبذلك يبقى الحاكم مطلعًا بشكل دائم على مدى موثوقية وأمانة الأوعية التي يصب فيها أسراره، فيكون بوسعه تقدير أي وعاء أصبح ممتلئًا عن آخره لدرجة أنه قد ينضح بما فيه، هو وحده من يمتلك مفتاح صندوق نظام الأسرار المتداخل، لذلك يشعر بالخطر إذا ائتمن شخص آخر على المفتاح بشكل كلي»[452].

لطالما وجَّه الحكام المستبدون تركيزهم على تحويل أفراد حاشيتهم إلى شركاء في أعمال العنف المميتة، ولطالما كانوا على دراية بمفعول الرسائل التي تُخّط في اللحم البشري، إذ نادرًا ما استسلموا للأوهام التي تفترض ولاء رعاياهم، لهذا ليس عليهم سوى أن يستعرضوا علانية ما يقود إليه العصيان، يُوظِّف مستخدمو العنف الجسد والألم كأسلحة؛ لأنهم يعرفون أن سلطتهم تتنامى عندما يكون التفكير في العنف هو كل ما يستحوذ على عقول الرعية المذعورة، إذ ترتكز سلطتهم على التكييف السيكولوجي الدائم للجموع التي لم يعد لديها القوة للخروج عن طاعة مُعذبيها، والجناة شأنهم شأن الضحايا المجني عليهم؛ يرون الأجساد المشوَّهة، ويسمعون أصوات الصراخ، فلا تغادر هذه الصورة مخيلتهم أبدًا، لهذا لا يكون الموت ذا فائدة لأصحاب السلطة إلا عندما يُخلِّف وراءه ناجين وأشخاصًا متزعزعين، فتُعرَض جثث القتلى جهرًا، ويُهان الخونة في محاكمات علنية، ويُعتَقَلُ الناس في الشوارع على مرأى من الجميع، كي يصبح بمقدور الكل أن يدرك إلى ماذا يؤدي التمرد، وما دام في الإمكان توظيف الخوف المتَوَلِّد عن ذلك لتعليل إمكانية اللجوء للقتل إو إلحاق الأذى، ستكون السلطة قادرة على تحقيق مسعاها دون سفكٍ للدماء.

يعتقد بعض الناس أن موازين القوى تظل مستقرة فقط عندما يتلقى المحكومون وعودًا دائمة بالأمان وعندما يقوم الحكام بتشديد سلامتهم الخاصة أيضًا، إلا أن تفسير السلطة بمثل هذه الطريقة يتغافل عن أن الاستبداد والإرهاب بمقدورهم –أيضًا- منح الاستدامة لموازين القوى، فعلى الرغم من عجز من لا سلطة له عن التأثير على قدره إلا أن بوسعه تدمير حياة الآخرين عندما يَشِي بهم، فيُشارك في قتل الضحايا وإلحاق الأذى بهم، وينسى أنه نفسه مجرد لا شيء في سيل الإرهاب العارم، ويقنع بأن يرتقي وسط البؤس على من هم أدنى منه على الأقل، من هنا يستمد حكم الإرهاب، الذي لا يمكنه أن يعد بالأمان المتوقع أو السلام وجوده[453].

قتل البشر بعضهم وألحق كل منهم الأذى بالآخر عبر مئات السنين، وليس هناك ما يمنعهم من فعل ذلك في المستقبل أيضًا، فنحن قادرون على إلحاق الأذى، بل وجادّون بشأن ذلك، ولأن هذا هو الوضع، نضطر إلى حماية بعضنا من بعض، وذلك عبر الأعراف والقوانين وكذلك بواسطة الأسلحة التي يمكن باستخدامها فرض الاعتراف بصاحبها في أي وقت، فلا سلام دون موازين قوى واضحة، وسرعان ما ينتهي أمر السلام ما إن يختل التوازن بين الطاعة والأمان، ووحده

القادر على تنفيذ تهديداته هو من يمنع الآخرين من استخدام العنف، فالنظام هو الشرط اللازم لتحجيم العنف، والعنف هو وسيلة لحماية النظام[454]، السلطة والعنف ليسا نقيضين، هما بالأحرى وجهان لعملة واحدة، يحمينا النظام من العنف، إلا أن الوضع كذلك فقط لأنه يمكن فرض النظام باستخدام العنف في أي وقت، يقول بوبيتس: «يجب على الأنظمة الاجتماعية التي لم تُرَسِّخ وجودها من البداية أن تكون قادرة على حماية نفسها باستخدام العنف، عندما يهددها العنف»[455]، فهاجس التفكير في تكرار العنف مأخوذ بعين الاعتبار في كل علاقات السلطة، والسلام والأمان موجودان فقط؛ لأن البشر قادرون على القتل، إذ لا يُمكن تخيل حياة دون سلطة، فلا توجد حياة دون عنف.

[1]- جاك سيملين: عناصر قواعد المذبحة, Elemente einer Grammatik des Massakers، دار Mittelweg رقم 6 لعام 2006 ص 18-40.

[2]- دينيس جونسونDenis Johnson ، في الجحيم. نظرات على هوة العالم، هامبورج 2008، ص 29-32.

[3]- جون كريمر John Cramer ، محاكمة بيلزن 1945، محاكمة لونبيرج ضد حراس معسكر اعتقال أوشفيتس وبيرجن بيلزن، 1945 John Cramer, Belsen Trial جوتنجن 2011، ص 39-47، بن شيبارد Ben Shephard ، بعد الفجر، تحرير بيلزن 1945، لندن 2005، ص 36-39؛ إبرهارد كولب Eberhard Kolb، بيرجن بيلزن، هانوفر 1962، ص 164-171؛ دريك سينجتونDerrick Sington، البوابات تنفتح، تقرير واقعي عن المساعادات الإنجليزية لبيلزن بصور رسمية ونظرة راجعة لرودلف كونسترماير، هامبورج 1948، ص 11-30.

[4]- ريس، «أنا غريب على نفسي»، ص 144.

[5]- يان فيليب ريمستما Jan-Philipp Reemtsma، الثقة والعنف، محاولة للوصول إلى تركيبة خاصة للحداثة، هامبورج 2008، ص 13-23؛ نيكلاس لومان Niklas Luhmann، الثقة، آلية تقليص التعقيد الاجتماعي، شتوتجارت 1968، ص 1.

[6]- يورجن هابرماس Jürgen Habermas ، نظرية الفعل التواصلي، فرانكفورت 1981.

[7]- بيتر سلوترجينج Peter Sloterdijk، الغضب والزمن، محاولة سياسية نفسية، فرانكفورت 2006، ص 32.

[8]- ريمستما، الثقة والعنف، ص 22.

[9]- منقول عن: جوستاف م. جيلبرت، مذكرات نورنبرج، أحاديث المتهمين مع الأخصائي النفسي بالمحكمة، فرانكفورت 2004، ص 32.

[10]- هنا أرندت Hannah Arendt، إيشمان في القدس، تقرير عن وحشية الشر، ميونيخ 1963، ص 194-195؛ ميشيل فيفيوركا Michel Wieviorka، العنف، هامبورج 2006، ص 153-147.

[11]- فيليكس تشوف Feliks Chuev، Sto sorok besed s Molotovym، موسكو 1991، ص 390.

[12]- سونك ناتسل/ هارالد فيلتسر Sönke Neitzel/Harald Welzer، الجنود، بروتوكولات الصراعات والقتل والموت، فرانكفورت 2011، ص 9-46.

[13]- زيجريد لامنيك Siegrid Lamnek، استراتيجيات التبرير الفردية للعنف، فيسبادن 2002، ص 1379-1396.

[14]- „Diese Inquisition!“ مذكرات ليوبوف فاسيليفينا شابورينا برلين 1998، ص 346-347.

[15]- منقول عن: سفيتلانا أليكسيفيتش، زمن الساكندهاند، الحياة على أنقاض الاشتراكية، ميونيخ 2013، ص 227.

[16]- كرامر، محاكمة بيلزن، ص 233-234، يحكي أيضًا هارالد فيلتسر الجاني عن مثل هذه المشاهد أمام محاكمات الحلفاء لمجرمي حرب، كيف يصبح أناس عاديون تمامًا مجرمين في حشود، فرانكفورت 2005، ص 66-67.

[17]- قارن يورج بابروفسكي، فهم العنف في: بحوث تاريخية 2008، ص 5-17.

[18]- روت كلوجر Ruth Klüger: مواصلة الحياة، شباب، ميونيخ 1994، ص 148-149.

[19]- المرجع السابق، ص 149.

[20]- José Ortega y Gasset، ثورة الحشود، شتوتجارت 2002، ص 79.

[21]- مارسيل رايش راينيكي، حياتي، شتوتجارت1999، ص 186-187.

[22]- سول بيلو، هيرتسوج، كولونيا 2009، ص 344.

[23]- هاينريش بوبيتس، ظواهر السلطة، توبينجن، 1992 ص 48.

[24]- تروتس فون تروتا Trutz von Trotha، السلطة الاستعمارية، النظرية الاجتماعية لنشأة الدولة تطبيقًا على منطقة الحماية توجو، توبنجن 1994، ص 39.

[25]- ديرك بيكرDirk Baecker، شكل وقوالب التواصل، فرانكفورت 2005، ص 172.

[26]- بوبيتس، ظواهر السلطة، ص 51؛ بيتر إمبوش «الاتجاه العام مقابل الابتكار»، بحوث العنف، فرانكفورت 2004ص 125-150، هنا ص 139.

[27]- راندل كولينز Randall Collins ، ديناميكية العنف،هامبورج 2011 ص 22.

[28]- ريسزارد كابوسكينسكي Ryszard Kapuscinski، أن تحيا يومًا مرة أخرى، مشاهد داخلية لحرب أهلية، فرانكفورت 2007، ص 155، قارن أيضًا الوصف التفصيلي لفظائع الحرب لدى آدم زامويسكي Adam Zamoyski 1812، حملة نابليون في روسيا، ميونيخ 2012، ص 537.

[29]- ميشائيلا كريست Michaela Christ، ديناميكية القتل، قتل اليهود في بيرديتشيف، فرانكفورت 2011 ص115.

[30]- تراودل يونجه Traudl Junge، حتى آخر ساعة، سكرتيرة هتلر تحكي قصتها، ميونيخ 2002، ص 78.

[31]- بوبيتس، ظواهر السلطة، ص 50.

[32]- فولفجانج سوفسكي، أوقات الرعب، القتل المسلسل، الإرهاب، الحرب، فرانكفورت 2002، ص 25-26.

[33]- كولينز، ديناميكية العنف، ص 36.

[34]- المرجع السابق، ص 507.

[35]- جيرترود نونر فينكلر Gertrud Nunner-Winkler، تأملات بشأن مصطلح العنف، ص21-61، هنا ص 49-55.

[36]- إلياس كانيتي Elias Canetti ، الحشود والسلطة، ميونيخ 1994 ص 54؛ فوافجانج سوفسكي Wolfgang Sofskyعن العنف، فرانكفورت 1996، ص 188-189؛ فينفريد شبايتكامب Winfried Speitkamp ، جماعات العنف، شتوتجارت 2013، ص 184-190.

[37]- نايزل/فيتسلر، الجنود، ص 44.

[38]- إرفينج جوفمان Erving Goffman، طقوس تفاعلية، عن السلوكيات في التواصل المباشر. فرانكفورت 1986، ص 9؛ تروتس فون تروتا، سوسيولوجيا العنف، 1997، ص 12-56.

[39]- ريمستما، الثقة والعنف، ص 34-35.

[40]- ديف جروسمان Erving Goffman، تشريح الموت، إسن 2004، ص 55-104، هنا 90-91.

[41]- بوبيتس، ظواهر السلطة، ص 223.

[42]- باربرا إيرنرايش، طقوس الدماء، أصل الرغبة في الحرب وتاريخها، ميونيخ 1997، ص 162-163.

[43]- فارلام شالاموف Warlam Schalamow، ما رأيته وأدركته في المعسكر، لرلين 2007، ص 293.

[44]- ستيفن بينكر Steven Pinker، العنف، قصة جديدة للإنسانية، فرانكفورت 2011، ص 41،18، 269-273.

[45]- ريس، أنا غريب على نفسي، ص 99.

[46]- يوليوس مارجولين Julius Margolin، رحلة إلى بلد المعسكرات، برلين 2013، ص 120.

[47]- نونر فينكلر، تأملات بشأن مصطلح العنف، ص 48؛ فيفيوركا، العنف، ص 166-167.

[48]- كلوجر، مواصلة الحياة، ص 192-193.

[49]- جولي كاسيدي Julie Cassiday ، محاكمةالعدو، 2000، ص 110-133 .

[50]- بوبيتس، ظواهر السلطة، ص 44-46.

[51]- قارن سفينيا جولترمان، مجتمع الناجين، العائدون الألمان من الحرب وتجارب العنف في الحرب العالمية الثانية، ميونيخ 2009.

[52]- أليكسي تيبلياكوف – Julie Cassiday: Procedura. Ispolnenie smertnych prigovorov v 1920 ch godach - 1930 موسكو 2007، ص 25-66.

[53]- فيفيوركا: العنف ص 163.

[54]- هيرفريد مونكلر Herfried Münkler، الحروب الجديدة، راينبيك 2002؛ فولفجانج سوفسكي، نسق الإرهاب، فرانكفورت 1993؛ كانيتي، الحشود والسلطة ص 333-354، 503-517.

[55]- قارن فيليكس شنيل، مواطن الفزع. العنف والميليشيات في أوكرانيا 1905-1933، هامبورج 2012.

[56]- كولينز، ديناميكية العنف، ص 20، ديف جروسمان، تشريح القتل.

[57]- فيلتسر، الجُناة، ص 30؛ كريستوفر برواونينج Christopher Browning، رجال طبيعيون للغاية، راينبيك 1996؛ توماس ساندكولر/ هانز فالتر شمول، Milgram für Historiker في التحليل والنقد 20 (1998)، ص 3-26.

[58]- منقول عن:جيلبلات، مذكرات نورنبيرج، ص 252.

[59]- فيلتسر، الجُناة، ص 67؛فيليكس رومرFelix Römer، الرفاق، المقاومة من داخل ميونيخ 2012، ص 410-411.

[60]- بريمو ليفي Primo Levi ، الهالكون والناجون، ميونيخ 1990، الطبعة الخامسة ص 123.

[61]- أمير فاينر، شيء نموت لأجله، كثير نقتل لأجله، النظام السوفيتي وبربرية الحرب، 1939-1945، نيويورك 2006، ص 101-125.

[62]- ريمستما، الثقة والعنف، ص 66-67.

[63]- سوفسكي، عن العنف، ص 10-11.

[64]- سيجموند فرويد Sigmund Freud، عن الحرب والموت، فرانكفورت 1987، ص 324-355.

[65]- بوبيتس، ظواهر السلطة، ص 63

[66]- - نفس المرجع السابق، ص 41.

[67]- جيرد ألتهوف Gerd Althoff: «إن المهزومين لا ينعمون بالرحمة إلا نادرًا أو لا ينعموا بها أبدًا»، وكيف يمكن أن نستخلص إحدى الفضائل من تلك الأزمة»، في: شتيفين مارتوس وماريا مونكلر وفيرنر روكه (ناشرين): ميادين القتال، تشفير العنف في ظل تغير وسائل الإعلام. برلين 2003. ص 131-145، الاستشهاد هنا نقلًا عن ص 131-132.

[68]- - مارتن تسيمرمان Martin Zimmermann: «العنف»، ذلك الجانب المظلم لعصر الأنتيكة. ميونيخ 2013. وريشارد ايفانز Richard Evans: طقوس الانتقام، عقوبة الإعدام في التاريخ الألماني في الفترة بين عامي 1532 و 1987. برلين 2001. ص 98-146.

[69]- - سترات هانوفر الحمراء في اليونان: يوميات ضابط الصف تسيهه في الحرب التركية العظمي بين عامي 1685 و1688 هيربرت روريج Herbert Röhrig (الناشر). هيلدسهايم 1975. ص 125، نقلًا عن: رالف بروفه Ralf Pröve. العنف و والحكم في مطلع العصر الحديث. أشكال العنف وتغيرها. في: مجلة علم التاريخ. 47. (1999). العدد رقم 9. ص 792-806. الاستشهاد هنا منقول من ص 795، انظر أيضًا: هورست كارل وهانز- يورجن بوملبورج (الناشرين): جزاء العنف. اغتنام الغنائم من عصر الأنتيكة وحتي العصر الحديث. بادربورن 2011.

[70]- دوروتيا فيلت إيكه Dorothea Weltecke: هل كانت هناك «ثقة» في العصور الوسطى؟ تاملات منهجية. في: أوته فريفرت (الناشر): الثقة. تقاربات تاريخية. جوتنجن 2003. ص 67 – 89.

[71]- راينهارد فيترام Reinhard Wittram: بطرس الأول. قيصر وإمبراطور، «تاريخ بطرس الأكبر في فترة حكمه»، المجلد الأول، جوتنجن 1964، ص 168- 181 وص 235-361 وكريستوف شميت Christoph Schmidt: سيطرة اجتماعية في موسكو، القضاء والجريمة ونظام القنانة بين عامي 1649-1785. شتوتجارت 1996. ص 62-99، للإطلاع علي أهمية الدولة في توسيع نطاق الحرب انظر إيكيهارت كريبندورف: الدولة والحرب، المنطق التاريخي لانعدام الحكمة السياسية، فرانكفورت 1985، وهرفريد مونكلر: الدولة والحرب والسلام. اضطراب العلاقة المتبادلة بينهم.. محاججة لإيكيهارت كريبندورف. في: راينر شتاينفيج (الناشر)، أسباب اندلاع الحروب. فرانكفورت 1987. ص 135-144، ويواخيم كونيش: أيتها الحرب – هذا أنا! مشكلة صراعات الدول في ظل حكم الحكام المستبدين. في: مجلة البحث التاريخي. 14 (1987). ص 407-438.

[72]- - ميشيل فوكو Michel Foucault: المراقبة والمعاقبة. ولادة السجن، فرانكفورت 1992، الطبعة العاشرة. ص 9-12. و انظر أيضًا راينهارد: أنماط الحياة في أوربا. ص 344-355.

[73]- - فان دولمن Van Dülmen: «الثقافة والحياة اليومية» المجلد الثاني. ص 45-59.ص 196-214.

[74]- - نوربرت إلياس Norbert Elias: «عن عملية المدنية والتحضر» دراسات في التكوين الاجتماعي والنفسي، المجلد الثاني، فرانكفورت 1997، الطبعة العشرون.

[75]- - إلياس: «عن عملية المدنية والتحضر»، المجلد الأول، ص 75-77.

[76]- - نفس المرجع السابق. المجلد الأول. ص 358.

[77]- - نفس المرجع السابق. المجلد الأول. ص 359.

[78]- - نفس المرجع السابق. المجلد الأول. ص 260.

[79]- - نفس المرجع السابق، المجلد الأول، ص 361.

[80]- - ميشيل هواردMichael Howard: «الحرب في التاريخ الأوروبي.. بدءًا من العصور الوسطى وحتي الحروب الحديثة في الوقت الحاضر»، ميونيخ 2010. الطبعة الثانية، ص 11-58 وجورج دوبي Georges Duby: أحد بوفين, اليوم الذي نشأت فيه فرنسا، برلين 2002. ص 82-133.

[81]- إلياس: عن عملية المدنية والتحضر، المجلد الأول، ص 363-364، سلوتردايك: الغضب والوقت، ص 12.

[82]- - إلياس: «عن عملية المدنية والتحضر»، المجلد الأول، ص 370.

[83]- - هيلموت ت. بوسيرت وفيللي شتورك (الناشران) Helmuth T. Bossert/Willy Storck: «مجمّعات من كتابات بخط اليد عن العصور الوسطى» لايبزج 1912.

[84]- إلياس: «عن عملية المدنية والتحضر»، المجلد الأول، ص 378-394، وللإطلاع علي تصوير العنف في اللوحات المنشورة في القرن السادس عشر، قارن أيضًا: رامون فوجيس Ramon Voges: «السلطة والمذبحة وما يمثلانه.. طرق تصوير العنف غير المتكافئ في اللوحات المنشورة لفرانتس هوجينبيرج»، في: يورج بابروفسكي وجابريليه ميتسلر Jörg

Baberowski/ Gabriele Metzler (الناشرون): مواطن العنف، نُظُم اجتماعية في ظل حالة الطوارئ. فرانكفورت 2012. ص 29-70.

[85]- - إلياس: «عن عملية المدنية والتحضر» المجلد الأول. ص 373، وإيريك دونينج Eric Dunning: «العنف والرياضة» في: هايتماير/ هاجان: دليل دولي للبحث في مجال العنف، ص 1130-1152.

[86]- نفس المرجع السابق، المجلد الأول، ص 375.

[87]- - سلوتردايك: الغضب والوقت، ص 24-25.

[88]- للإطلاع علي ثقافة البلاط الملكي انظر فولفجانج راينهارد Wolfgang Reinhard: "تاريخ عنف الدولة"، دراسة مقارنة في تاريخ دساتير أوربا منذ نشأتها وحتي الوقت الحاضر، ميونيخ 2003، الطبعة الثالثة، ص 81-85؛ فرانكو أنجيوليني Franco Angiolini: البلاط الملكي، في هاينتس-جيرهارد هاوبت (الناشر): أماكن الحياة اليومية، صور مصغّرة من تاريخ الحضارة الأوربية، ميونيخ 1994، ص 89-95، رونالد ج. أش و أدولف م. بيركه (الناشر): الأمراء والحظوة وطبقة النبلاء. الحاشية في مطلع عصر الحداثة، تقريبًا في الفترة 1450-1650. أوكسفورد 1991، وأندرياس بيشار Andreas Pečar: "اقتصاديات الشرف، طبقة النبلاء الملكية في البلاط الملكي للقيصر كارل السادس، (1711-1740)"، دارمشتات 2003. ص 1-19.

[89]- - بيتر إمبوش Peter Imbusch: "أشكال السلطة وأساليب الحكم عند نوربرت إلياس"، في: بيتر إمبوش (الناشر): السلطة والحكم، نظريات وتصورات من علم الاجتماع، فيسبادن 2012، الطبعة الثانية. ص 169-193، الاستشهاد هنا منقول عن ص 179-183.

[90]- إلياس: «عن عملية المدنية والتحضر» المجلد الثاني، ص 378.

[91]- نفس المرجع السابق، المجلد الثاني، ص 381.

[92]- - نفس المرجع السابق، المجلد الثاني، ص 383.

[93]- - وبيتس: ظواهر السلطة، ص 239.

[94]- بينكر: العنف، ص 129.

[95]- - إلياس: «عن عملية المدنية والتحضر» المجلد الثاني، ص 324-325.

[96]- - بينكر: العنف، ص 142، انتقد ميشائيل ريكينبرج ذلك التصور في كتابه «العنف البعيد عن سيطرة الدولة. تاريخ أمريكا اللاتينية (1500-1930)»، فرانكفورت 2014. ص 13-14.

[97]- - إلياس: «عن عملية المدنية والتحضر»، المجلد الثاني، ص 325.

[98]- فوكو: المراقبة والمعاقبة، ص 21-22.

[99]- نفس المرجع السابق، ص 23.

[100]- - نفس المرجع السابق. ص 393-394.؛ جورج كنير Georg Kneer: "تحليل القوة لدي ميشيل فوكوK في: إمبوش: السلطة والحكم» ص 265-283.

[101]- - مارتن دينجس Martin Dinges: "تحول أشكال العنف في العصر الحديث"، نقد لنظرية الحضارة لنوربرت إلياس. في: رولف بيتر زيفرليه وهيلجا بروينينجر (الناشرون): ثقافات العنف، تحويل العنف إلي طقوس ورموز في التاريخ، فرانكفورت 1998، ص 171-194.

[102]- - "دينجس: تحول أشكال العنف في العصر الحديث»، ص 171-194؛ ريشارد فان دولمن Richard van Dülmen: نوربرت إلياس وعملية المدنية والتحضر، نظرية الحضارة في ضوء البحث التاريخي، في: كارل-زيجبرت ريبرج (الناشر): نوربرت إلياس والعلوم الإنسانية، فرانكفورت 1996. ص 264-274؛ هيلموت تومه: مناهج نظرية لتفسير إجرام العنف طويلة الأمد منذ مطلع العصر الحديث، في: هايتماير/ زوفنر: العنف، ص 315-345، الاستشهاد هنا منقول من ص 324، ومن منظور العلوم الأدبية، روديجر شنيل: تأملات نقدية لنظرية الحضارة لنوربرت إلياس، في شنيل: عمليات المدنية والتحضر، عن الكتابات التربوية في عصر ما قبل الحداثة، كولونيا 2004. ص 21-83.

[103]- - سوزان نيمان Susan Neiman: "الشر في الفكر.. تاريخ آخر للفلسفة"، فرانكفورت 2004. ص 402.

[104]- - استشهاد منقول عن: بيتر لونجريش: هاينريش هيملر، السيرة الذاتية، ميونيخ 2008. ص 709-710 و زاول فريدليندر Saul Friedländer: "سنوات الإبادة.. الرايخ الثالث واليهود" المجلد الثاني: أعوام 1939-1945. ميونيخ 2006، ص 571-572.

[105]- - نيمان: الشر في الفكر، ص 399.

[106]- - بينكر: "العنف"، ص 132.

[107]- - هانز-بيتر دورر Hans-Peter Duerr: "البذاءة والعنف.. أسطورة عملية المدنية والتحضر»، المجلد الثالث، فرانكفورت 1996، الطبعة الثانية، ص 26.

[108]- - يورج بابروفسكي Jörg Baberowski: «بلد خَرِب.. السلطة والعنف في الاتحاد السوفيتي السابق»، في: بابروفسكي / ميتسلر (الناشرون): مواطن العنف، ص 169-188، الاستشهاد هنا نقلًا عن ص 173-174.

[109]- نقلًا عن بينكر: العنف، ص 89.

[110]- - جورج دوبي: "أحد بوفين»، ص 118.

[111]- - جيرد ألتهوف Gerd Althoff: "قواعد استخدام العنف في العصور الوسطى"، في: زيفرليه/ بروينينجر (الناشرون): ثقافات العنف، ص 154-170، الاستشهاد هنا منقول من ص 158، قارن أيضًا: كريستوف ماونتل Christoph Mauntel: "العنف في القول والفعل، ممارسات وقصص في فرنسا في أواخر العصور الوسطى، أوستفيلدرن» 2014، ص 137-176.

[112]- - يورجن إلفيرت Jürgen Elwert: "العنف المفُسَّر أنثروبولجيًا واجتماعيًا"، في: هايتماير/ هاجان: دليل دولي للبحث في مجال العنف، ص 330-367، الاستشهاد هنا نقلًا عن ص 339-342 و هوارد: الحرب في التاريخ الأوربي، ص 18-19.

[113]- - فالنتين جروبنر Valentin Groebner: "صور بشعة.. الثقافة المرئية للعنف في العصور الوسطى"، ميونيخ 2003. ص 35-38 و جيرد شفيرهوف Gerd Schwerhoff: "عملية المدنية والتحضر وعلم التاريخ"، النموذج البحثي لنوربرت إلياس من وجهة نظر تاريخية، في: مجلة تاريخية 266 (1998)، ص 561-605، هنا ص 581-584.

[114]- إيفانز: «طقوس الانتقام»، ص 139-140.

[115]- - دورر: "البذاءة والعنف"، ص 27-28.

[116]- - نفس المرجع السابق، ص 28، ماتياس شلوسبرجر Mattias Schloßberger: "صعوبات عملية الاستقبال، نقد هانز بيتر دورر للأنثروبولوجيا التاريخية لنوربرت إلياس"، في: ليفياتان 28 (2000). رقم 1. ص 109-121، الاستشهاد هنا منقول من ص 119؛ هيلموت كوتسميكسHelmut Kuzmics: "أسئلة موجهة لكتاب نوربرت.. إلياس. بعض المعايير لقابلية اختبار نظرية الحضارة من منظور نقدي، في ترايبل/ كوتسميكس: نظرية الحضارة في الميزان، ص 261-284، الاستشهاد هنا منقول من ص 269.

[117]- -جورج زيمل Georg Simmel: حفاظ المجموعة الاجتماعية علي نفسها، في: زيمل: إصدار مُجمّع، المجلد الخامس، مقالات ومعالجات للفترة بين أعوام 1894 و 1920، فرانكفورت 1992، ص 336-338.

[118]- - جروبنر: "صور بشعة"، ص 33.

[119]- زيجمونت بومانZygmunt Bauman : «جدلية النظام.. الحداثة والهولوكست»، هامبورج 2002، ص 112. قارن أيضًا راينهارد: «تاريخ عنف الدولة»، ص 354 و إيان بوركيت: «الحضارة والتناقض»، في: المجلة الدورية البريطانية لعلم الاجتماع 47 (1996)، ص 135-150 و نونر-فينكلر: «تأملات في مفهوم العن»ف. ص 33، وبيتر إمبوش: «الحداثة والعنف.. آفاق نظرية الحضارة علي القرن العشرين الميلادي»، فيسبادن 2005، ص 287-306.

[120]- بينكر: «العنف»، ص 129.

[121]- ريتر: «صرخات الجرحي»، ص 67؛ جورج إلفيرت: «أسواق العنف.. ملاحظات على معقولية مقاصد العنف"، في: فون تروتا: "سوسيولوجيا العنف»، ص 86-101، «نشأة نظام الاستعباد من رحم الرأسمالية»، انظر سفين بيكرت: «مملكة القطن، تاريخ الرأسمالية العالمية»، ميونيخ 2014.

[122]- - ألتهوف: «إن المهزومين لا ينعمون بالرحمة إلا نادرًا أو لا ينعموا بها أبدًا» ص 13.

[123]- يوهانس بوركهارت Johannes Burkhardt: "حرب الثلاثين عامًا"، فرانكفورت 1992، ص 12.

[124]- - ديتر لانجيفيشه Dieter Langewiesche: "هل تتصاعد حدة عنف الحرب علي مدار التاريخ؟" في: يورج بابروفسكي (الناشر): عصور حديثة؟ الحرب والثورة والعنف في القرن العشرين، جوتنجن 2006. ص 12-36.

[125]- - بوبيتس: «ظواهر السلطة»، ص 72 و انزو ترافيرسو: «الوقوع أسري لسحر العنف.. الحرب الأهلية الأوربية» ،1914-1945، ميونيخ 2008، ص 44.

[126]- بومان: جدلية النظام، ص 112.

[127]- نقلًا عن: فون تروتا: «الحكم الاستعماري»، ص 37.

[128]- - مارك ماتسوفير Mark Mazower: «حكم العالم.. فكرة وتاريخ»، ميونيخ 2013. ص 89.

[129]- أندرياس شتاكي Andreas Stucki: "العصيان والترحيل القسري.. حروب الاستقلال الكوبية 1868-1898"، هامبورج 2012، ص 45-46، قارن أيضًا توماس مورلانج Thomas Morlang: "سعي قبائل الوهيهي إلي دمارهم"، حرب قوات الحماية الإمبراطورية ضد قبائل الهيهي في مناطق شرق إفريقيا الخاضعة للسيطرة الألمانية، (1890-1898)، في: تورلاف كلاين / فرانك شوماخر (الناشرون)، الحروب الاستعمارية، العنف العسكري تحت راية الإمبريالية، هامبورج 2006، ص 80-108 و سوزانا كوس Susanne Kuss: شن الحرب دون حواجز ثقافية عائقة، الحروب الاستعمارية الالمانية في جنوب غرب إفريقيا، (1904-1907) وفي شرق إفريقيا (1905-1908)، في: كلاين / شوماخر: الحروب الاستعمارية، ص 208-247.

[130]- - بن كيرنان Ben Kiernan: «أرض ودم.. الإبادة الجماعية والتدمير منذ عصر الأنتيكة وحتي اليوم»، ميونيخ 2009، ص 476-489، الاستشهاد هنا نقلًا عن ص 479.

[131]- هولجر أفلرباخHolger Afflerbach : "فن الهزيمة"، ميونيخ 2013، ص 173-177. انظر أيضًا شروحات ميشيل هوخجيشفندر عن الحروب الهندية في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر، ميشيل هوخجيشفندر Michael Hochgeschwender: "الوقفة الأخيرة.. الحروب الهندية في غرب الولايات المتحدة الأمريكية"، (1840-1890)، في: كلاين / شوماخر: الحروب الاستعمارية، ص 44-79.

[132]- - ديفيد هيوم David Hume: "دراسة عن مبادئ الأخلاق"، شتوتجارت 1984، ص 106.

[133]- - فرانك بوش Frank Bösch: "نبوءات حقبة ما قبل العصر الفيكتوري والعنف في القرن العشرين» جوزيف كونرادJoseph Conrad: قلب الظلام (1899)، في: أوفّا ينسن / هابو كنوخ (الناشرون): العنف والمجتمع، قراءة جديدة لمرجعيات الفكر الحديث، جوتنجن 2011، ص 91-100، للاطلاع علي تاريخ الحروب الاستعمارية انظر علي سبيل المثال: يورجن تسيمرير / يواخيم تسيلر (الناشرون): إبادة جماعية في منطقة جنوب غرب إفريقيا الخاضعة لسيطرة ألمانيا، الحرب الاستعمارية (1904-1908) في ناميبيا وتبعاتها، برلين 2003، وكذلك آدم هوخشيلد Adam Hochschild: ظلال علي الكونغو، تاريخ جريمة تكاد تُنسي بحق الإنسانية، راينبك 2002، وديفيد فان ريبرو David Van Reybrouck: الكونغو، تاريخ برلين 2013، الطبعة السابعة.

[134]- - جونسون: «في الحجيم»، ص 89-90.

[135]- - ريمستما: «ثقة وعنف» ص 136.

[136]- - ماركوس شرور Markus Schroer: "عنف بلا وجه.. عن حتمية التحليل الشامل للعنف"، في هايتماير / زوفنر: العنف، ص 151-173، هنا ص 152.

[137]- 1- نينا لوجوفسكاياNina Lugowskaja: „أريد أن أحيا.. دفتر مذكرات روسي 1932-1937"، ميونيخ 2004، ص 250.

[138]- كلوجر: «مواصلة الحياة»، ص 149 وريمستما: «ثقة وعنف»، ص 15.

[139]- فون تروتا: «الحكم الاستعماري»، ص 38-39.

[140]- - لونجريش: هاينريش هيملر وروبرت جيروارث: راينهارد هيدريش، سيرة ذاتية، برلين 2011.

[141]- - هيلموت بلسنر Helmuth Plessner: «الأمة المتأخرة.. عن قابلية الإغواء السياسي لروح المواطنة»، فرانكفورت 1974، ص 14و ص 24، (صدرت النسخة الأولى من ذلك الكتاب عام 1935 وصدرت نسخة منقّحة منه عام 1959).

[142]- فولفجانج سوفسكي Wolfgang Sofsky: «الحداثة والهمجية» في: سوفسكي: عصور الفزع، ص 63-77، الاستشهاد هنا منقول عن ص 65-66.

[143]- - نفس المرجع السابق، ص 67.

[144]- - بومان: «جدلية النظام»، ص 27.

[145]- - نفس المرجع السابق، ص 107-108، الاستشهاد هنا منقول عن ص 31.

[146]- - زيجمونت بومان Zygmunt Bauman: «الحداثة والتناقض.. نهاية الوضوح»، فرانكفورت، 1995، ص 17.

[147]- - نفس المرجع السابق، ص 14.

[148]- - نفس المرجع السابق، ص 16.

[149]- - ألبير كامو Albert Camus: «أسطورة سيزيف»، راينبيك 1999، ص 14.

[150]- بومان: الحداثة والتناقض، ص 45-46.

[151]- انظر أيضًا جيمس سكوتJames Scott : تبدو كأنها دولة، كيف فشلت بعض الخطط في تحسين ظروف الإنسان، نيو هيفن/ كونيتيكت 1999.

[152]- - انظر على سبيل المثال ماتسوفير: «القارة المظلمة» ص 85-116 وبيتر هولكويست Peter Hol- quist: صناعة الحرب و وتزوير الثورة، تواصل أزمة روسيا 1914-1921، كامبريدج 2002.

[153]- بومان: جدلية النظام، ص 108.

[154]- - بومان: «الحداثة والتناقض»، ص 55.

[155]- - ماتسوفير: «القارة المظلمة»، ص 152-156 وماتسوفير: «إمبراطورية هتلر، أوربا في ظل حكم النازية»، ميونيخ 2009. ص 171-174.

[156]- هنري فريدلاندر Henry Friedlander: «الطريق إلي الإبادة الجماعية التي ارتكبها النازيون.. من القتل الرحيم إلي الحل النهائي»، برلين 1997، ص 450.

[157]- - بومان «الحداثة والتناقض»، ص 62.

[158]- - إيريك لور Eric Lohr: «تأميم الإمبراطورية الروسية.. الحملة ضد الأعداء الغرباء إبّان الحرب العالمية الأولى»، كامبريدج/ ماساتشوستس، 2003 وويتز: «قرن من الإبادة الجماعية»، وجولي كاسيداي Julie Cassiday: «العدو على المحك»، ص 110-133.

[159]- - جيرد كونين Gerd Koenen: «يوتوبيا التطهير.. كيف كانت ماهية الشيوعية؟» برلين 1998 ويورج بابروفسكي Jörg Baberowski: «أرض محروقة.. الحكم العنيف لستالين»، ميونيخ 2012، الطبعة الثالثة.

[160]- إرنست كليه Ernst Klee: أوشفيتس، طب النازية وضحاياه، فرانكفورت 1997، الطبعة الرابعة، ص 406.

[161]- - ليفي: «الهالكون والناجون»، ص 112-113 وشتيفان كول Stefan Kühl: «مؤسسات عادية تمامًا.. عن سوسيولوجيا الهولوكست» فرانكفورت، ص 211-214.

[162]- - فيفوركا: «العنف»، ص 160، وبومان: «الحداثة والتناقض»، ص 69.

[163]- - بومان: «جدلية النظام»، ص 31-32، انظر أيضًا: بيتر بايلهارتس Peter Beilharz: «حداثة بومان»، في: ماتياس يونجه/ توماس كرون (الناشرون): زيجمونت بومان Zygmunt Bau- man، «علم الاجتماع بين مرحلة ما بعد الحداثة وعلم الأخلاق وتشخيص الحاضر»، فيسبادن 2007، الطبعة الثانية، ص 231-245، الاستشهاد هنا نقلًا عن ص 240.

[164]- بومان: «الحداثة والتناقض»، ص 77. انظر أيضًا إمبوش: «الحداثة والعنف». ص 459-460.

[165]- - مايكل مان Michael Mann: «الجانب المظلم للديمقراطية.. نظرية التطهير العِرْقي»، هامبورج 2007.

[166]- - هانز- أولريش فيلر: Hans-Ulrich Wehler «القومية.. تاريخ وأشكال وتبعات»، ميونيخ 2001، ص 18، وديتر لانجيفيشه Dieter Langewiesche: «الأمة والقومية والدولة القومية في ألمانيا وأوربا»، ميونيخ 2000، ص 16-22.

[167]- توني جدت Tony Judt: «إمعان التفكير في القرن العشرين»، ميونيخ 2013، ص 36.

[168]- - مان: «الجانب المظلم للديمقراطية»، ص 22.

[169]- نفس المرجع السابق، ص 53.

[170]- أندرياس فيمر Andreas Wimmer / كونراد شيتر Conrad Schetter: العنف العرقي، في: هايتماير/ هاجان: دليل دولي للبحث في مجال العنف، ص 313-329، وللاطلاع على تاريخ عمليات التطهير العِرْقي في أوربا انظر نورمان نايمارك Norman Naimark: الكراهية المتأججة، عمليات التطهير العِرْقي في القرن العشرين، ميونيخ 2004.

[171]- للاطلاع على المنظومة الأخلاقية النازية انظر فيلتسر: «الجناة»، ص 48-67.

[172]- - الاستشهاد نقلًا عن مارتن أميس Martin Amis: كوبا، دولة مفزعة، العشرون مليون والضحكات المدوية، ميونيخ 2007. ص 63.

[173]- لوتار فريتسه Lothar Fritze: «جناة لا يشعرون بالذنب.. عن العجز الإنساني في ظل الاشتراكية الديكتاتورية». كولونيا 1998.

[174]- مان: «الجانب المظلم للديمقراطية»، ص 35.

[175]- نفس المرجع السابق، ص 19.

[176]- هانا أرندت Hannah Arendt: «عن الشر.. محاضرة عن قضايا علم الأخلاق»، ميونيخ 2009، الطبعة الثالثة، ص 77.

[177]- سوفسكي: «الحداثة والهمجية»، ص 77.

[178]- كول: «مؤسسات عادية تمامًا»، ص 17.

[179]- ماكس فيبر Max Weber: «الاقتصاد والمجتمع، نبذة عن علم الاجتماع المعرفي»، توبنجن 1980، الطبعة الخامسة، ص 554.

[180]- بومان: «جدلية النظام»، ص 36.

[181]- - نفس المرجع السابق، ص 112.

[182]- - جوانا بورك Joanna Bourke: «الغضب القاتل.. سرديات وقت الحرب عن الأفعال القتالية للعدو»، في: ألف لودتكه/ بيرند فايزبرود (الناشرون): لا أرض عنف للرجال، حروب متطرفة في القرن العشرين، جوتنجن 2006، ص 101-

126، الاستشهاد هنا نقلًا عن ص 114-115، وريتشارد هولمز Richard Holmes: أفعال الحرب، «سلوك الرجال في المعركة»، نيويورك 1985، ص 136-148، ونايتسل/ فيلتسر: جنود، ص 41.

[183]- - نايتسل/ فيلتسر: «الجنود»، ص 84.

[184]- جروسمان: «تشريح القتل»، ص 64-65.

[185]- بوبيتس: «ظواهر السلطة»، ص 74-75.

[186]- للاطلاع على عقلانية الشر، انظر «مقابلة مع زيجمونت بومان Zygmunt Bauman في: بيتر بايلهارتس (الناشر). زيجمونت بومان»، المجلد الثاني، لندن 2002، ص 253و255.

[187]- - ألويس هان Alois Hahn: «جدلية التنوير» وأعيدت مناقشته في: ماكس ميللر/ هانز-جورج زوفنر (الناشرون): «التجديد والهمجية.. تشخيص زمني اجتماعي في نهاية القرن العشرين»، الطبعة الثانية، فرانكفورت 1996، ص 156-174 والاستشهاد هنا نقلًا عن ص 157، انظر أيضًا بيتر إمبوشPeter Imbusch : «الجوانب الحفية للحداثة.. رؤية زيجمونت بومان لمذهب ستالين»، في: يونجه/كرون: زيجمونت بومان، ص 130-163، الاستشهاد هنا نقلًا عن ص 131.

[188]- بومان: «الحداثة والتناقض»، ص 127-128 وانظر أيضًا بايلهارتس: «حداثة بومان»، ص 236.

[189]- - جرترود نونر- فينكلر Gertrud Nunner-Winkler: «هل العنف من خصائص الحداثة؟»، في: ميللر/زوفنر: «التجديد والهمجية»، ص 81-95، الاستشهاد هنا نقلًا عن ص 84-85.

[190]- - يورج بابروفسكي Jörg Baberowski: «ضمان تحقق التوقعات والثقة.. لماذا تستقر بعض النُظم ولا تستقر الأخرى»، في: بابروفسكي (الناشر): «ما معنى الثقة؟ حوار في تخصصات متعددة»، فرانكفورت 2014، ص 7-29.

[191]- - بوجدان كيستياكوفسكي Bogdan Kistjakovskij: «دفاعًا عن القانون.. طبقة المثقفين والوعي القانوني»، في فيتشي: «علامات على الطريق.. أزمة طبقة المثقفين الروس»، فرانكفورت 1990. ص 212-250، الاستشهاد هنا نقلًا عن ص 213.

[192]- - آلي: «المُثقَّلون»، ص 22-23، و 174-183، الاستشهاد هنا نقلًا عن ص 174-175.

[193]- هنري فريدلاندر Henry Friedlander: «الطريق إلي الإبادة الجماعية التي ارتكبها النازيون»، ص 203-205.

[194]- - ماتسوفير: «القارة المظلمة»، ص 66-67.

[195]- سوفسكي: «الحداثة والهمجية» ص 67.

[196]- ماتسوفير: «القارة المظلمة»، ص 66-67.

[197]- سوفسكي: «الحداثة والهمجية»، ص 70-71، انظر ذكريات تاديوش سوبوليفتش الناجي من أوشفيتس، «العودة من الجحيم.. عن تعسف البقاء على قيد الحياة في معسكر الاعتقال»، فرانكفورت 2005، الطبعة الخامسة، وفيسلاف كيلار: «فتحة شرج العالم.. خمسة أعوام في أوشفيتس»، فرانكفورت 2004، الطبعة العاشرة.

[198]- سوفسكي: «الحداثة والهمجية»، ص 69، انظر وصف زامويسكي للمواقع الحربية. 1812.

[199]- انظر نقد أرني يوهان فيتلزن Arne Johan Vetlesen: الشر والمصلحة الإنسانية، محاولة فهم الشر الجماعي المتفهم، كامبريدج 2005، ص 50-51.

[200]- تسيمرمان: «العنف»، وتسيمرمان: «حروب عصر الأنتيكة بين قادة الحرب الشخصيين وتفرد الدولة بشن الحروب، في ديترتيش بيراو» / ميشائيل هوخجيشفندر / ديتر لانجيفيشه (الناشرون): أشكال الحرب من عصر الأنتيكة إلي وقتنا الحاضر، بادربورن 2007، ص 51-70، وهانز-هينينج كورتوم: عن إمكانيات وحدود تشكيل نمط «للحرب» على وجه العموم و»الحرب في العصور الوسطى» على وجه الخصوص، في بيراو / هوخجيشفندر / لانجيفيشه: أشكال الحرب، ص 71-98.

[201]- ميشيل فريمان Michael Freeman: الإبادة الجماعية والحضارة والحداثة، في بايلهارتس: زيجمونت بومان، المجلد الثاني، ص 51-66، الاستشهاد هنا نقلًا عن ص 64، انظر أيضًا شروحات ميشائيل ريكنبرج عن العنف في مواطن بعيدة عن نطاق الدولة، ريكنبرج: العنف البعيد عن نطاق الدولة، ص 10-23، و ص 149-166.

[202]- فون تروتا: «الحكم الاستعماري»، ص 40-41، وبيتر فالدمانPeter Waldmann : «عن عدم التكافؤ بين ديناميكية العنف وديناميكية السلام.. الحروب الأهلية والصراعات الشبيهة بالحروب الأهلية نموذجًا»، في هايتماير/ زوفنر: «العنف»، ص 246-265.

[203]- فون تروتا: «الحكم الاستعماري»، ص 42، وجيرد شبيتلر: «تعداد السكان والحكم البيروقراطي في دول الفلاحين»، في كريستيان جوردانو / روبرت هيتلاجه (الناشرون): «مجتمعات الفلاحين في عصر الصناعة.. عن إعادة بناء أنماط الحياة الريفية»، برلين 1989. ص 97-108.

[204]- بوبيتس: «ظواهر السلطة»، ص 238-239.

[205]- يونج شانج/ جون هاليداي: «ماو.. حياة رجل.. مصير شعب»، ميونيخ 2005، الطبعة الرابعة، وبابروفسكي: «أرض محروقة»، ص 339، وص 376-377، وباول جريجوري: «الإرهاب بالحصة.. أمن الدولة من لينين إلي ستالين، نيو هيفن/ كونيتيكت 2009، ص 220.

[206]- أ- لكسندر لابان هنتون Alexander Laban Hinton: «لماذا قتلت؟ الإبادة الجماعية في كمبوديا والجانب المظلم من الوجه والشرف»، في: المجلة الدورية للدراسات الأسيوية 57 (1998)، رقم 1، ص 93-122.

[207]- هاينر موللر Heiner Müller: «شكسبير.. اختلاف»، في موللر: «مادة بحثية»، لايبزج 1989، ص 105-106 وكلاوس تيفيلايت Klaus Theweleit: «فنانون بارعون في الاستوديو التليفزيوني.. بلا اكتراث»، في: دي تسايت، 18 أغسطس 1995، أدين بالفضل في تلك الإشارة إلي كريستيان تايشمان.

[208]- انظر راول هيلبرج Raul Hilberg: «إبادة اليهود الأوروبيين»، المجلد الثاني، فرانكفورت 1990، ص 347-348.

[209]- - جوزيف جوبلز Joseph Goebbels: «دفاتر يوميات 1924-1945» المجلد الرابع: 1940-1942، (الناشر) رالف ج. رويت، ميونيخ 1992، ص 1645.

[210]- إسحاق أراد Yitzhak Arad: «بيلزك وسوبيبور وتربلينكا.. معسكرات الموت في عملية راينهارد»، بلومنجتون / إنديانا 1987، ص 198، ومان: «الجانب المظلم للديمقراطية»، ص 386.

[211]- ليفي: «الهالكون»، ص 45.

[212]- - جوناثان ليتل Jonathan Littell: «المتسامحات»، برلين 2008، ص 187.

[213]- - انظر على سبيل المثال: برونينج: «رجال عاديون تمامًا».

[214]- بابروفسكي: «أرض محروقة»، ص 310-317، وجريجوري: «الإرهاب بالحصة»، ص 220، وفاليريو بيلليزاري: «يجب القضاء عليهم جميعًا»، في العدد الصادر يوم 11 فبراير 2008 من صحيفة «الإندبندنت».

[215]- - كريست: "ديناميكية القتل"، ص 159-200.

[216]- - كارين كروجرKaren Krüger: "عبارات العنف.. الراديو ونشوة إراقة الدماء بصورة جماعية في رواندا"، في مجلة علم التاريخ 51 (2003)، رقم 10، ص 923-939.

[217]- إسماعيل بياه Ishmael Beah: "قطعت طريقًا طويلًا.. القصة الحقيقية لأحد الأطفال المجنّدين"ـ لندن 2008، ص 126.

[218]- ريزه: «أصبحت أشعر بغرابة نفسي على نحو عجيب» ص 136-137، ومارين لورينتس Maren Lorenz: جراح عميقة، تجربة ممارسة العنف في حروب مطلع العصر الحديث، في أولريش بيليفيلد / هاينتس بوده / بيرند جراينر (الناشرون): المجتمع – العنف – الثقة، في الذكري الستين لمولد جان فيليب ريمستما، هامبورج 2012، ص 332-354. الاستشهاد هنا نقلًا عن ص 342-343، و نونر-فينكلر: هل العنف من خصائص الحداثة؟ ص 86-87، وصوفيا مارشمان: «بومان عن الإبادة الجماعية- الحداثة والقتل الجماعي.. من التصنيف إلي الإبادة؟» في ميشيل هـ. جاكوبسن / بول بودر (الناشرون): «سوسيولوجيا زيجمونت بومان.. تحديات ونقد»، ألدرشوت 2008، ص 75-94، الاستشهاد هنا نقلًا عن ص 90-91.

[219]- بارنجتون مور Barrington Moore: «عن تاريخ العنف السياسي»، فرانكفورت 1969، الطبعة الثالثة، ص 68.

[220]- نقلًا عن زاول فريدليندر: «سنوات الإبادة»، ص 409.

[221]- - سوفسكي: «الحداثة والهمجية» ص 67.

[222]- جان فيليب ريمستماJan-Philipp Reemtsma : «طبيعة العنف بوصفه مشكلة سوسيولوجيّة، في طريق وسط 36 (2006)، رقم 5، ص 2-25، الاستشهاد هنا نقلًا عن 18-19.

[223]- سيجموند فرويد Sigmund Freud: "أفكار لأزمنة الحرب والموت"، في فرويد: أعماله، ألكسندر ميتشيرليش، المجلد التاسع، «قضايا المجتمع.. مصادر نشأة الأديان»، فرانكفورت 1980، ص 40.

[224]- يوهان جالتونج Johan Galtung: العنف الهيكلي، إسهامات في بحوث السلام والصراعات، راينبك Reinbek 1975 ص 13-39.

2نفس المرجع السابق، ص، 9، 13.

[225]- نفس المرجع السابق، ص، 12.

[226]- نفس المرجع السابق، ص، 13.

[227]- نفس المرجع السابق، ص 15.

[228]- نفس المرجع السابق، ص 16.

[229]- نفس المرجع السابق، ص 30.

[230]- جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau: عن العقد الاجتماعي أو مبادئ قانون الدولة، شتوتجارت 1979، ص 5

[231]- كارل ماركس Karl Marx: Der 18. Brumaire des Louis Napoleon برلين 1978 ص 1155.

[232]- كارل ماركس، عن انتقاد فلسفة هيجل عن القانون، برلين 1981، ص 378-379.

[233]- كارل ماركس/ فريدريش هيجل: الأيدولوجية الألمانية، برلين 1978، ص 74.

[234]- يوهان جالتونج Johan Galtung: العنف الثقافي (1990)، ص291-305 .

[235]- جياتريي سي سبيفاك Gayatri C. Spivak : Can the Subaltern Speak ، فيينا، 2008 ص 42؛ كينيث إيان ماك دونالد Kenneth Iain MacDonald: الجسد، العولمة وجدلية الحقوق : في: القانون العابر للدولية والمشاكل المعاصرة 12 (2002) ص 65- 87.

[236]- ميشائل فوكو Michel Foucault: الإرادة والمعرفة، الجنس والحقيقة المجلد الأول، فرانكفورت 1977 ص 161-190

وإصدارات أخرى عديدة لنفس الكاتب.-

[237]- شورير، عنف بلا وجه 156-158.

[238]- نيكلاس لومان Niklas Luhmann: التضمين والإبعاد، الوعي الدولي والهوية الجمعية. دراسات حول تطور الوعي الجمعي في العصر الحديث، فرانكفورت 1994، ص 15-54، شورير : عنف بلا وجه ص 165-166.

[239]- شورير: عنف بلا وجه ص 168-170، كلاوس أوفه Claus Offe: البربرية الحديثة، ص 258-289، لومان التضمين والإبعاد ص 255.

[240]- مقتبس عن شورير : عنف بلا وجه ، ص 152-153.

[241]- انظر مثالاً على ذلك كاترينا إنهيفتين Katharina Inhetveen: العنف الجمعي، الطقوس واللعب والتعميم، ص 235-261.

[242]- زيمل Simmel: الحفاظ الذاتي على الجماعات ص 336-338.

[243]- انظر أيضًا ديرك شومان Dirk Schumann: العنف مفهومًا للبحوث السلام التاريخية، ص 86-100، هنا ص 89-90.

[244]- ألبرت شير Albert Scheer: عن العنف الجسدي كامتياز، ص 202-223، هنا ص 202،203،208،213.

[245]- نفس المرجع السابق، ص 213.

[246]- إيفان بونين Iwan Bunin: الأيام الملعونة، دفتر مذكرات ثورة، فرانكفورت 2008، ص 63.

[247]- نيكلاس لومان Niklas Luhman: السلطة في النظام 2012، ص 51،بوبيتس، ظواهر السلطة، ص 20؛ ميشائيل ريكنبيرج Michael Riekenberg: على طريق الخشب؟ عن مفهوم يوهان جالتونج «العنف الهيكلي، 2008، ص 171-177؛ بيتر ماير Peter Meyer: أسس الاستعداد الإنساني للعنف، ص. 383-410، هنا ص 396.

[248]- نونر – فينكلر Nunner-Winkler: تأملات بشأن مفهوم العنف، ص 41.

[249]- قارن تأملات بشأن كانيتي، الحشود والسلطة، ص 333-354، انظر أيضًا سوزان كراسمان Susanne Krasmann، ص 200-219.

[250]- هيرتا موللر Herta Müller: وطني كان قلب تفاحة، حوار، يونيخ 2014، ص 377.

[251]- كيم دي بول Kim DePaul (إصدار)، أبناء حقول قتل كمبودياذكريات الناجين، نيو هيفن 1997، ص 156.

[252]- جريدة برافدا Pravda عدد 22 نوفمبر 1935.

[253]- ديمتري ليشاتشوفا Dmitri Lichatschow : الجوع والإرهاب، حياتي بين ثورة أكتوبر والبريستوريكا، شتوتجارت 1997، ص 237.

[254]- انظر فيليكو ميسونوفيتش Veljko Micunovic: مذكرات موسكو 1956- 1958شتوتجارت 1982، ص 38، 43-45.

[255]- يوخن هيلبيك Jochen Hellbeck إصدار: دفتر مذكرات من موسكو 1931- 1939، ميونيخ 1996، ص 94.

[256]- ديوبل: أطفال...، ص 157-158.

[257]- فان ريبروك Van Reybrouck: الكونغو، قصة، ص 398-403، الاقتباس من ص 403.

[258]- موللر، وطني قلب تفاحة، ص 62.

[259]- ليندا جرين Linda Green: الخوف طريقة حياة، أكسفورد 2002، ص 307-333، هنا ص 307.

[260]- انظر أورلاندو فيجز Orlando Figes: الهامسون، الحياة في روسيا ستالين، برلين 2008 .

[261]- أليكسيفيتش Alexijewitsch : عصر المُستعمل، ص 297.

[262]- كيلار: Anus Mundi، ص 83-85.

[263]- يورج بابروفسكي Jörg Baberowski: ما الذي يمثل الأنظمة الاجتماعية في زمن التحول؟ فرانكفورت 2008، ص 7-18، هنا ص 12.

[264]- فون تروتا، علم اجتماع العنف، ص 18.

[265]- المرجع السابق ص 19.

[266]- كوهل، منظمات عادية جدًا ص 75-80.

[267]- سوفسكي، ص 25-26.

[268]- بوبيتس، ظواهرالسلطة، ص 49-50.

[269]- سوفسكي، ص 26.

[270]- فون تروتا Von Trotha: علم اجتماع العنف، ص 21؛ قارن أيضًا هيربرت يجر Herbert Jäger الجريمة تحت الحكم الشمولي، دراسات عن جرائم العنف النازية، فرانكفورت 1982، ص 33.

[271]- قارن بوركيBourke، فرينزي القاتل، ص 101-126.

[272]- بيكر Baecker: أشكال التواصل، ص 172.

[273]- فون تروتا، ص 26-27.

[274]- كانيتي، الحشود والسلطة، ص 267.

[275]- فون تروتا ص 28-29، Jan-Philipp Reemtsma جان فيليب ريمستما : نحن كل شيء بالنسبة لك»، هامبورج 1991، ص 7-23.

[276]- جان أمري Die Tortur : .,Jean Améry شتوتجارت 1980 ص 63، 66.

[277]- جان أمري ص 55-56.

[278]- ليتل Littell: Die Wohlgesinnten ، ص 119-120.

[279]- فون تروتا: ص، 30-31.

[280]- إليان سكاريElaine Scarry: جسد يتألم، فرانكفورت 1992، ص 57.

[281]- توماس هوبس: المادة والشكل والعنف في دولة مدنية وكنسية، فرانكفورت 1976، ص 131.

[282]- سوفسكي، ص 7.

[283]- بوبيتس، ظواهر السلطة، ص 223.

[284]- سوفسكي ص 18.

[285]- سوفسكي ص 10-12.

[286]- كارل شميت Carl Schmitt: اللاهوت السياسي، برلين 1979 ص 54.

[287]- سوفسكي ص 12.

[288]- رايش راينيكي: حياتي، ص 186.

[289]- سيجموند فرويد Sigmund Freud: Das Unbehagen in der Kultur لندن 1948، ص 419-506.

[290]- سوفسكي، ص 19.

[291]- بوبيتس، ص14.

[292]- سوفسكي، ص 210.

[293]- المرجع السابق، ص 211.

[294]- المرجع السابق، ص 211.

[295]- سوفسكي أوقات الرعب، ص 27.

[296]- سوفسكي، ص 16.

[297]- جيرت ليديج Gert Ledig: أرغون ستالين، فرانكفورت 2000، ص 20-21.

[298]- قارن بوركي Bourke: The Killing Frenzy ، ص 101-126 .

[299]- كانيتي: الحشود والسلطة، ص 267.

[300]- المرجع السابق، ص 82.

[301]- زامويسكي Zamoyski: 1812، ص 508-509.

[302]- ديتر فيلرسهوف Dieter Wellershoff: Der Ernstfall. Innenansichten des Krieges، كولونيا 1995، ص 273.

[303]- توماس كوهن Thomas Kühne، الرفقة ، جنود الحرب النازية والقرن العشرين، جوتنجن 2006، ص 148.

[304]- بوركي 114-120.

[305]- أثناء المعركة في ديسمبر 1944 قتل الحلفاء جنودًا ألمان ممن استسلموا وسط القتال، قارن بيتر شريبرز Peter Schrijvers ، القتل المجهول، ليكسنجتون 2005.

[306]- نايتسل/ فيلتسر، الجنود، ص 118.

[307]- المرجع السابق، ص 106.

[308]- المرجع السابق، ص 133.

[309]- ماتسوفر Mazower.، حكم العالم، ص 78-105.

[310]- نقلا عن سفين أوليفر موللر Sven Oliver Müller: الجنود الألمان وأعداؤهم، فرانكفورت 2007، ص 221.

[311]- واينر Weiner: شيء نموت لأجله، الكثير نقتل لأجله ص 115.

[312]- ليونيد رابيتشيف Leonid Rabičev: Vojna vse spišet في مجلة زانامیا Znamja 2005، ص 29.

[313]- ريمستما الثقة والعنف، ص 115.

[314]- سوفسكي، ص 62.

[315]- قارن تروتس فون تروتا، ص 221-226.

[316]- فلاديمير بولداكوي Vladimir Buldakov: Krasnaja smuta Priroda i posledstvija revoljuionnogo nasilija، موسكو 2010، ص 495.

[317]- بياتريس هويسر Beatrice Heuser: الحرب غير المتناسقة من العصور القديمة حتى اليوم، بادر بورن 2013، ص 166.

[318]- إلفيرت، أسواق العنف، ص 97.

[319]- رولف بول Rolf Pohl: الطبيعية والباثولوجية ملاحظات اجتماعية نفسية عن مرتكبي جرائم القتل الجماعي، إسن 2004، ص 158-179.

[320]- كوهن، الرفقة، ص 152.

[321]- دفتر مذكرات مجرم الحرب فيليكس لانداو عن أعماله أثناء الحرب في بولندا، في الأرشيف القومي، لودفيجسبورج المجلد 182/ 21808، ص 514-515.

[322]- هارفي أشير Harvey Asher: جناة طبيعيون للغاية، في الكتاب السنوي لبحوث المذابح 2001، رقم 1-2، ص 81-105، هنا ص 104-105.

[323]- لانداو، دفتر مذكرات، ص 532.

[324]- عن مفهوم القتل قارن ألف لودتكه Alf Lüdtke: الحرب حرفة War as Work ، ص 127- 151.

[325]- لانداو، دفتر مذكرات، ص 540.

[326]- المرجع السابق، 521-522.

[327]- إليوت أرونسون/ جادسون ميلز Elliot Aronson/Judson Mills: The Effect of Severity of Initiation on Liking for a Group العدد 59 (1959)، ص 177-181.

[328]- جون ديكي John Dickie: تاريخ المافيا، فرانكفورت 2006، ص 37.

[329]- عمر بارتوف يزعم أن وحشية الحرب تنتج عن خيال أيدولوجي للجنود، قارن عمر بارتوف: قوات هتلر للحماية، رايتبيك 1995.

[330]- أشر، جناة طبيعيون للغاية، ص 100

[331]- كريستوفر برونينج Christopher Browning: قتل اليهود، سياسة النازية، عمل السخرة وسلوكيات الجُناة، فرانكفورت 2001، ص 219-257.

[332]- قارن فلاديمير سولوناري Vladimir Solonari: Patterns of Violence. مجلة Kritika العدد 8 (2007)، ص 749-788.

[333]- كريست، ديناميكية القتل، ص 90-195.

[334]- نيلز بيتر بيرباومرNiels-Peter Birbaumer: الخوف وانعدام الخوف، شتوتجارت 2002، ص 5-27.

[335]- دونالد ل هوروفيتس Donald L. Horowitz : The Deadly Ethnic Riot بيركلي 2001، يورج بابروفسكي: ديكتاتورية الشائعات ص 315-319.

[336]- أليسون دي فورجيه Alison des Forges: لا ينبغي أن يعيش أي شاهدK المذبحة في رواندا، هامبورج 2002، ص402.

[337]- كانيتي، الحشود والسلطة، ص 121.

[338]- كارلو جنتيل Carlo Gentile: Sant'Anna di Stazzema أماكن الذعر، جرائم الحرب العالمية الثانية، دارمشتادت 2003، ص 231-236.

[339]- جوستاف هيرلينجGustaw Herling ، عالم بلا رحمة، ميونيخ 2000، ص 249-250.

[340]- بريمو ليفي Primo Levi: هل هذا إنسان، ميونيخ 1992، ص 105-106.

[341]- فيبكه بيكر Wibke Becker: عن فن البقاء حيًا، فرانكفورتر ألجيماينه عدد 20 مارس 2015، ص 8.

[342]- فارلام شالاموف Warlam Schalamov: عبر الجليد، برلين 2007، ص 289-293.

[343]- جيلبرت، دفتر مذكرات نورنبرج، ص 252.

[344]- أولريكه فيكل Ulrike Weckel، صور مشينة، شتوتجارت2012.

[345]- ليفي، هل هذا إنسان؟، ص 22.

[346]- سوبولفيتش، العودة من الجحيم، ص 46، عايش بريمو ليفي تجربة شبيهة، هل هذا إنسان، ص 15.

[347]- كيلار، Anus Mundi، ص 99.

[348]- ليفي، المختفون، ص 40.

[349]- كيلار، Anus Mundi، ص 99.

[350]- فاسيلي جروسمان تريبيلنكا، الكتاب الأسود، مذبحة اليهود السوفيت، راينبيك 1995، ص 829-34.

[351]- جروسمان، تريبلنكا، ص 839، هيلبيرج إبادة اليهود الأوربيين، ص 520-525.

[352]- جروسمان، تريبلنكا، ص 836- 838، قارن قصة ماركو ديراموس عن ويلات المحارق الحديثة في شيكاغو، قصة مستقبلنا، ميونيخ 1996، ص 36-42.

[353]- جيتا سيريني Gitta Sereny: على حافة الهاوية، حوارات مع الجلاد، فرانز شتانجل وجرائم قتل تريبلينكا، ميونيخ 1995، ص 237.

[354]- ريمستما، الثقة والعنف، ص 108-112.

[355]- فيلتسر، الجناة، ص 262، جاك سيملين Jacques Sémelin: التطهير والإبادة، دور المذابح وإبادة الشعوب، هامبورج 2007، ص 295.

[356]- تؤكد كاترينا شميتن على هذه الفكرة: كاترينت شميتن Katharina Schmit ten: جحيم مليء بالشياطين، الخداع والعنف في معسكرات الإبادة تريبلينكا، مجلة علم التاريخ العدد 62 (2014)، ص 726-748.

[357]- سوفسكي، نظام الإرهاب، ص 257.

[358]- هرشل شبيرلنج Hershl Sperling، تريبلينكا، ص 249.

[359]- شميتن، جحيم مليء بالشياطين، ص 740.

[360]- ريشارد جلازار Richard Glazar: الفخ ذو السياج الأخضر، فرانكفورت 1992، ص 45.

[361]- سوفسكي، نظام الإرهاب، ص 32.

[362]- هاينريش بوبيتس، فقدان الواقع في جماعات، فرانكفورت 2006، ص 175.

[363]- ليفي، هل هذا إنسان؟ ص 156.

[364]- كوهل، منظمات طبيعية جدًا، ص 299.

[365]- سوفسكي، نظام الإرهاب، ص 258.

[366]- سوفسكي، تراكتات، ص 18.

[367]- فريدريش نيتشه Friedrich Nietzsche، عن الأخلاق، ميونيخ 1890، ص 761-900.

[368]- سوفسكي، تراكتات، ص 214.

[369]- المرجع السابق، ص 224-225.

[370]- المرجع السابق، ص 111.

[371]- المرجع السابق، ص 112-114.

[372]- إلفيرت، أسواق العنف، ص 86-101.

[373]- سوزان ميشل Susanne Michl/ يان بلامبرJan Plamper: خوف الجنود في الحرب العالمية الأولى، مجلة التاريخ والمجتمع 35 (2009) ص 209-248.

[374]- ل ن فويتولوفسكيي L. N. Vojtolovskij: الجنود والعواطف في بدايات القرن العشرين، نفسية الجيش الروسي، ص 259-283.

[375]- بنيامين تسيمان Benjamin Ziemann: العنف في الحرب العالمية الأولى، القتل- البقاء- الإحجام، إسن 2014، ص 10-11.

[376]- بوبيتس، ظواهر السلطة، ص 48-49.

[377]- جوستاف لي بون، فسويولوجيا الحشود، شتوتجارت 1973، ص 85.

[378]- سوفسكي، تراكتات، ص 52-53.

[379]- هيلبيرج، إبادة اليهود الأوربيين، مجلد 2، ص 237.

[380]- أوفا ينسن Uffa Jensen: Gewalt als triebhafte Überwältigung في العنف والمجتمع، ص 154-162.

[381]- بوبيتس، ظواهر السلطة، ص 223.

[382]- المرجع السابق، ص 223.

[383]- إرنست كاسيرير Ernst Cassirer، تجربة على البشر، مدخل إلى فلسفة الثقافة، فرانكفورت 1990، ص 283.

[384]- المرجع السابق ص 308.

[385]- بيتر فالدمان Peter Waldmann: هل هناك ثقافة عنف في كولومبيا؟ مجلة الإرهاب والعنف السياسي Terrorism and Political Violence، العدد 19 (2007)، ص 593-609.

[386]- فون تروتا، علم اجتماع العنف، ص 33-34؛ بيتر فالدمان، استحضار العنف، كولومبيا مثالاً، ص 141-161.

[387]- أمري، Die Tortur، ص 70؛ كيلار Anus Mundi، ص 99.

[388]- واينر، شيء نموت لأجله، ص 107؛ كارل شودكوبف Carl Schüddekopf: الحرب، حكايات عن الصمت، الجنود الألمان يحكون عن الحرب العالمية الثانية، راينبك 1997، ص 231-232.

[389]- رومر، الرفاق، ص 410 .

[390]- شومان، العنف مفهومًا أساسيًا لبحوث السلام التاريخية، ص 88-89.

[391]- ريمستما، طبيعة العنف بوصفها إشكالية في علم الاجتماع، ص 18-19.

[392]- شورير، العنف بلا وجه، ص 161.

[393]- المرجع السابق، ص 161-162.

[394]- هيربرت فيليمز Herbert Willems العامود النقدي: فولفجانج سوفسكي: عن العنف Traktat über die Gewalt في مجلة كولونيا لعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي العدد 50 (1998) ص 362- 363؛ يورج هوترمان Jörg

Hüttermann: «توصيف عن كثب» أو استقصاء أسباب العنف؟ ملاحظات عن بدائل خاطئة في ضوء إشكالية التفسيرات الوظيفية في كتاب «العنف» ص 107-124؛ بريجيتا نيدلمانBrigitta Nedelmann: المواجهات في الطرق المعاصرة وبحوث العنف المستقبلية، ص 59-85 مارتن شتاينزايفر Martin Steinseifer: عن فوائد العنف وعيوبه لفهم أحداث وسائل الإعلام، دراسة نقدية عن المذابح والإرهاب في أعمال فولفجانج سوفسكي، فرانكفورت 2006، ص 15-37.

[395]- بيرنارد ويليامز Bernard Williams: والحقيقة والقابلية للواقعية، فرانكفورت 2002، ص 361.

[396]- عن طرح إشكالية تصوير العنف قارن ميشائيل ريكنبيرج Michael Riekenberg: Nراء رائدة في علم اجتماع العنف، لايبزيج 2012، ص 9- 34.

[397]- ديتر فيلرسهوف Dieter Wellershoff: التاريخي والخاص. جوانب التفرع. شتوتجارت 1986، ص 5؛ فولفجانج هاردتفيج Wolfgang Hardtwig: تاريخ معاصر خيالي؟ حكايات أدبية، فرانكفورت 2002، ص 99-123.

[398]- آدم جونسون Adam Johnson: الحياة المسلوبة لليتيم جون دو، برلين 2013.

[399]- قارن فون تروتا، علم اجتماع العنف، ص 20، وأشر، جناة طبيعيون للغاية، ص 112-113.

[400]- بوبيتس، ظواهر السلطة، ص 61.

[401]- ريشارد لوريRichard Lourie ، ستالين، الرسوم السرية لجوزيف فيساريونوفيتش، ميونيخ 1999، ص 15.

[402]- هوبس، ليفياتان ، ص 131.

[403]- ديفيد هيوم David Hume: عن المبادئ الرئيسة للحكومة ، هامبورج 1988، ص 25 – 30، هنا ص 25.

[404]- كانيتي، الحشود والسلطة، ص 268 – 269، يُرجى الرجوع أيضًا إلى كريستيان شيرف Christian Schärf: مملكة العداء انتهت، ص 51 – 56.

[405]- بوبيتس، ظواهر السلطة، ص 24.

[406]- ماكس فيبرMax Weber : الاقتصاد والمجتمع، توبنجن 1972، ص 28.

[407]- بوبيتس، ظواهر السلطة، ص 28؛ هانا أرندت Hannah Arendt: عن الحياة اليومية ميونيخ، 2007، ص 252 – 253.

[408]- كارل شميت Carl Schmitt: حوارات عن السلطة والنفاذ إلى أصحاب السلطة، شتوتجارت 2008، الطبعة الثالثة (صدر للمرة الأولى عام 1954)، ص 33.

[409]- نيكلاس لومان Niklas Luhmann: قواعد اجتماعية للسلطة فيسبادن 2005، ص 117.

[410]- هوبز، لفياتان ص 66؛ هانا أرندت: السلطة والعنف، ميونيخ 2008، ص 53.

[411]- كانيتي، الحشود والسلطة، ص 354.

[412]- Georg Simmel, Soziologie، Untersuchungen über die Formen der Vergesellschaftung، Georg Simmel، Gesamtausgabe, Bd، 11, Frankfurt am Main 1992، ص

.171

[413]- Niklas Luhmann, Macht im System, Frankfurt am Main 2012 ،ص 50 – 51؛ André Brodocz, Mächtige Kommunikation – Zum Machtbegriff von Niklas Luhmann, in: Imbusch, Macht und Herrschaft، ص 247 – 263، هنا ص 251 – 253؛ Arnold Gehlen, Soziologie der Macht, in: Erwin von Beckerath (Hrsg،), Handwörterbuch der Sozialwissenschaften, Bd، 7, Göttingen 1961، ص 77 – 81، هنا ص 79؛ Andrea Anter, Theorien der Macht zur Einführung, Hamburg 2012، ص 50 – 51.

[414]- سيمل، علم الاجتماع ، ص 171.

[415]- بوبيتس، ظواهر السلطة ص 223؛ سيمل، علم الاجتماع ، ص 161.

[416]- بوبيتس، ظواهر السلطة ، ص 31؛ Reemtsma, Vertrauen und Gewalt، ص 147.

[417]- بوبيتس، ظواهر السلطة t، ص 44.

[418]- المرجع المذكور أعلاه، ص 26.

[419]- المرجع المذكور أعلاه، ص 236 – 240، الاقتباس من ص 239؛ Jan-Philipp Reemtsma, Die Gewalt spricht nicht، Drei Reden, Stuttgart 2002، ص 7 – 46، Überblick bei Anter, Theorien der Macht zur Einführung، ص 91 – 101.

[420]- Anthony Giddens, „Macht“ in den Schriften Talcott Parsons, in: Imbusch, Macht und Herrschaft، ص 151 – 168، هنا ص 151 – 153.

[421]- بوبيتس، ظواهر السلطة ، ص 28.

[422]- Richard Sennett, Autorität, Frankfurt am Main 1985، ص 24؛ Popitz, Phänomene der Macht، ص 109 – 118.

[423]- Foucault, Überwachen und Strafen، ص 250.

[424]- Weber, Wirtschaft und Gesellschaft، ص 28.

[425]- المرجع السابق، ص 122.

[426]- Weber, Wirtschaft und Gesellschaft، ص 129.

[427]- Niklas Luhmann, Legitimation durch Verfahren, Frankfurt am Main 1983، ص 32.

[428]- بوبيتس، ظواهر السلطة ، ص 259 – 260.

[429]- Byung-Chul Han, Was ist Macht?, Stuttgart 2005، ص 9.

[430]- بوبيتس، ظواهر السلطة ، ص 185.

[431]- المرجع السابق، ص 187.

[432]- المرجع السابق، ص 188.

[433]- ريمستما، الثقة والعنف، ص 161.

[434]- سيمل، علم الاجتماع ص 445.

[435]- لودولف هيربست Ludolf Herbst: كاريزما هتلر، اختراع المسيح اليهودي، فرانكفورت 2010، ص 14.

[436]- سيمل، علم الاجتماع، ص 162.

[437]- هوبس، ليفياتان، ص 67.

[438]- المرجع المذكور أعلاه، ص 68.

[439]- Schmitt, Gespräch über die Macht، ص 14؛ هوبس، ليفياتان، ص 131؛ أنتر: نظريات السلطة، ص 26 – 32.

[440]- جيلن، علم اجتماع السلطة، ص 78.

[441]- سينيت، الاستبداد ، ص 116.

[442]- كانيتي، الحشود والسلطة ص 333.

[443]- المرجع المذكور أعلاه، ص 333.

[444]- بوبيتس، ظواهر السلطة ، ص 60.

[445]- كانيتي، الحشود والسلطة ص 274.

[446]- أرندت، السلطة والعنف، ص 55، 57.

[447]- لومان، قواعد اجتماعية للسلطة، ص 119؛ إشارة سريعة إلى أنتر Anter: نظريات السلطة ص 124 – 127.

[448]- أرندت، الحياة اليومية، ص 254 – 257، الاقتباس من ص 256؛ إشارة سريعة إلى أنتر: نظريات السلطة ، ص 96 – 97.

[449]- كانيتي، الحشود والسلطة، ص 333.

[450]- المرجع السابق، ص 273.

[451]- المرجع السابق، ص 346 – 347.

[452]- المرجع السابق، ص 346.

[453]- ريمستما، الثقة والعنف، ص 179 – 181.

[454]- بوبيتس، ظواهر السلطة، ص 63.

[455]- المرجع السابق، ص 63.